علي مصطفى المصراتي

مؤرخون من ليبيا

مؤلفاتهم ومناهجهم

عرض ودراسة





الدار الجماهيرية
للنشر والتوزيع والإعلان
AD-DAR AL - JAMAHIRIYA
FOR PUBLISHING, DISTRIBUTION & ADVERTISING


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مُؤرِّخونَ مِن ليبيَا



عليّ مُصطفى المِصراتي

مُؤرّخون مِن ليبيا
مؤلفاتهم ومناهجهم

عَرض وَدراسَة

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان

مؤرخون من ليبـيا

مؤلفاتهم ومناهجهم

علي مصطفى المصراتي

ـ الطبعة الأولى: (1977)

ـ الطبعة الثانية: الربيع 1370 إ.ر (2002)

ـ كميـة الطبـع: 3000 نسخة

ـ رقم الإيداع المحلي: 4185/ 2001 دار الكتب الوطنية بنغازي

ـ رقم الإيداع الـدولي: ردمك 6 - 0132 - 0 - 9959 ISBN

الـدار الجماهيريـة للنشـر والتـوزيع والإ...

مصراته: هاتف: 614658 ـ 051 ـ 606086 ـ 021

ص.ب. 1459 ـ بريـد مصـور 619410 ـ 051

E-mail: daraljamahiriya@maktoob.com

الجماهيريـة العربية الليبية الشعبية الاشتراكيـة

الإهداء

« إلى الذين أحبوا ليبيا وكتبوا تاريخها..

حتى غدوا جزءاً من التاريخ..

أهدي هذا الكتاب »..

علي مصطفى المصراتي

طرابلس 25 أغسطس 1976



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

هذا الكتاب يتناول بالدراسة والعرض مجموعة من المؤرخين الليبيين. والمتأمل في تاريخ الحركة الفكرية في ليبيا يدرك أنها قدمت في مجالات الدراسة والكتابة على مختلف العصور والمراحل أنواعاً من العطاء الفكري والفني إبداعاً.. ونقلاً... وتأثراً... وتقليداً..

ولم تكن بلادنا ليبيا ـ كما تبدو الصورة من بعيد في المجال العلمي والكتابي ـ جفافاً وقحطاً، بل بلادنا رغم الظروف القاسية.. والعوامل والملابسات المتعددة ـ على هذا الشاطىء الإسلامي العربي وفي الجبل والواحات.. أسهمت بقدر غير يسير في التاريخ العلمي والأدبي سواء في مجالات الفقه والتشريع أو اللغة وما يحوط بها.. أو كتابة التاريخ والسير والمناقب. والعطاء الفكري في ميادين التأليف والدراسات هو شيء موجود كائن... ملموس... للدارسين والباحثين.. ونحن في أسطر هذه المقدمة لا نريد أن ندرس أو نقيم عوامل ذلك العطاء وظروفه وإمكانياته وازدهاره... أو ضموره.. وتأثيره أو تأثره فهذه الأمور... وتلك الحقائق والمضامين من صميم هذا الموضوع الذي تعرضنا له في ثنايا الكتاب ويجد القارىء أيضاً إشارات كثيرة لهذا في بعض الدراسات التي قدمناها للمكتبة الليبية.

وموضوع المؤرخين الليبيين ومناهجهم ومؤلفاتهم جدير بالاهتمام

والدراسة والتأمل. . فقد عرفت ليبيا أنواعاً وأنماطاً متعددة من الكتّاب والمؤرخين. . . سواء من ناحية الموضوعات والمضامين التي طرقوا بابها وجالوا في ميادينها. . أو من ناحية الأساليب والمناهج التي نهجوها.

هناك من كتب التاريخ وقدم كتابه باللغة العربية الفصحى. . . لغة الصحاح الأقحاح.

تلمس فيه الأسلوب ذي الإشراقة والأصالة لأنه أستاذ وعالم متمكن من مادته بحكم ثقافته.

وبجانبه في المكتبة التاريخية من كتب بلغة أو لهجة أقرب ما تكون إلى العامية الدارجة. . . ولهجة الأسواق ولا أقول ـ السوقة ـ أو الكلمات التي بعد زمنها حتى أصبحت في حاجة إلى شرح وترجمان حتى يعلم القارىء والدارس المقصود من المصطلحات والتعابير.

وهناك أيضاً من كتب باللغة البربرية فقهاً أو تاريخاً أو ألواناً من العطاء الفني والأدبي مثل مقرين البغطوري والشماخي، في طرقه ومسالكه.

وهناك من كتب باللغة التركية عندما كانت لغة الدواوين والإدارة والمدارس في عصره.

وهناك من كتب باللغة الفرنسية أو نقل وترجم إليها كما صنع الدغيس.

ومن كتب بالإيطالية أو نقل إليها كما صنع إسماعيل كمالي، وهناك من كتب مؤلفه التاريخي وهو على ضفاف البسفور مشتاقاً متطلعاً إلى وطنه ليبيا، كما صنع محمود ناجي وأخوه. . . وأحمد النائب أيضاً وهناك من كتب أوراقه وتراجمه وسيره التاريخية وهو في حضن جبل نفوسة الأشم. . الجبل ذي التاريخ العميق في أصالته مثل ما صنع الشماخي في سيره. . . وهناك من كتب مؤلفه في الساحل أو في مدن مصراتة وطرابلس ومن جلس يملي ذكرياته التاريخية بلهجته العادية في باريس. أو في واحة من واحات الصحراء. . . أو زاوية من زوايا المدارس الدينية على ضوء فاتورة زيت.

أنواع وأنماط في المضامين والمناهج والظروف والملابسات. . . منهم من كتب مؤلفه وهو في رغد من العيش وهناء البال وأكثرهم. . غالبيتهم من ألف في ظروف قاسية وعهود عاتية ومنهم من قدم مختصراً موجزاً على شكل رسالة أو مقالة قد تصلح فصلة أكثر منها كتاباً: ولكن صغر حجمه واختصار مادته. . لا يفقده قيمته العلمية وفائدته التاريخية.

ومنهم من تدفق وأطنب. . . وتشعب وتسربل وامتد به حبل العمر. . وحبل الدلاء. .

وهناك من كتب بدفقة العاطفة وحرارة الوجدان ـ ولا يمكن أن يجرد أي مؤرخ من العاطفة ـ والميل ـ ولو كان المؤرخ في أسمى درجات التجرد والمثالية العلمية ولو عاطفة الاختيار لموضوعه. . . والحب والتقدير لمن يكتب عنهم ويؤرخ لهم. .

ومن بين هؤلاء. . . وهؤلاء من كتب وهو لضيق مصادر لا يتركها. . ويظهر النقل والسرد واضحاً فيما كتب، وهناك من لا مصادر له إلا ذاكرته ومروياته ومشاهداته وهو. . . لابتعاد الزمان. . . وقيمة المضامين. . غدا. . المصدر والمرجع.

وفي المكتبة التاريخية الليبية ألوان واتجاهات. . . هناك المؤرخ الصوفي الذي يهتم كل الاهتمام بالمناقب والسير وقد يخوض في الغيبيات إلى درجة المبالغات.

والمؤرخ الذي يهتم بأسرته وأفراد عائلته ومن يدور في فلكهم. . هو إلى التاريخ العلمي والتربوي أقرب كما صنع الخروبي. . . ومنهم من في كتابته التاريخية يقتصر على بلده وقطره. . . ومنهم من يمتد به البصر والحس التاريخي إلى أبعد. . . زماناً. . . أو مكاناً. .

وهناك من سجل بعض التيارات والأدوار ذات المد والجزر الطبيعي. . وغير الطبيعي. . وأمواج البحر. . . أو أمواج الصحراء. .

وهناك المؤرخ الذي يهتم بالأساطير حتى تكاد أن تكون مواده التاريخية

لوناً من ألوان الأدب الشعبي وتصيد المشافهات.. وتقييد الم
المتداولات..

وبعضهم من ظل كتابه مطموراً... مغموراً في زوايا النسيان
الإهمال.. أو مجرد أوراق متوارية متوارثة. وهناك من دفعت به الظر
الحظوظ إلى أيدي الباحثين فتناولته ورجعت إليه مرجعاً معتمداً. و
هاماً... ومن المؤرخين من كتب ولكن راح كتابه... فلا نجد له في ا
التاريخي إلا مجرد الاسم والعنوان في سطور مقتضبات مثلاً كما أشار ياقو
معجمه إلى عمر بن عبد العزيز الطرابلسي.

أو المؤرخ ابن مخلوف..

ربما رأى هذا المؤلف... وربما سجله لمجرد السماع به وراح ا
إلى الآن... ونرجو أن لا يروح أبد الدهر.. وهناك من كتب في الصحرا
وضاع.. أكل أوراقه السوس... وعثت عليها العتة وقرضتها الأرضة
سافر في رحلة خارج البلاد ولم يعد فكان ضياع الكتاب نكبة وخسارة لا ت
ضياع الأملاك والأموال عوض أو عاد... ولكن ضياع المؤلفات وا
التاريخي ظل نقصاً من النواقص... وثلمة من الثلمات.

وبعض من المؤلفات التاريخية عرفت الطباعة وتداولتها الأيدي...
طليعة هذه المنهل... والتذكار... والأزهار... والنفحات... والإشارا

وهناك من عنى بتاريخ وحوادث بلدة واحدة وهو ما صنعه الغدامسي
قيد تاريخ الواحة في رسالة استنسخها مصطفى الخوجة..

وهناك من خص شخصية واحدة بكتاب جعلها محور التأليف.

ثم انطلق من هذه الشخصية إلى التلامذة كما صنع البرموني المصر
وكما صنع عثمان بن عبد السلام فيما بعد.

والكاتب الذي عنى بالآثار والمزارات وكما يجعل الدليل السياحي.
فقد جعل دليلاً للزوار وطلب الزيارات وحسن الدعوات...

وهناك من اهتم بتاريخ الوطن كله ومختلف الأعصر والأدوار، ومن خص كتابه التاريخي بذكر الأعيان والأعلام، وهناك من كتب على الأسانيد والمرويات كما صنع مقرين من جبل نفوسه في القرن السادس الهجري، وهناك من خص طبقة من الطبقات العلمية في مذهب من مذاهب التفكير الإسلامي. . .

وهناك من اهتم ببلده والقبائل التي حولها، كما صنع الأزهري الزنتاني في كناشه، وهناك المؤرخ الذي له أسلوب النقد والنظرية العلمية. وفي مقدمة هؤلاء وفاقهم جميعاً. . . بنظرته الثاقبة ابن غلبون. . . وقد خصصناه بدراسة خاصة وكتاب مستقل.

ومن المؤلفين من اقتصر على كتاب تاريخي ولم يكتب سواه. . . ومنهم من كان قلمه يكتب في أكثر من ميدان ويجول في أكثر من ساحة من ساحات الدراسات العلمية، والمؤرخ الجانح للحريات، المتصدي للفساد والطغيان، الفاضح لأعمال السلاطين والولاة المستبدين، والناسك المتصوف الذي نكاد نعرفه ونميز ملامحه بمبالغات التأملات. . وأمواج الروايات والتقولات، ومنهم من كان في موكب الحاكم. . . وركاب السلطان، ومنهم من اشتهر حتى عرف اسمه خارج نطاق زمنه وبلاده. . ومنهم من لا يزال مغموراً مطموراً. . لم يسمع باسمه ومؤلفه حتى أهل الخبرة والاختصاص. . وقاصوا جرة التاريخ. . . ونقدمه هنا في كتابنا هذا لأول مرة على محك الدراسة والإبانة والنقد.

وهناك المؤرخ الذي نقل في كتابه كل شيء. . . يكاد أن يكون حاطب ليل. . وبجانبه أيضاً هناك المصفي المغربل الذي لا يرى في التاريخ سرداً. . مجرد سرد. . ونقلاً مجرد نقل. .

وهناك من سجل في عصره الأحداث يوماً بيوم. . زهاء نصف قرن من الزمان وكتب يوميات لها في تاريخ البلاد أهمية لا تقل مكانة عن يوميات الجبرتي، من ناحية السرد والإهتمام والحس التاريخي، وأعني بها يوميات المؤرخ حسن الفقيه.

عندما نتأمل في هذه المجموعة من المؤرخين يتضح لنا أي جهد بذله

هؤلاء. . . وأي عطاء مثمر قدموه للمكتبة التاريخية على بعد المراحل والأزمان ومختلف العهود. . وأنواع المنتوجات الثقافية وتعدد المناهج لديهم.

فهناك من المؤرخين الكتّاب. . . الشيخ الذي درس في رحاب الأزهر. . قطع أشواطاً. . . ثم عاد إلى طرابلس عالماً ممتلىء الوفاض. . . ومنهم أيضاً العصامي. . . الذي لم تكن له رحلة علمية خارج بلده. . . بل درس. . وكتب وألف في موطنه. . . عصامي الثقافة والتكوين. . . شده حب التاريخ بجاذبية العلم والحنين. .

وعندما أردنا أن نخص المؤرخين الليبيين بدراسة وكتاب منذ سنوات تزيد عن العشر وتقترب من العشرين كنا نعتقد في بادىء الأمر أننا لن نصل إلى هذه المجموعة!! من المؤرخين. . كنا قد اخترنا ثلاثة أو أربعة من المؤرخين. . وإذا بالموضوع يتسع والنماذج أمامنا تتعدد. . ونجد وفرة من المؤلفات التاريخية وكثرة من المؤرخين. . وإن كان أكثرها نادراً. . مخطوطاً أو مصوراً وإذا بهذا الجانب فيه ثراء وغناء. . . وجدير حقيقة بالاهتمام والدراسة والعرض والنقد وبعد:

هذه صور من حياة المؤرخين الليبيين ومؤلفاتهم ومفاهيمهم. . وقد بذلنا في تأليف هذا الكتاب جهداً غير يسير. . . وأخذ منا وقتاً غير قصير. . وطرقنا ناحية اعتقد أنها جديرة بأن تتوالى فيها الطرقات والدراسات. . ومن أجل الحفاظ على تراثنا العلمي. . والاعتزاز بتاريخنا. . بذلنا كل هذا الجهد. . . وعن طيب خاطر وإيمان حاولنا ما في الطاقة. . . وبالله التوفيق.

طرابلس الغرب ليبيا

25 أغسطس 1976م

علي مصطفى المصراتي

علي بن مخلوف الطرابلسي

أبو الحسن علي بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي.. من علماء أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل السادس الهجري.

أشار إليه ياقوت الحموي في معجم البلدان عند الكلام على مدينة طرابلس ووصفه بأنه ـ كان عالماً فاضلاً في فنون شتى...

وهناك فقرة ذات أهمية تضيف هذا العالم إلى ساحة المؤرخين إذ يقول «وصنف تاريخاً لطرابلس».

ولعل ياقوت نقل هذا النص والإشارة من عالم سابق عليه هو الإمام السلفي ـ الذي سبق له أن اجتمع مع المؤرخ علي بن مخلوف.. بل وشاهد كتابه في التاريخ ونقل عنه.

وهذان النصان.. أو هاتان الإشارتان من السلفي وياقوت تؤكّدان قيمة علي بن مخلوف واهتمامه بتاريخ بلده طرابلس... وأشار الإمام السلفي إلى أن المؤرخ علي بن مخلوف كان من بيت صلاح.. وقدم المؤرخ الطرابلسي الاسكندرية.. وكان مكتمل النضج العلمي... وكان له اهتمام بالتواريخ.. وصنف لطرابلس تاريخاً! ويبدو أن السلفي شاهد كتاب التاريخ الذي ألفه

علي بن مخلوف إذ يقول «. . . . وصنف لطرابلس تاريخاً وقفت عليه وانتخبت منه ما استغربته. . . وحدثني به. . . وقد كتب عني كثيراً. . .». . . الخ.

وهذه شهادة لها قيمتها ووزنها. . ولعل الأيام تجود لنا بهذا الكتاب الذي ضاع في خضم الزمن. . إنه مؤرخ تحدث عنه السلفي. . وناهيك به!

مقرين البغطوري

أشياخ جبل نفوسة

سيرة. . . أو تاريخ ومرويات أشياخ جبل نفوسه.

كتاب له صلة بالتاريخ العلمي لهذه المنطقة وهو على نمط ومنهاج كتب المناقب.

سرد لمرويات. . . ونتف من أخبار مقتضبة أو متداخلة وذكر لمشايخ من حفظة المذهب الأباضي. .

وهو كتاب يعد من المراجع للمهتمين بمثل هذه الاتجاهات الفكرية. ودراسة لون من ألوان العطاء الفكري وجانب من جوانب التاريخ.

ومؤلفه هو: الشيخ مقرين بن محمود البغطوري من جبل نفوسة. . . من علماء أواخر القرن السادس الهجري. . وقد فرغ من تأليف كتابه هذا في أواخر شهر ربيع الثاني عام 599هـ ـ 1202م وترجمته قليلة أو نادرة رغم شهرته لدى الدارسين للتاريخ.

وقد أشار لترجمته المؤرخ الليبي أحمد عبد الواحد الشماخي في كتابه «السير» حيث أورد له ترجمة في صفحة 458 ـ قائلاً:

(. . ومنهم الشيخ مقرين بن محمد البغطوري أحد الأشياخ الذين تمسكوا بالعلم، واهتموا بالعمل واتبعوا الطريق. . . وهو من حفظ على

المذهب وحافظ على السيرة. . . وهو أحد المؤلفين سيرة من قبله من أشياخ جبل نفوسة، وألف في الفقه ما تيسر.

أخذ العلم عن أبي يحيى توفيق الجناوني وأظنه أيضاً أخذ من أبي محمد عبد الله بن محمد لأنه كثيراً ما يروى عنه السير والأخبار.

وذكر أنه أكمل الكتاب في أواخر شهر ربيع الآخر عام 599هـ في جناون في محضر الشيخ أبي يحيى توفيق رضي الله عنه).

وقد اعتمد عليه ونقل منه كثير من مؤرخي المناقب والسير وكان من مصادر الشماخي، عندما كتب ـ السير ـ وأشار إليه في أكثر من موضع في كتابه عندما قال. . . ـ قال البغطوري:

ولا نعلم كثيراً من حياة ـ مقرين ـ سوى هذه الإشارة الموجزة إليه. . . وهو عندما ألف كتابه عن مرويات أو سير أشياخ جبل نفوسة. . . لم يقدم لنا في مقدمة الكتاب أو ثناياه ما يدلنا على جوانب من سيرته وحياته. . .

ولكن ندرك من إشارة الشماخي إلى أنه أتم كتابه بمحضر الشيخ يحيى ببلدة ـ جناون ـ وهي من منطقة الجبل قرب جادو.

وكان في زيارة أو رحاب شيخه أبي يحيى توفيق.

وهذا الكتاب رغم إيجازه الذي قد يصل إلى درجة موغلة في الإيجاز يدل على ازدهار الحركة الفقهية وخصوبة الروايات وتعدد الرحلات والزيارات العلمية، وقد ازدهرت الرحلات العلمية وكثرت داخل الجبل وفي أنحاء البلاد. . وخارج الوطن في أنحاء العالم الإسلامي وكانت هناك مراكز علمية تقصد للزيارة والانتهال العلمي. وأخذ الأسانيد وتثبيت المرويات. . كانت مرويات ولقاءات أثمرت في مجالاتها الحركة التشريعية والفقهية والصوفية أيضاً.

وبالتالي أثمرت حركة التأليف والاستنساخ للكتب. . مع المد والجزر لتيارات مختلفة مما يحكيه ويرويه تاريخ تلك المراحل. .

والتي لم تخل أحياناً من مرارة أو عنف وانكماش وامتداد. . ويهمنا هنا جانب التاريخ العلمي. . . فهذه الأسانيد والمرويات في كتب التاريخ العلمي تعطي صورة عن وجود مدارس. . . وحلقات. . وأساتذة. . . ومشايخ حملوا أسانيد العلم خلفاً عن سلف.

وتدل هذه الأسانيد والمرويات على الاغتراب والترحال في سبيل الدراسة الفقهية وحفظ التفسير والأحاديث وألوان من التفكير الإسلامي.

وفي هذه الأجواء كانت مصاولات ومحاورات لا تخلو من حدة أحياناً. . ولكن فيها للمؤرخ الدارس مجال للتأمل والدراسة والاستنتاج العلمي، وفيها حفظ للمقاييس والأصول المتعارف عليها آنذاك. . . أسانيد ومرويات تعطي فكرة عن الاهتمام بالدراسات والمؤلفات ـ وهذه المؤلفات بمقياس زمنها كانت شيئاً يتلهف عليه، ويسعى إليه، فهي مواد لها أهميتها، يجد فيها الدارس في ثنايا التراجم ثروة تاريخية واجتماعية عندما يتأمل حياة هؤلاء المشايخ وتلك السيدات اللاتي وهبن أنفسهن للتبتل العلمي. . على مختلف المستويات. . . وتعدد الفروع.

لم نجد في النسخة المخطوطة التي بين أيدينا لكتاب مقرين عنواناً. . ولا مقدمة للمؤلف. . بل دخل على موضوعه مباشرة مبتدئاً تاريخه بسيرة شيوخ أهل المشرق عصراً بعد عصر على حد تعبيره. ومن يكون لديه أولى بالتقديم في القائمة من شيخ المذهب الفقيه العمدة ـ جابر بن زيد ـ وعبد الله بن إباض ـ من أهل ذلك العصر؟

والفصل الثاني ذكر أبي عبيدة ـ ومن في عصره كأبي صالح الدهماني ـ وصمام بن السايب ـ وأبي المؤثر ـ وعلي بن الحصين ـ الخ.

العصر الثاني من أئمة علماء المشرق.

الربيع بن حبيب الفراهيدي المتوفى عام 170هـ 786م ـ ووائل الحضري ـ وابن عمارة ـ وابن غسان مخلد ـ وذكرهم عصراً بعد عصر.

هؤلاء بعض أئمة ومشايخ أهل الشرق وعلمائه من الرعيل الأول من علماء المذهب الأباضي.

ويشير المؤلف البغطوري في كتابه قائلاً:

(. . . قالوا قد جاز فيما مضى في نفوسة من بلغ مثل ما بلغ بعض هؤلاء والله أعلم).

وأشار في سرده للمناقب إلى مجموعة من المشايخ العلماء من السلف الصالح الذي كان قد جعل ديدنه ودهره كله بين الجهاد. . . والرباط. . . والحج. . .

ويشير إلى طبقة أو فئة من علماء أهل أفريقيه وأهل جربه وطرابلس يجتمعون نحو ألف رجل أو أقل أو أكثر لا يكون الكلام بينهم في المجلس إلا بالترجمان كانوا يجتمعون فيما بينهم وبين فزان فزالت تلك الطبقة. . . على حد تعبيره ونصوص مروياته. .

فكانت الطبقة التي بعدهم تجتمع في هذا الجبل في المشاهد. . . ويشير إلى التاريخ العلمي والفكري في هذا الجبل بطرابلس وماضيه الثقافي.

(. . . قد بلغنا أنه جاوز زمان على جبل نفوسة نشأ فيهم العلم حتى لا يحتاج فيهم منزل إلى منزل في مسألة. . إلا من طريق الأدب والورع وما يحمل فإذا نزلت مسألة في لالوت. . . دارت منازلهم إلى تغرمين، فإذا نزلت بتغرمين دارت إلى لالوت ثم ترجع إلى المنزل الذي نزلت فيه فيفتونها ـ وذلك من كثرة ورعهم، وزهدهم في الدنيا ورغبتهم عن أنفسهم).

ولالت أو لالوت هي ـ نالوت ـ وتغرمين ـ أرض الزنتان.

ثم يشير المؤلف إلى أن الورع والزهد من شيمة العلماء السابقين. . أما عصره. . وهو القرن السادس الهجري ـ فهو بالمقارنة إلى سابقه من أعصر ينتقده. . والانتقاد شيمة أهل العلم. . دوماً ينظرون إلى الماضي بإكبار، والمعاصرة قد تكون حجبها كثيفة. . فهو يقول مادحاً الماضي. . منتقداً علماء عصره. .

(قيل عن العلماء الماضين كان يود أحدهم، لو كان لأهل الدنيا كلهم علماً حتى لا يحتاج إليه، بخلاف أهل زماننا يود أحدهم أن لا يكون يفتي غيره ولا مسؤول غيره إلا هو. . . إلا من شاء الله).

ويعلق الشيخ مقرين البغطوري على هذه الظاهرة قائلاً:

(. . وقيل علماء آخر الزمان مثل الضرائر ـ نسأل الله أن يعصمنا من هذه الأخلاق الرديئة).

يلاحظ كلمة آخر الزمان وهي كلمة قيلت منذ ثمانية قرون ونيف.

وهو باعتباره مؤرخاً ومسجلاً لمناقب الماضي ينظر إلى ذلك الماضي بشغف وحب وإكبار قد لا يخلو من مبالغة المحب المعتز. . فهو يقدم فكرة. . أو صورة عن الماضي العلمي والاجتهاد في هذا الجبل بأسلوب المتأثر الشغوف بتاريخ أمجاد قومه.

(. . قيل إن الماضين يحرثون شهرين ويحصدون شهرين ويتفرغون لطاعة الله ثمانية أشهر وقالوا لولا تلك الأربعة الأشهر ما تصح هذه الثمانية).

والكتاب ليس على نسق كتب التاريخ التي تهتم بالأرقام والتسلسل الزمني. . . بل هو على نمط المقتطفات واللقطات. . وأنواع من الطرائف أقرب إلى الحكايات أو المرويات التي تشحن بها كتب السير والمناقب، وهي أيضاً من أودية التاريخ أو حقوله. . . زهرة من هنا. . ونبتة من هنا. . أو شيء من العشب أحياناً. ويذكر طرائف من حياة وسلوك أنواع من العلماء والزهاد. . والعابدين والعابدات. . من أجيال متقادمة من جبل نفوسة.

ولكن. . رغم الأخلاط والأمشاج في بعض الصور واللقطات هي في الحقيقة والواقع تجد في ثناياها صوراً من الحياة الاجتماعية. . والأحداث التاريخية ومقياساً من مقاييس المستوى الثقافي. . سواء لمن تناولهم بالإشارة والحديث أو لمن لمح إليهم تلميحاً سريعاً.

وهو لا يهتم كثيراً في سرده لهذه اللقطات أو تسجيله لهذه الطرائف. . أو

التراجم المختصرة أو الكتب التي تقل عنها أو المصادر التي استقى منها. . . أو المراجع التي اعتمد عليها. . كما يصنع غيره من كتاب السير والتاريخ بل هو في الأغلب. . وبصورة عامة يقول عن سرده لهذه الأشياء وذكره لهذه الحقائق.

ـ ذكروا

ـ بلغنا

ـ وروي

ـ وقيل

مما يدل على أن من أهم مصادره ومراجعه هو السماع والمرويات المشافهة. . والمنقولات المروية.

ويشحن كتابه ببعض من الغيبيات وحكايات وأمور تتصل بما هو فوق الحس العادي. . . أو المنطق المعتاد مما يدخل في دائرة الغيبيّات والكرامات. وهي أمور وأشياء لا تخلو منها كتب السير والمناقب. . . مثل ما رواه وحكاه المؤلف أو أضافه إلى أبي زكريا يحيى بن سفيان.

والكتاب من الناحية التاريخية والجغرافية أيضاً ـ فضلاً عن هذه الجوانب ـ قد يفيد بشكل ما الدارسين لأسماء المدن والقرى والأودية والمهتمين بجغرافية الجبل. . فهو يضم عدداً وافراً من أسماء المدن والقرى والبلدان لا زالت قائمة عامرة.

وأسماء أخرى لقرى ومدن وبلدان. . غدت مندثرة ومجرد أطلال دوارس. . . وأسماء قرى غمرت وضاعت. . . وعفى عليها الذي عفى على لبد. . .

ويذكر أمثال هذه الأسماء مع الشيوخ الرواة الذين عاشوا فيها أو نسبوا إليها.

شروس. تماليت. جادو. بغطورة. سدراته. تماللت. كزين. فساطو. الذمومن. دجي. ايفاطمان. تمزدا. مانو. لالوت. نالوت إلخ.

وهو عندما يترجم أو يشير إلى شخصية مثل أبي زكريا محمد بن سفيان يروي من أودية الروايات والسماعات طرائف من حياته ولم يترجم له ترجمة منهجية إنما جوانب وحكايات. . هي ـ كما سبق أن أشرنا ـ قد تكون من مواد الدراسات الاجتماعية والحياة الفكرية في تلك المستويات، ولكن رغم هذا وما يكتنفه. . . هناك أشياء ذات دلالة وأهمية. . هناك نص وثائقي مهم. . عند الكلام على هذا الشيخ ـ أبي زكريا محمد بن سفيان وهو. .

(. . . وقد جاءته الكتب من فزان بعدما كبر وضعف عن القراءة فيقول:

يا ليتني أدركتها في شبيبتي. . . فيقرأ عليه واحد منهم حتى يفتر. . ثم يرجع الآخر فيدرس عليه إلى آخر الليل فيقيمهم فيشتغل هو في وظائف صلاته فيصير إلى المسجد فيصلي حتى يطلع الفجر. .

فيؤذن ويصلون ويشتغلون بالقراءة حتى تطلع الشمس. . . فيجعل لهم المجلس فإذا افترق المجلس اشتغل بالقضاء بين الناس إلى زوال الشمس فيقوم ويشتغل بالصلاة).

وكان كريماً حتى وصف المؤلف ذلك قائلاً:

(. . قيل لو جعل ما أطعم من الخبز بين جبلي منزله لسدها من كثرته).

ولما حضرته الوفاة أوصى قائلاً:

(مصاحفي. . وكتبي. . وحياتي كلها حبس لوجه الله لا تورث ولا تباع. ولا توهب حتى يرثها الله وهو خير الوارثين).

وكان وجيهاً في قومه ذا ثراء وتجارة مع علم به ينتفع، وورع به يُتَّقَى. . . وصوفية بها تستشرف نفسه وقال عنه مقرين البغطوري في سطور كتابه:

(روي عنه أنه سعى وكسب مالاً كثيراً وكان يسافر إلى قاد مكث بالسودان. .

وقيل عنه أنه يصب بحمد الله ثلاثمائة مج في السنة تيناً. . والمج اثني عشر كزوة فينفق مائة على عياله، ومائة لتلامذته ومائة يطعم الأضياف).

أم يحيى

وفي ثنايا الكتاب إشارة إلى عدد من العالمات الدارسات للفقه والتشريع من نساء جبل نفوسة ونجده يتحدث من مسموعاته ومروياته عن شخصيات من المجتمع النسوي. . مما يؤكد دور المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية في ذلك المحيط. . وهذا نموذج ساقه يوضح صورة لسيدة فاضلة كان لها أثر وتأثير. . عندما تحدث عن أم يحيى وكانت من أهل منطقته أو بلدة تسمى ـ حليمة ـ.

(روى عن أم يحيى من أهل حليمة. . . كانت امرأة صالحة وورعة عالمة. . وكان سبب توبتها، أنها كانت قاعدة، في بيت الوليمة فوقعت التوبة في نفسها ـ قالت للنسوة سأخرج. فقلن لها: كيف تخرجين والبيت قد انسد بابه بالسفهاء وكانوا لا يتركون من يخرج من البيت، فلم تشتغل أم يحيى بذلك. فقالت لهن ـ تنحوا عن الطريق وخرجت حتى وصلت إلى الصخرة التي كانت على الباب فضربتها وخرجت.

وهناك عملوا عليها بعد ذلك مصلى وهو معروف إلى يومنا هذا (أي عصر المؤلف القرن السادس الهجري) واجتهدت في عزمها. . . حتى صارت أفضل نساء زمانها فكانت تمشي إلى ابن غلبون من أهل كزين. . وتتعلم منه، فلما رأت الشيخ كبر قالت له:

ـ نحن النساء ضعاف إذا رأينا رجلاً يقرأ سطرين في كتاب فنحسبه عالماً. فعلى من تدلني بعدك إن عشت؟ ـ فقال لها ـ

جيد أي أمان جيد النفس لا تفرط فيها يعني إيمان للرأي فيما يبوح أو يقول.

فأبان بويغو، وجندول بتمنكرت مثل العلمين في الفصاح، فمن تمسكت به منهم أجزاك فلما مات نزلت علينا مسألة فأرسلت بها إليهما فرد إليها جندول جواب كتابها.

وأما أبان فأتاها بنفسه فتمسكت بأبان وتركت جندول فكان أبان يمشي إليها ويزورها. . فخطبها لأبي ميمون التصليتي فقال لها:

ـ سأخطبك لرجل كسلان لدنياه قائم بآخرته. ثم قال لها:

ـ كانت له ساقية فوق غارة وقد انكسرت إلى المغار فإن قضى الله عليك بتزويجه فلا يصلحها إلا أنت. . فتزوجها. . . فلما أراد أن يجلبها نزل بها من الجبل ومروا على الطريق السفلاني وهي راكبة على الجمل في القبة قالت ـ فحللت أزرار القبة فرأيته. . فجاء في عيني بين أصحابي أصغرهم. ـ قالت: فتذاكروا في طريقهم مسائل الرجال: تعني التوحيد. فمكثوا في طريقهم من يوم إلى يوم قالت: فلما طلعنا من جبل تصعيت إلا فاقهم كلهم في عيني. قالت: فوجدته وعليه أربعون ديناراً. . فقضهم كلها من عمل يديها. .

وقيل عنها إنها تعمل عديلة ثياب في مسنتها، وقيل عنها حين كانت في حليمة إنه تقدم رجل من الجماعة ليصلي بهم وهو غير مستحق لذلك فقالت له:

ـ أخرج من المحراب يا رجل السوء لئلا يأتيك من السماء أكثر مما يأتيك من الأرض. . فجذبته من المحراب.

قالت: ما مسكت حذري منه من يومنا ذلك حتى إلى ذات مرة التقيت أنا وهو في مضيق من الطريق فلم أجد منه مهرباً فحس مني الخوف فقال لي:

ـ مري كما تريدين يابنة أخي. . ولولا أنت أهلكنا كلنا. . رزقك الله الجنة. .

فقامت بأمور الدنيا والآخرة.

وكانت تغرس الغروس بنفسها في أهلها. . وقيل عنها حين سافرت إلى الشيخ فحاد محملها محمل رجل من الأندلس. . فأنشد الأندلسي ثمانين بيتاً من الشعر فحفظتها مرة واحدة.

ولما عزم زوجها على المسير إلى ـ مانو ـ (قرب زوارة) شيعته أم يحيى وقالت:

ـ أدعو الله أن يكتب سلامتك.

فقال لها:

ـ ذلك عقدة عقد لا يزيد ولا ينقص يا فلانة ولكن أدعو إلى الله أن يجعلك زوجتي في الجنة. كما جعلك زوجتي في الدنيا..

وافترقا ـ فسار أبو ميمون فاستشهد في مانو.

وبقيت أم يحيى بعده كهفاً للإسلام ومأوى للأخيار فكان يجتمع عندها عزابة أمسين في كل ليلة جمعة يتذاكرون ويحيون ليلتهم بالعبادة.

ومما ساقه المؤلف من مبالغات عن حفظ أم يحيى هذه، وما يروى أنها تحفظ من السماع لأول مرة: روى أن كتاب الخليل بن الصالح ـ وقع في هذه البلاد عند رجل من أهل أمسين فطلبوا إلى النسخة فأبى فتحيلت العجوز ذات مرة وأرسلت إليه:

فقالت: أعرضه عليّ ـ فقرأه عليها مرة واحدة. فقالت لهم:

ـ من أراد أن ينسخ فليكتب) ـ.

ويهمنا من مثل هذه النصوص التاريخية وهذه الحكاية التي تدل على: المستوى العلمي.

البحث عن الكتب والتلهف على اقتنائها واستنساخها في ذلك المجتمع.

مساهمة المرأة في الحياة العلمية بالسماع والرواية والنقل فلم يكن تاريخ المرأة ودورها فارغاً في هذه البلاد منذ آماد بعيدة.. في جبل نفوسة..

وأشياء كثيرة تثير الانتباه في هذه اللمحة التاريخية التي قدمها لنا البغطوري.. عن العالمة الدارسة المتصوفة أم يحيى بنت جبل نفوسة.

عبارات ولمحات ذات أهمية للتاريخ العلمي والوصفي هي: امرأة صالحة... وكان سبب توبتها، كانت قاعدة في بيت الوليمة.

وقعت التوبة في نفسها...

كيف تخرجين والبيت قد انسد بابه بالسفهاء وكانوا لا يتركون من يخرج من البيت. ثم انقلاب هذه الحياة إلى عبادة وزهد وورع وتصل إلى مكانة علمية وتروى. . . وتحافظ على القيم الروحية والعلمية حتى عملوا على مكانها مزاراً ومصلى. .

هذه الحياة الخصبة. . هذا الانتقال. . ألا يذكرنا بصورة مماثلة لصوفية زاهدة عابدة. . ذات حس فني هي رابعة العدوية. . . التي انتقلت من ضفة إلى ضفة. . ومن شاطىء اللهو إلى ساحات التصوف.

إنها مقارنة عجيبة من صدف التاريخ العلمي والصوفي.

وكانت رابعة العدوية.

يلاحظ أن زوج أم يحيى كان في معركة «مانو».

والمؤلف مقرين البغطوري. . . أشار في صفحات كتابه وفصول مروياته إلى حوالي خمسين اسماً من أسماء المشايخ والأعلام وكلهم من أبناء الجبل الغربي، جبل نفوسة. وطبعاً لم يفصل ترجمة حياتهم إنما هي مجرد سماعات وروايات كلها تتعلق بعلماء عاشوا في أرض ليبيا. . وله الفضل في الاقتباس والحفظ.

ومن هذه الأسماء التي أثبتها في كتابه.

أبو محمد الكباوي.

سليمان التبرستي.

أبو حسان الفرسطاني.

أبو نصر التمصصتي.

سعد بن يونس.

عيسى بن زرعه.

أبو محمد عطية الله.

أبو منصور الياس.

أبو محمد سعد بن يونس.

أبو عبد الله بن عمر.

أبو زكريا بن عبد الله.

ابنه موسى.

أبو الفضل حاكم نفوسة.

ماطوس بن هارون

أبو محمد التغرميني.

أبو إسحاق.

أبو زيد التزغورتي.

أبو القاسم البغطوري.

أبو يحيى ماطوس.

أبو عامر التصراري.

أبو يوسف مجدول.

أبو عثمان المزاتي.

أبو موسى الدجي.

أبو الخير الزواغي.

أبو زكريا الأرجاني.

أبو يوسف وجدليش.

أبو علي الفسطاوي.

أبو محمد التغرميني.

أبو عبد الله بن محمد.

أبو يعقوب التغرميني.

أبو عمران موسى الأندموني.

أبو محمد القنطراري.

أبو ميمون.

أبو القاسم مومنين.

أبو يعقوب يوسف التاديتي كان في تمام سنة 400هـ.

أبو محمد ويسلان.

أبو عامر التصراري.

ومن السيدات العابدات ذات القيمة العلمية أشار إلى أسماء منها:

أم يحيى وهي أطول فصلة بالنسبة للأسماء الأخرى.

أم ماطوس.

أم زيد.

أم جلدين إلخ.

والكتاب الذي قرأناه واعتمدنا عليه نقل من نسخة قديمة مخطوطة كانت في حوالي 180 صفحة.

ويقول ناسخها إنه نقل هذا الكتاب من نسخة كانت مكتوبة بيد الشيخ سالم بن يعقوب وهو بدوره نسخها من نسخة قديمة يرجع نسخها إلى أوائل القرن التاسع الهجري.. وكانت كل هذه النسخ في مدينة جربة.

وكتاب أشياخ جبل نفوسة للشيخ مقرين البغطوري هذا ليس له في تناوله للأشياخ خط زمني أو طبقة معينة بل هو مجرد حكايات وأخبار.. وهو بصدد الإشارة إلى الشخصية التي يتحدث أو يروي عنها مأثرة من المآثر أو موقفاً من المواقف لا يذكر الفترة التي عاش فيها أو السنة التي ودع فيها الحياة. ولكن يعرف هذا بطريق المقارنة والمقياس التاريخي في أي عصر كان المشار إليه أو بالرجوع إلى مراجع أخرى..

وإلا فالحكايات والمرويات والنتف وحدها لا تكفي ولا تقدم صورة متكاملة عن الشخصية أو العلم الذي اختاره للرواية والكلام عنه.

ولكنها مجرد مواد. ولا شك أنها مفيدة.

وبالكتاب ما يحكي عن سنوات القحط والجفاف حتى يضع من ينتظر الموت جوعاً علامة على مدخل بيته إشارة إلى أنه يعاني سكرات الموت.

وفي الكتاب لقطات تحكي مدى عمق الاعتقاد في الكرامات وخوارق العادات.

ومنها لقطات تدل على فترات الازدهار العلمي ولقطات عن المصاولات التي كانت بين الفرق المذهبية والترهات الفكرية وغير الفكرية التي عانى منها تاريخ الفكر الإسلامي وازدحمت بها صفحاته والتاريخ السياسي أيضاً. . هي حقب مديدة ونحن لا نستطيع أن نستعرض هنا كل لقطات الكتاب ومروياته أو روايات ساقها. . ومنها حكايات قد يعزف عنها القارىء اللهفان العجلان.

إنما نستعرض بعض النماذج من هذه المرويات صوراً من حياة الناس ومستوى تفكيرهم واتجاهاتهم العلمية آنذاك.

لقد كانت مناطق الجبل تموج بمراكز التعليم والتثقيف ولا غنى لدارس الحركات الفكرية والعلمية ومدارسها في هذه البلاد. . عن العودة إلى مراجعة هذا الكتاب ليجد فيه الدلائل والإشارات وإن كان بصورة موجزة. .

ومن طرائف ما يرويه هذا الكتاب في دسامة مادته واقعة أو حكاية تصور أزمة المساكن لطلاب العلم حتى في عصور سابقات. . وفي أحضان جبل نفوسة يروي هذه المروية، عن أبي حسان الفرسطاني، (. . . روي عن أبي يحيى الفرسطاني أنه صار إلى شروس يتعلم عند ابن ماطوس. . . ولم يجد له بيتاً يسكن فيه فقال:

ـ ما أوسع شروس وما أضيقها.

ـ فقال له ابن ماطوس.

ـ أدلك على رجل لو عرفه الناس لوقفوا ببابه كما وقفوا على باب أبي عبيدة مسلم بالمشرق.

ـ ويقصد أبا هارون الجلالمي.

فرجع أبو يحيى إلى أبي هارون.

ويلاحظ هنا شيء ذو أهمية في تاريخ الفكر الإسلامي ودور هذا الجبل وعلمائه في انتشار الدعوة الإسلامية.

(. . . وأبو يحيى هذا هو الذي أسلم ملك السودان على يديه).

ومن النقاط. . . أو الموضوعات ذات الآثار المفيدة تسجيله لعدد من أسماء سيدات عالمات عابدات مما يدل على ما بلغته المرأة في ذلك المحيط من الدراسة والمساهمة العلمية. . . وأثر ذلك على حياة المجتمع بطرابلس في تلك الحقب الغوابر. . . الزواهر.

هذه أم ماطوس:

فماذا يروى عنها من وقائع وأحداث؟ يقول البغطوري (روي عن امرأة من أهل (جارا يزرار) يقال لها أم ماطوس كانت تتعلم عند أبي محمد بن خصيب وهي بكر وتحضر إلى أبي محمد التمصصي في الليل فتحضر المجلس للذكر وتمسك بيدها مزراقاً كهيئة الرجل فإذا اقتربت من المنزل جعلته في دجر زيتونة وإذا افترق المجلس رجعت إلى منزلها ثم تزوجت في ايميتون).

وقد سبق أن أشرنا إلى أم يحيى العالمة المتصوفة وهذا يدل على خصوبة الجبل من الناحية العلمية في تلك الفترات البعيدة.

فهو يشير إلى مجموعة من المتصوفة والعلماء الورعين الذين اجتمعوا في فترة واحدة بجبل نفوسة. . (. . . وذكروا والله أعلم أنه اجتمع في هذا الجبل اثنا عشر شيخاً ممن يستجاب لهم الدعاء في عصر واحد. . .). . . ويسرد أسماء هؤلاء الأشياخ العلماء. . فقد كان التصوف والورع مرتبطاً بالعلم والدراسة وهو مجال واسع للدراسات والمقارنة في هذا المجال!!

وعن مبلغ شهرة بعض العلماء وما بلغته الحياة العلمية بهذا الجبل يقول عن أبي يحيى ماطوس (. . عالم شاع علمه في البلاد بل البلدان. . . وبورك في فتياه حتى قيل إن فتيا ابن ماطوس بلغت جربة وفي امسنان ـ وفي ورجلان. حتى لحقت فتياه أرضاً يقال لها. . سلام عليك بالمغرب).

وكما يشير في كتابه إلى نماذج المرأة الصالحة والمرأة العالمة وربة البيت الفاضلة. أيضاً لا يترك نموذجاً من المرأة الشرسة القاسية والتي كانت من حظ شيخ عالم صبر على أذيتها له. .

وهو العالم الشيخ أبو القاسم البغطوري وسجل لنا المؤلف مقرين البغطوري لوناً من معاملة قاسية تلقاها وكان ضحيتها أبو القاسم البغطوري من زوجته الشرسة. . ولا عجب. . ألم يرزق سقراط الفيلسوف بامرأة قالوا إنها شرسة المعاملة سليطة اللسان. ولن يكون المجتمع. . أي مجتمع كله صلاح وتقوى وعلم وإنابة. . بل هي سنة الحياة. وحياة البشر ولكن هذه المرأة الغضوبة القاسية كانت نقطة عابرة وكان في المحيط شخصيات أخرى. . . من النسوة الصالحات العالمات التي أثبت المؤرخ الجبلي لوناً من حياتهن.

والمؤلف مقرين البغطوري في عدد من سطور صفحاته يسوق أحياناً عبارات وجملاً باللغة البربرية هي كلمات. . وعبارات. . هل الدافع إليها أمانة النقل عندما يتحدث راوياً. . فينقل الرواية بحرفيتها.

أم كان يريد أن يؤلف باللغتين العربية والبربرية. . أم كتبت أصلاً. . ثم ترجمت؟

الغالب أن العبارات اليسيرة في عدد من السطور هي مجرد عبارات قصد بها دقة النقل وأمانة التعبير وكان يظن أن كل قارىء يدرك هذا. .

ونضرب مثلاً على سوقه مثل هذه العبارات.

(. . . وأبو إسحاق فإنه كان إذا قالوا له ما الذي أصابك ـ يقول بالبربرية ـ أيركوريرن فيقولون من جعلها لك فيقول) ـ ايشت انغ ـ.

كذلك أبو زيد التمزغورتي يسوق المؤلف على لسانه بضع جمل من اللغة البربرية وهي أمور قد تلفت نظر القارىء العادي.

ومن النصوص التي أوردها ـ مقرين البغطوري ـ في كتابه وهي من

النصوص ذات الصبغة التاريخية وقد نقلها عنه واستقاها منه كما رويت ونقلت عن غيره. . واهتم بها كثير من كتب الطبقات والسير وتاريخ هذه المناطق.

عندما أرسل عبد الوهاب الرستمي إلى جبل نفوسة مستعيناً ومستنجداً بهم في حربه للمعتزلة أيام صراع المذاهب واقتتال حكام ذلك الزمان. في تيارات جارفة عاصفة.

ويهمنا منه الجانب العلمي هنا. . وارتفاع المستوى الثقافي بذلك المقياس. . . والذي يعطي فكرة عن تطور الحياة والمستوى العلمي الذي بلغته هذه البلاد ـ وإليك هذا النص كما أورده البغطوري ـ احتياج عبد الوهاب الرستمي إلى نفوسة في حربه مع المعتزلة.

(. . . روي أنه لما ضاق على عبد الوهاب الرستمي في حربه مع المعتزلة. . أرسل إلى هذا الجبل. . جبل نفوسة. ـ أن ابعثوا إلي منكم أربعمائة رجل ويكون فيهم من يقوم بالمبارزة ويفسر القرآن ومن يقوم بالاحتياج ومن يقوم بفقه الحلال والحرام. مائة مفسر للقرآن، ومائة مناظر في أصول الدين ومائة مبارز في القتال. . ومائة فقيه في الحلال والحرام. . فاتفقوا على الاجتماع في بلدة ـ تالا ـ ولما اجتمعوا وعلموا بمراد الإمام عبد الوهاب قال لهم العلامة الكبير ـ مهدي النفوسي المتكلم ـ:

(أنا ضامن أن أغلب من أراد أن يحاججني في هذا الدين من باب لقت إلى فاس.

قال أبو المنيب بن يانس (وأنا أكفيكم علم الحلال والحرام. وقال أبو الحسن الأبدلاني وأنا أكفيكم تفسير القرآن الكريم. وقال لهم: أيوب بن العباس الشجاع ـ لا أعلم فارساً أقوى مني من مصر إلى فاس.

فاستغنوا بهؤلاء الأربعة عن الأربعمائة ووجهوهم إلى الأمام ـ فساروا ولما جاؤوا بعض الطريق طلب منهم محمد بن يانس أن يخدمهم في إقامتهم فأنعموا له بذلك، فإذا جنّهم الليل صلوا وأكلوا مما هيأ لهم ابن يانس.

وإذا فرغ من خدمتهم وناموا وغطّاهم قام هو إلى الصلاة النافلة إلى الصبح.

وأبلغنا واحد منهم رفع رأسه فوجده قائماً يصلي في جوف الليل في ليلة ذات مطر وبرد والرياح ترفع ثوبه عن ساقيه فقال له:

(إن لم يدخل الجنة إلا مثلك ستصيبك فيها الوحشة يا ابن يانس).

وهذا التعبير ذو الصبغة الفكاهية الدعابية يدل على الروح المرحة عند هؤلاء المشايخ الأعلام ـ إن لم يدخل الجنة إلا مثلك ستصيبك فيها الوحشة يا ابن يانس.

ويمضي المؤلف موضحاً لنا صورة هذا العالم الذي استطاع أن يصنع برنامجاً تربوياً لحياته فيقول:

(. . . وبلغنا عنه أنه قسم دهره على سنتين ـ سنة يتعلم عند إسماعيل درار الغدامسي وسنة عند الإمام عبد الوهاب بتيهرت في الجهاد وسنة يمضي إلى الحج. وسنة يتعبد في المشاهد في هذا الجبل).

ولقد أفرد له أكثر من غيره وبسط القول عنه وسرد جوانب من حياته في الجبل والهجرة والغربة ويشير إلى مواقف له وحكايات في مصر، ويبدو أنه كان يتاجر هناك. . . فقد كان كثير من العلماء يعتمد في رزقه ومعاشه من حلال التجارة وعرق الجبين وكد اليد وهذا النص يعطي جانباً من حياته وجرأته ـ وبلغنا عنه أنه كان ذات مرة بمصر فسمع رجلاً يقول: أنا بالله وبالسلطان، فلم يغثه أحد، ثم قال: أنا بالله وبأهل المروءة. فلم يغثه أحد. . ثم قال أنا بالله وبالمسلمين أو الإسلام، وكان ابن يانس وقتئذ يفتح زق زيت يبيعه فتركه كما هو واقفاً مفتوحاً. . . وأسرع إلى الرجل الداعي المستغيث. فوجده قد أخذه أعوان السلطان فنزعه منهم ورجع إلى زقه. . فوجده كما هو مفتوحاً ولم يتهرق بإذن الله تعالى.

وذهب أعوان السلطان فأخبروه بما فعل فقال لهم ـ إيتوني به. فأخذوه

وأتوا به إليه. فقال له السلطان ـ ما حملك على ما فعلت؟ ـ قال له ابن يانس ـ لما استغاث بالسلطان أولاً فلا عليَّ منه شيء ثم استغاث بأهل المروء.. فلم اشتغل به ثم استغاث بالمسلمين.. فما يسعني في ذلك أن أتركه فنزعته منه ـ قال السلطان لأعوانه: ـ امثل هذا تأتوني به والله لولا هذا ومن كان مثله لم تطلع علينا نحن وإياكم شمس ولا قمر).

ومن المصطلحات والتعابير في الكتاب.

ـ المسوداة ـ وهو يقصد بها صنهاجة والأغالبة وغيرهم من الذين كانوا مع العباسيين.

ومن التعابير في اللهجة قديماً (فأخذ بطة فملأها زيتاً).. وهو وعاء.. وكلمة بطة في اللهجة الليبية ما زالت تطلق في البوادي والأرياف على الوعاء.

ونراها هنا عند الشيخ مقرين البغطوري المؤرخ مما يدل على وجود الكلمة قبل القرن الخامس الهجري.

هذه جولة مع كتاب أشياخ جبل نفوسة للشيخ مقرين البغطوري الذي أعطانا صوراً ولمحات عن أبناء الجبل ومشايخه وشيئاً عن التاريخ العلمي، لكنه لم يعطنا شيئاً في كتابه عن تاريخه وحياته هو، وعسى أن نجد مستقبلاً ما يروي ظمأنا فما زلنا عطشى إلى مناهل علمية.



محمد علي الخروبي

والتراجم الذاتية

وهذا مؤرخ عرفته المجالات الصوفية والأدب الصوفي من تلامذة الشيخ أحمد زروق.

أبو عبد الله محمد علي الخروبي. من ضاحية (قرقارش) بمدينة طرابلس الغرب وكانت أمه من مدينة مصراتة.

نشأ في رحاب التصوف.. وتأثر بدراسات التشريع والفنون التثقيفية السائدة في عصره وكان من طفولته ملازماً لمجالس التصوف.. وحلقات الذكر.. تربى على منهج المتصوفة في التأديب ومجاهدة النفس.. وسلك أشواطاً في مدارج السلوك عن طريق تربوي عملي.. فكان بطبيعة الحال أن تتشرب روحه بأفكار أهل الطرق الصوفية المنتشرة في بلده.. وفي الشمال الأفريقي، وأن يتأثر في أفكاره ونظرته للحياة بمذاهب التصوف والزهاد وأهل الورع فهو يعجب بهم فيدرس حياتهم.. ويتتلمذ على أساتذة هذه المناهج.. ويتبع أخبارهم وأحوالهم.. ويسجل ذكرياته عنهم ولقاءهم والتعرف بهم.

وعندما يكتب يكون شارحاً.. أو معلقاً على بعض الرسائل أو مؤرخاً يكتب ألواناً من الذكريات والانطباعات يصوغها في تقييدات على هيئة كتاب صغير في شكل ترجمات.. أو جوانب تاريخية لحياة معلميه وعصره ومحيطه

التربوي والثقافي.. ويؤرخ لأهل بيته.. وبلده... ومن هذا الجانب أو من تلك الكوة الصغيرة يطل علينا من الناحية التاريخية.. أو يدخل في عداد كتاب السير والتراجم فالأستاذ الخروبي.. أرخ لجوانب من الحركة الصوفية في ليبيا وترجم. لصنوف من العباد والزهاد وأسانيد العلماء من أهل البلد أو الذين زاروا البلد ومروا بها، وبهذا الصنيع سجل ونقل لنا صوراً من الحياة الاجتماعية وأرخ لجوانب من مستوى الفكر في عصره وقد لا يستسيغ المنطق العلمي.. أو المنهج الفكري أشياء كثيرة من سير أو تراجم... أو آراء وأفكار بعض من نقل عنهم أو تأثر بهم.. من ذلك النوع الذي شده الإعجاب إليهم ـ ولكن بطبيعة الحال ـ كان لأولئك الذين ترجم لهم وأرخ لحياتهم وسجل ترجماتهم ـ كان لهم أثر في تلك الأجواء والعصور بل كان لهم تأثير حتى لما بعد عصرهم.

ويهمنا منه هنا ـ وفي هذه الصفحات ـ الجانب التاريخي أو منهاج المؤلف في تناوله لكتابة السير والتراجم.

فالخروبي بكتابه الصغير ـ ذي الصفحات المحددة والفصول الموجزة ـ قدم للمكتبة التاريخية حقيقة وثيقة قد تفيد الدارس للحياة الاجتماعية والاتجاهات الفكرية في ذلك العصر الذي شاهده وعاشه.

وليس كتاب التراجم هذا وتاريخ أساتذته ومتصوفة بلده هو الأثر الوحيد الذي ينم عن شخصية الأستاذ الخروبي ـ فلم يكن كتابه هذا هو الأثر الوحيد الذي يدل على جهده المبذول في عالم التأليف والكتابة بل إن دراساته.. ورسائله الأخرى.. بل وحياته الخصبة وتنوع نشاطه العلمي والسياسي.. وجداله مع علماء عصره، كل هذا هي أمور ـ بلا شك ـ تعطينا صورة أوسع وأكثر خصوبة دالة على نشاطه المتنوع.

فالخروبي بجانب اهتمامه العلمي... والصوفي... هو شيخ حيوي النشاط.. متسع الإدراك.. له سمعته التي تعدت حدود بلده.. وهو شيخ عرف الأسفار والترحال وعرفته السفارة والوفادة ـ في مجاليها العلمي والسياسي فقد

تجول الأستاذ محمد علي الخروبي في بلدان الشمال الأفريقي وتعرف إلى الأوساط السياسية والإدارية. . وكما عرف زوايا المتصوفة وصوامع الزهاد. . وعايش مجالس الإنشاد. . وحلقات الذكر. . فقد عرف أيضاً وعرفته مجالس الحكام والملوك والوزراء. . فهو يقوم بدور السفارة والوساطة بين بلدين وحكومتين في شأن نزاع كان مستفحلاً أمره بين البلدين من أجل الحدود.

كما عرف الأستاذ العالم وعرفته مجالس المناظرات العلمية والمشادة الكلامية في شؤون ظلت تشغل بال الكثير من رجالات الفقه والتصوف.

فهو أستاذ دخل في عداد المتصوفة. . . وطبقات الفقهاء العلماء ومدارج أهل الرأي والمشورة.

كما قدم للمكتبة بضع مؤلفات ورسائل لعل أهمها وأكبرها:

تفسير القرآن الكريم الذي لا يزال مخطوطاً قابعاً في ركن بدار الكتب المصرية وفي مكتبة رواق المغاربة بالأزهر.

شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري.

رسالة في شرح كلمات أحمد زروق.

وكتاب في تاريخ وتراجم أساتذته ومعاصريه.

أوفدته حكومة الجزائر مرتين إلى بلاد المغرب الأقصى لأجل القيام بمساع لتسوية أمور سياسية وإدارية لاسيما قضية الحدود التي كان متنازعاً علها بين الدولتين.

كانت وفادته الأولى عام 959هـ ـ 1552م والمرة الثانية بعد عامين من ذلك 961هـ ـ 1554م واستقبلته حكومة مراكش بما يليق بمكانته العلمية. ووجد العلماء هناك فرصة للالتقاء والمناقشة والمناظرة ـ شأن العلماء في تلك الحقبة ـ وقد نتج عن تلك المحاورة العلمية رسائل ذات طابع فيه الدلائل والشواهد على تعمقه في قضايا فقهية. . وأيضاً اهتمامه بأمور تتصل بالفلك.

وساق كل من المتناظرين أدلته التي تؤيد رأيه وترجح نظريته، فهو من ذلك الصنف الذي تتنوع اهتماماته وتكثر مطالعاته. ويؤكد المترجمون له أن الخروبي كان له ولع خاص بجمع الكتب القيمة وعمل منها مكتبة عامة.

توفي محمد على الخروبي ـ عام 963هـ ـ 1556م. أي بعد وفادته وسفارته الثانية بحوالي عامين ودفن بخارج سور مدينة الجزائر.

ولا تزال في ضاحية قرقارش بطرابلس زاوية تحمل اسم ـ الخروبي ـ.

وفي هذا الفصل يهمنا من مؤلفاته ما خص به فن التراجم والسير. . وما يمت إلى كتابة التاريخ بصلة وكانت في شكل رسالة صغيرة ـ لم يتخذ لها عنواناً أو على الأصح أن الناسخ لم يكتب العنوان.

وتدور رسالته حول تراجم موجزة لشيوخه وأساتذته بطرابلس الغرب ـ وإن كانت هي ترجمات وتواريخ مقتضبة مختصرة. لا يعتمد فيها على مجرد السرد التاريخي. . ولا يقدم لنا معلومات عن الميلاد والوفاة لمن أشار إليهم وسجل عنهم. . شأن كتاب التراجم والسير الذين كانوا يهتمون كل الاهتمام بالوفاة، لقد صنع ذلك المؤرخون للأعيان، مما حدا بمؤرخ كبير هو ابن خلكان. اهتم بالتراجم أن يجعل عنوان كتابه ـ وفيات الأعيان ـ لكن الخروبي لا يهتم كثيراً بتسجيل الوفيات. . . بل هو في مناهجه وسرد معلوماته يتناول الحديث عن مواقف وجوانب من حياة معاصريه وأساتذته.

جاء على شكل لقطات أو ومضات. .

على هيئة صور سريعة فيها لون من الذكريات والانطباعات ولا تخلو أيضاً من هالات التقدير والإعجاب.

وقد يصل هذا التقدير والإعجاب إلى حد المبالغة في الإعجاب والإفراط في التقدير والحب والولاء.

إذاً هي سطور من تراجم تاريخية من منابع المناقب والسير مصبوغة بالأسلوب والمنهج الصوفي فالاعتماد فيها إلى حد كبير على ذكر الكرامات

والإشادة بخوارق العادات. . . وبها في خضم هذا لمحات من حياة ومعيشة أولئك الناس. . ووسائل تهذيبم لتلامذتهم. . وتربية أهل الطريق لمريديهم. . . تربية عملية قد لا تخلو من مشقة الحب والود الذي قد يكون صورة من عنف الوالد والمعلم والأستاذ.

والكتاب أو الرسالة لا تتجاوز العشرين صفحة من المخطوطات ذات الخط المتداخل والحروف المضغوطة وليس بالرسالة أو الكتاب مقدمة طويلة. . .

ولم يثبت بها تاريخ الفراغ من تأليفها من طرف المؤلف. . ولا حتى تاريخ نسخها أو استنساخها من جانب الناقل الناسخ.

وإن كان لا يستبعد أن المؤلف الخروبي كتبها في مطلع شبابه ـ وإن كان بتحقيق أمرها تستطيع أن تدرك الفترة من مقارنة تواريخ الذين ترجم لهم. . وشاهدهم والتقى بهم وكتب عنهم سواء، من أهل بلده ـ أو من الوافدين على بلده. .

وقد جاء في الصفحة الأولى من المخطوطة (يقول عبد الله سبحانه ـ محمد بن علي الخروبي تاب الله عليه آمين.

ولنبدأ بذكر مولاي الوالد رحمة الله عليه والوالدة رحمها الله تعالى. . إذ كلاهما له علينا فضل تربية. ونتبع بذكر أشياخنا رحم الله الجميع.

فأما الوالد علي المعروف بالخروبي. . كان رحمه الله رابع إخوته. . وكان من قرية بإزاء طرابلس الغرب يقال لها قرقارش نحو ثلاثة أميال أو أربعة من ناحية الغرب بطرابلس).

ويحكي لنا الكاتب المؤلف في ترجمة والده ويدفعه البر به أو الإعجاب به إلى تقديم هذه الصورة المملوءة بالحب والتقدير. . «صدر». . وهو مشار إليه و«قدوة» وله مكانة محترمة في الوسط الاجتماعي في عصره:

(. . . . نشأ في عفاف وصلاح. . وصحب رجالاً صالحين وكان هو

الصدر فيهم والمشار إليه. . . يمتثلون بأمره ويقتدون به في دينهم ودنياهم).

ويذكر الكاتب عدداً من تراجم أصحاب والده فيقول:

(وأما أصحاب الوالد وغيرهم فكثيرون لا أحصي لهم عدداً ـ والكل كانوا منقادين لأمره إذ كان رضي الله عنه رجلاً مهاباً. . وقوراً صموتاً سؤوساً لأمر الخلق يرجعون لأمره وينقادون لأمره).

وبهذا الوصف وعلى هذه الصورة ندرك أن والده كان من شخصيات المجتمع الليبي، ذو تأثير فعال على ما يبدو من هذه الأوصاف.

وقد طوى الزمن والده قبل والدته.

وينقل لنا في كتابه عن هذه الوالدة الوفية لذكرى زوجها والأم البارة الحنون على ولدها. . ينقل عنها كثيراً من الحكايات من تاريخ وأحوال والده الذي كان الابن على ما يبدو كثير الشغف بالتتبع والبحث عن أخبار والده وتصيد الذكريات عنه. . لتسجيلها والاعتزاز بها.

وكانت من أهم مصادره وأوثق مراجعه في الروايات والأخبار هذه الوالدة الواعية المثقفة وكانت تروي له ما يفيده في كتابه وما يقيده في فصول تراجمه التاريخية؛ فهو يكتب:

(ولقد أخبرتنا السيدة الوالدة رضي الله عنها قالت: إن السلطان أبا بكر ابن الأمير عثمان صاحب أفريقية كان يأتيه من قصبته على رجله وأجناده معه ووزراه يتبعونه فيأتون الدار يتبركون به ويستشيرونه في أمور المسلمين.

ـ لا يقوم لأميرهم، ولا لهم، لا عند القدوم ولا عند الانصراف، لا يترك عملاً كان فيه قبل قدومهم، بل يدوم على عمله ويجيبهم على كل ما يطلبونه وهو ساكن كالجبل لا يتحرك ولا يتزعزع ـ وكان مشاراً إليه بالبنان لا يطرأ فيها أمور إلا عن مشورته. وكانت له كرامات عظيمة. . . الخ).

* * *

من هنا نرى كيف اهتم الكاتب في هذه الترجمة بتسليط الضوء والإشارة إلى جانب هام من الناحية الأخلاقية. وتظهر قيمة هذا الجانب في عصر متأخر كثر فيه النفاق للحكام والخضوع لهم والارتعاد منهم.

في عصور وبيئات تفشت فيها ظواهر التزلف للسلاطين والتملق والتعلق بأذيالهم.

فكان من صفات الرجل العفيف النزيه صاحب الشخصية القوية الاعتداد بالنفس إلى درجة ألا يتحرك ولا يقوم من مكانه ومجلسه في حضرة السلطان ووزرائه وأجناده، فهو بهذا المظهر لا يبالي بهم.. ولا يكون هذا التصرف أو هذا السلوك جهلاً بتقاليد الآداب ومراعاة الضيافة بل هو في الحقيقة ضرب وصفع لظواهر الزيف ونسف لعوامل النفاق... وتأديب للحكام وثورة عليهم يقدم للناس صورة لعدم الخوف منهم وكبح جماح غرورهم فهذا سلطان بهيله وهيلمانه، بحاشيته وأجناده، يأتي من قصره إلى ضاحية قرقارش ماشياً ليزور شيخاً عالماً صوفياً لاستشارته، فيقابله الرجل مقابلة عادية أو دون العادية. مقابلة قد يبدو فيها شيء من الجفاف، فلا يقوم له، ولا يترك العمل الذي كان مشغولاً به.

ولم يكن الدافع لتسجيل هذه الواقعة والصورة مجرد الإشادة بهذا الموقف ومجرد الاعتزاز من المؤلف بحياة هؤلاء.. لم تكن عاطفة الاعتزاز من المؤلف بوالده الشيخ وحدها، بل إن هذا يفسر لنا الدافع إلى تسجيل هذه الصفات والأخلاق لرجل من صفوف الشعب لا يخاف السلطان وحاشيته.

صورة نادرة.. ومواقف جديرة بأن تحل بؤرة الانتباه. وهناك كثير من الومضات والصور التي يقف عندها المؤلف؛ فيها اعتزاز بالعلم.. ومواقف لأهل التصوف.

يقول الخروبي في ترجمة والده.. وتاريخ أسرته:

«حدثتني الوالدة رحمها الله تعالى:

ـ إن القايد من أكابر قياد طرابلس يقال له أبو الهادي العباس كان خائفاً من الأمير يأخذه؟

فأتى بحوايج ثمينة . . وحلي معه، وجواهر طرحها بدارنا وقال للوالد رحمه الله تعالى:

ـ يا سيدي كل ما يكون لزوجتك في حوايجنا من غرض فهو لها حلال، تأخذه عن طيب خاطر نفس منا، فتورع الوالد عن ذلك، وجازاه خيراً عن ذلك مقالة، فلما سمعت الوالدة بما قاله صاب الحوايج للوالد قالت ـ فأعجبني من ذلك منشف حرير ـ قالت فقلت للوالد، نأخذ هذا المنشف وكان يتلو القرآن ـ فلم يوافقني على ذلك.

قالت ـ فعصيت أمره، وأخذت المنشف وجعلته على رأسي ـ فلما فعلت ذلك، أخذني النوم في الحين فرأيت ثعباناً تعلق بي وصار خلخالاً في عنقي فاستيقظت مرعوبة . . فما كلمته ولا أعلمته بما كان فبادأني بالكلام وقال لي:

ـ إن أردت أن يتركك الثعبان فاخلعي المنشف عن رأسك ورديه إلى موضعه. فنزعته، ورددته إلى موضعه».

* * *

ورواية هذه الحادثة وتسجيلها في تاريخ ذكريات أسرته من طرف المؤلف، بمقدار ما تفسر لنا اهتمام الكاتب المؤرخ بتسجيل صورة عن والده، والاستماع بشغف إلى روايات والدته التي عنيت بتربيته وحببت إليه تاريخ وسير العلماء والأولياء، فهي أيضاً حكاية تعطينا من طرف آخر ومن جانب آخر صورة واقعية من النزاع الذي كان قائماً ومستفحلاً بين الطبقات والفئات الشعبية والحكام المستبدين.

فهذا رجل ـ وإن كان برتبة قايد ـ أي موظف بسلك الدولة ـ وجهازها الإداري، إلا أنه كان كما تحكي هذه الحادثة غير آمن على نفسه، كان خائفاً على جواهره وحليه وأثاث بيته من يد الحكام الطويلة وسيطرتهم . . من هلع

السلطان وطمعه. . خاف من أمير البلد فيهرع إلى تخبئتها عند يد أمينة ولا تكون هذه اليد الأمينة إلا بيت رجل صوفي عالم هو ـ علي الخروبي والد مؤرخ هذه الرسالة.

* * *

ثم من جانب آخر أيضاً، هذه الواقعة المروية تفسر لنا مع الحكايات التي سردها ومثيلاتها جوانب نفسية من الاتجاه الصوفي. . وأثره في المجتمع الليبي.

فهذه السيدة الفاضلة، في صراعها النفسي بين غريزة المرأة في التحلي والتجمل بالحرير وارتداء الجميل الأنيق، ثم تخوفها وارتعابها إلى حد الارتباط عندما تشعر في قرارة نفسها بمخالفتها أوامر الزوج الصالح المهاب، الذي تقدسه كل التقديس من أعماق نفسها. وتنطبع في رؤياها التي رأتها تحت وطأة العوامل النفسية ـ يراها الكاتب المؤرخ بمقياسه الثقافي ومناخه الفكري من جانب آخر، وبمنظار آخر من جانب الكرامات. . ومنظار خوارق العادات.

فألبس الكاتب المؤرخ الحالة أو الحادثة ثوب الاتجاه الصوفي ـ وعلى هذا النمط وبهذا المنظار تسير خطوات قلمه على صفحات كتابه.

حكايات صغيرة ولقطات ذات إطار عجيب أو غريب يضغط فيها على الجانب الروحي، والاتجاه الصوفي ـ كل هذا في إطار التراجم والمناقب. . وسطور من تاريخ البلد ـ وإن كانت هناك عدة جوانب أخرى هي جديرة بالتأمل والمقايسة، قمينة بالاستنباط والاستدلال.

ولكنها صور ومواد قد يرى فيها الغير من الدارسين ما لم يرها هو ولم تكن في دائرة اهتمامه واستدلاله.

وهذه أمور يجد فيها الدارسون حقلاً خصباً في دنيا المناقب وتاريخ وسير أمثال هؤلاء.

* * *

كان يستطيع هو والكثير من مؤرخي السير والمناقب وكتاب الطبقات والتراجم أن يولوا الاهتمام والعناية بالجوانب الاجتماعية. . أو محاولة تفسير الحوادث التاريخية وحتى الوقائع الشخصية أو غير الشخصية على شكل ظواهر أو نتائج.

ولكن الأستاذ الخروبي في سرده وتناوله للحوادث والوقائع كان كغيره من مترجمي السير وكتاب المناقب كانوا يدورون أو يهتمون بدائرة محددة. ضيقة. . لا تخرج في أغلب الحالات عن نطاقها المألوف من مفاهيم عصره.

فهو ـ والمؤرخون في عصره ـ على منواله متأثر أعمق التأثر بالتعبير والتفسير الصوفي، أكثر من الاهتمام بالجوانب الأخرى التي هي في حقيقتها انعكاس لأحداث ووقائع قد تكون حلوة المذاق. أو فيها الصاب المرير.

* * *

ولا يكتفي الخروبي بسرد حكاية أو حكايتين عن والده وهو يترجم ويسجل تاريخ حياته بل تأخذه عاطفة البر والحنو في تقدير منزلة والده.

فوالده. . (رحمه الله صدر زمانه، ورئيس أقرانه، مشهور بالحال والمقال، معروف عند الخاص والعام، وله علينا تربية بالهمة).

وكما هو شديد التعلق بذكريات والده وتاريخ حياته أيضاً يسجل ذكريات والدته، وكانت شديدة التعلق بهذا الزوج الفاضل ـ ويروي المؤلف عن والدته.

وهي كانت له في تاريخه هذا من أهم مصادر المشافهة والتي اعتمد عليها في السرد والنقل.

* * *

(قالت الوالدة:

ـ ما بت قط ليلة مقبوضة إلا ورأيته في المنام وسألني، فتصبح فرحة بذلك ويفرج عني).

حياة كان فيها وفاء وأسبغ هذا الحنان والوفاء على الأسرة جواً من طمأنينة النفس وصفاء الروح ورفاهية الحس.

وينقل لنا الخروبي صورة من التعلق الشديد بمحيط الأسرة ورئيسها المربي، ويحدثنا عن توديع الناس وتكريم الشعب لهذا الوالد والمربي الصوفي: قائلاً:

(.. ولما مات قام «البريح» في البلد يعرفون بموته، وغلقت الحوانيت. ولم يبق أحد من جميع أهل البلد نساء ورجالاً إلا وخرج لجنازته).

وفي خلال ما يسوقه الكاتب المؤلف يمكن أن نتعرف على عادات الناس وتقاليدهم مع أهل العلم والتصوف عندما يودع الشعب والده.. وفي رحلة الوداع الأخيرة ينقل لنا بهذا الوصف صورة من العادات والتقاليد.

(... ولما دفن أخذ الناس سجادته التي حمل عليها، وكان يصلي عليها في حياته.. فاقتسموها حارة حارة وكاد الناس أن يقتتلوا عليها ـ وربما أخذ الرجل ما بيد صاحبه).

وليس الرجال فقط.. بل حتى النساء في طرابلس كن يتهافتن على اقتناء قطعة أو خيوط من سجادة الصوفية والصالحين.

(... ولقد دخلت على امرأة من جيراننا بعد موت الوالد بسنين فاطرحت لنا أعواداً من سجادة الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ من صندوقها وقالت: هذه أعواد من سجادة والدك). عواد ابن عيدان بمعنى خيوط.

وكما اهتم المؤرخ المترجم بسيرة والده فهو يهتم بوالدته ويعقد لها فصلاً في كتابه عن نسبها وأصلها.. وصفاتها..

وأهم من هذا وذاك طريقة تربيتها لأولادها.

(.... وأما الوالدة فهي زهرة بنت الحاج محمد بوديكي المصراتي كان من أكابر أصحاب الشيخ سيدي أحمد زروق وقيل هو الذي سماه بوديكي.

إنه كان إذا صنع طعاماً يذبح له ديكاً فسماه بوديكي ـ فصار له هذا الاسم علماً عليه. وكان الحاج محمد المذكور يقرأ القرآن. ويعلم المسلمين كتاب الله. . ويحفظ على يديه نحو الثمانين ولداً والذي زوج والدتي لوالدي سيدي أحمد زروق أخذها من والدها بنت أربع عشرة سنة. وأعطاها الوالد وعقد عليها).

ومن طرائف ما يكتبه من ذكريات مداعبة زروق وفكاهته معهم. . واتصاله بهم سائلاً عنهم متفقداً أحوالهم، فأحمد زروق بعد موت والد الخروبي يقول للمؤلف وإخوته.

(. . . يا أولاد السرديكه قولوا لها لا تقولي إن الزروق غربني عن بلادي وأهملني والله لا تركتهم).

ويلاحظ هنا ـ السردوك بلهجة أهل طرابلس هو الديك كما أن البريح في اللُهجة هو الزعيق والإعلان بصوت مرتفع ويتحدث المؤلف في كتابه الطريف عن والدته وفي أحاديثه عنها هو في الواقع إنما كان ينقل ويسجل لنا ويؤرخ صوراً من أنماط المجتمع الليبي في تلك الحقبة.

كيف كانت تلك الأم الأرمل المثقفة تعني بالحدب عليهم والاهتمام بتربية أبنائها.

(. . كانت الوالدة رحمها الله حرة صالحة كيسة حاذقة ـ لم أر في زمانها مثلها. . كانت تحوطنا وتجتهد في تعليمنا القرآن).

لقد كانت الأم المربية تريد أن يستمر ولدها في دراسته. . وتدفعه إلى السهر والاجتهاد، فهو يتحدث قائلاً:

(. . . ومن أعجب ما رأيت في اجتهادها في تعليمنا أنها كانت تسهر الليل في عملها وتقد لنا القنديل، وتجعلنا بإزائه نقرأ الأسوار حتى لرب غلبنا النوم، فأحني برأسي على القنديل حتى احترقت على رأسي عمامة. . وهكذا جرى لنا مرة أخرى).

وهذه الشدة أو القسوة تصاحبها من قلب الأم وتصرفاتها صور من الرقة والحنان لا يفوت صاحب هذه الذكريات أن يسجلها في كتابه التاريخي أو المنقبي أو السيرة الذاتية. إنها قسوة تنبت فيها وتكمن بذور الحنان المورقة.

(. . . وربما أضيقت علينا يرق قلبها علينا فتبكي خفية منا لأجل المشقة التي تلحقنا من السهر).

ومن صور التربية في الأسرة المثقفة في ذلك العهد يعطينا المؤلف الكاتب سطوراً من ذكريات وتاريخ أسرته وبهذا يقدم نموذجاً ويرسم خطوطاً لجوانب من التربية والتهذيب والمتصلة بشأن المناخ الفكري آنذاك كل الاتصال بالجانب الديني. . الصوفي.

كيف كانت تدربه أمه على حفظ الأوراد والوظائف وتعبىء وجدانه تعبئة روحية فيقول:

(. . . كانت تعلمنا الوظائف التي تقال عند النوم. . وعند القيام منه. . وعند الأكل، وعند الشرب. . وغير ذلك من وظائف الدورة. . فأكثرها حفظناها منها. . .).

وما دمنا في مجال الحياة الاجتماعية ووسائل التربية والتهذيب فإن هناك جانباً هاماً يسجله لنا المؤرخ.

جانب له أهميته في التكوين التربوي.

فالمؤرخ صاحب الذكريات نجده عند الحديث عن والدته وأثرها لا يغفل جانب القصة والسمر.

لم تكن قاسية شديدة المراس من غير أن يتخلل هذا رقة وجاذبية وعوامل شغف وانتباه.

فهي أم تحكي لولدها عجائب القصص. . وغرائب الأسمار والحكايات وأيضاً هي تقصد من هذا تغذية الجانب الوجداني والروحي. . فهي تختار

قصصاً وحكايات مستمدة من التاريخ الديني.. وسير الصالحين.. وأوردة الصوفية، وعندما يثور الأطفال في شقاوة الأبرياء تحكي لهم قصصاً تخوفهم بها.. وماذا تصنع أم وفي جعبتها الكثير من القصص والحكايات.

(.. وكنا إذا عصيناها ونحن صغار تحدثنا عن قصة جريح وأمه).

وعلى ما يبدو ومن خلال ما سرد من تاريخ وسيرة والدته كانت مثالاً للمرأة الواعية المتدينة في المجتمع وهي معلمته الأولى.

(... وكثير من مسائل الصلاة وفرائضها وسننها ومندوباتها إنما حفظناها منها).

ورغم أن له إخوة أشار إليهم في جملة عامة عابرة لكنه لم يترجم لهم في تاريخ وذكريات أسرته.

وكانت والدته تنشد الشعر والشواهد من الأبيات تسوقها في لهجة تأسف وأنة تألم عندما ترى من تصرفات أطفالها شيئاً لا يعجبها ـ فهي في حالة الانفعال العارض أو الغضب المؤقت تردد شيئاً من المنظومات والمحفوظات.

ولدت أولادي يجلون أكبادي   زادوني بين العباد أنكادا

إن كان أولاد الناس مثل أولادي   لا أكثر الله للمسلمين أولادا

لحظات غضب أمومي.. ثم لا تلبث أن تزول هذه الحدة.. سحابة رقيقة.. ويعم الصفاء.. ويرفرف الحنان بأجنحته في أرجاء البيت.. متدفقاً من أعماق القلب.. قلب الأم الرؤوم:

* * *

وبعد أن يترجم الخروبي بإفاضة ويذكر نسبة الوالد والوالدة يعرج على ترجمة وتاريخ ابن عمة الوالدة وهو الشيخ محمد بن الحاج تمام.. وهو أيضاً كان من رعيل الشيوخ المتصوفة والذين سلكوا طريق التربية وتهذيب النشء، في لمجتمع الليبي.. يتحدث المؤرخ عنه مترجماً قائلاً:

(. . . آوانا وأحسن تربيتنا واجتهد في تعليمنا العلم وضبطنا لطلبه. . وأقرأنا الوظائف والعقائد، وأحزاب الشاذلية، إذ كان من الدائرة الشاذلية، ويحفظ حكم ابن عطاء الله، ويفهم معانيها. . وكان حريصاً على تعليمنا الخير، وطريق القدماء، وكان يوصينا بالتحفظ من طريق أهل الأهواء، ويحذرنا من خلطة أهل الدعاوي).

* * *

وهكذا تلمح في المناقب والتراجم التاريخية التي سردها الخروبي في كتابه شيئاً من الصراع الشعبي مع حكام عتاة قساة من أولئك الذين كان دأبهم الغزو البحري. . . أو الزحف البري، ورغم أن الكاتب المؤلف كان يهمه من سرد الأحاديث والوقائع هو الجانب الصوفي وتاريخ أحوال المشايخ والأساتذة. . ولكن من خلال ذلك السرد وكتابة التراجم تبرز أحداث تاريخية ذات صدى عميق.

تبرز أشكال من الصراع الذي عاشته طبقات أو فئات من الشعب. فهذا الأستاذ الذي تتلمذ عليه الخروبي واهتم بتاريخه يحكي لنا عنه صورة من صور المواجهة للظالمين والغزاة. . موقف من المواقف:

لما جاء أبو البركات السليماني منقذ أمير تونس وكان الأمير حينئذ محمد بن الحسن الطرابلسي ـ فحاصرها براً وبحراً مدة سبعة أشهر. وضاق الحال وسفكت الدماء.

فأمر الشيخ سيدي خليفة صحابه أن يجعلوه على نعش ففعلوا وأمرهم أن يذهبوا به إليه ـ ففعلوا ذلك على رقاب الفقراء ـ فلما سمع بقدومه «المنقذ» سار إليه ليلقاه فلما لقيه قبل يديه:

فقال له الشيخ:

ـ يا أبا البركات، ارحل عن هذا البلد، فقد ضيقت بالمسلمين فقال له:

ـ يا سيدي لا إذن لي من السلطان. فأعاد عليه ثلاثاً، أو أكثر ـ وهو يجيبه بما أجابه أولاً فقال الشيخ لأصحابه.

ـ ردوني إلى النعش واحملوني. ففعلوا ـ فلما استقر أشرف على «المنقذ» وقال له: إذا لم ترحل عن هذا البلد كما أمرتك ترجع إلى أهلك كما أرجع إلى أهلي. . وما مضت أيام قلائل إلا مات المنقذ». هذه الحادثة المثيرة يسوقها المؤرخ، الخروبي، ويهتم فيها بالجانب الصوفي كعادته. . أسلوب من أساليب كتاب المناقب والتراجم. . وهو بحكم تأثره العاطفي والنفسي ينظر إليها من خلال الكرامات وخوارق العادات.

وهي حادثة تاريخية هامة. . لها جوانب مثيرة هامة كل الأهمية ذات صدى عميق في تاريخ هؤلاء الحكام والغزاة القساة. .

غاز يحاصر بلداً مدة سبعة أشهر. . نصف عام وشهراً ويكون الحصار من جهة البر والبحر وبطبيعة الحال يسفك الدماء ويضيق على قوت الناس وحريتهم.

ولكن عندما يأتي إليه شيخ صوفي يتلقاه الغازي القاسي في شكل آخر أصبح وديعاً. . هيناً. . . ليناً. . يقبل في خشوع وخضوع يديه. . ويخاطبه بعبارة «سيدي» ويتمسكن أمامه. وهذا إما أن يكون من القاسي الغازي منتهى النفاق للجماهير التي حملت شيخها. . وأراد أن يتظاهر بالتدين واحترام الشيوخ المتصوفة خوفاً من الجماهير التي حملته.

وإما منتهى الصعلكة الفكرية والانحطاط الذهني.

طاغ يفسك دماء الأبرياء ويحاصر بلداً آمناً مؤمناً سبعة أشهر. . ويزهق أرواحاً بريئة. . ثم هو يعتقد أنه بمجرد تقبيله يد الشيخ ذلك الغفران والقبول ذلك هو النسك والتبتل والعبادة. . .

صور اجتماعية عانى منها الشعب كثيراً في عصور الانحطاط والتأخر يسجلها المؤرخون. . ويمرون عليها مراً سريعاً وهي أمور وحالات جديرة بالتأمل المتفحص والدراسة والمستأناة. .

وسواء كان ذلك التصرف في هذه الحادثة عن طريق النفاق أو الصعلكة

الذهنية. . أو عن طريق استغلال عواطف الجماهير، كان الحكام بطبيعة الحال يلجأون إلى رجال الدين والتصوف، يلجأ إليهم الحكام والغزاة تمسحاً وتقرباً. . وتظاهراً بالاحترام. ومن ناحية أخرى كان الشعب يلجأ إليهم من أجل المقاومة وصد العدوان.

وكان الشعب صادقاً في الالتجاء إليهم كمنفذ من منافذ البحث عن منقذ. . والبحث عن قيادة الغضب الجارف.

وكان الغزاة في تصرفاتهم ولقائهم مع طبقات الشيوخ وأصحاب المناقب أكثرهم غير صادق. . بل حكام وغزاة يريدون مخرجاً انتهازياً ـ أو ليجعلوا وجودهم ذا صبغة ترضى عنها الجماهير. ولهذا كانت صورة طبيعية أن يلجأ الشعب إلى طبقة المتصوفة ورجال الدين من أجل تدعيم صفوف النضال والمقاومة، لقد كان الشعب يقاوم بكل الوسائل.

وينبري هؤلاء الشيوخ عن صدق وإخلاص. . . وبكل جرأة إلى مواجهة الغازي الظالم. . بأسلحتهم. . وقد حارب كثير من أهل العلم والتصوف عوامل الفساد. . وجحافل الغزاة. . . وعنجهية السلاطين. . .

فالحكاية التي ساقها الخروبي، عن الصوفي خليفة الطرابلسي ومجابهته للأمير أبي البركات السليماني أو عامله ومندوبه المنقذ. . إنما هي في الواقع إشارة إلى ثورة الشعب وغضبته بقيادة المتصوفة ـ.

وقد كان موقف الرجل وهو في نعشه نوعاً من المقاومة والعصيان المدني والتهديد، وعدم الرضا والرضوخ وتأييداً لمواقف الجماهير.

وهكذا يجد الباحثون من خلال الترجمات التي ساقها الخروبي سطوراً من تاريخ الموجات العاتية والأعاصير العاصفة التي مرت على شاطىء طرابلس.

وفي سطور يشير إلى كثير من الغزوات والقلاقل والأعاصير التي جابهها الشعب على شاطىء طرابلس.

وطالما تعرضت البلاد لغزوات من قراصنة أوروبا ولصوص البحار ولهذا

باعتبارها بلداً ساحلياً وموقعاً بحرياً عرضة للغزوات وكان شاطئاً مهدداً بالهجوم من القراصنة كان أهل التصوف وأنماط من الرجال العلماء يحذرون أهل البلد وسكان الشواطىء بوسائلهم. . وعن طريق حساسية مشاعرهم. وها هو الخروبي في معرض المناقب والتراجم يحكي لنا لوناً من ألوان هذا التحذير وشكلاً من أشكال التنبيه ومحاولة الإيقاظ.

(. . . وسمعت أنه جاء يوماً إلى البلد ـ يعني طرابلس ـ وقد أخذه حال ـ فخرج إليه الناس على عادتهم. . . كانوا إذا رأوه جاء البلد على تلك الحال يعلمون أن حادثاً يحدث فلما لقوه قال لهم:

ـ يا أهل طرابلس سمعت الناقور من بلدكم وكان من أمرها ما كان أعادها الله للإسلام).

والناقور هو صوت المدفع في البحار من السفن التي كانت تجهز لغزو البلاد من طرف الأسبان أو المالطيين أو النورماند وقراصنة النصارى. . والرجل الصوفي أسرع بواقع حسه وأحاسيسه إلى تنبيه الناس.

ولا يهمنا منها هنا الجانب الصوفي الغيبي إنما الجانب التاريخي. . ووضع البلاد آنذاك وقد أشار الخروبي إلى أنه:

(كان من أمرها ما كان).

(أعادها الله للإسلام).

وهذه الجملة تدل على أن شاطىء وبلدان طرابلس وقع تحت وطأة غزو أجنبي.

وتدل من جانب آخر على أنه كتب تاريخه هذا وسطر كتابه والبلاد كانت تحت وطأة كابوس سيطرة أجنبية من جراء القراصنة النصارى والغزاة من لصوص البحار ولعله كتب مؤلفه هذا وهو خارج البلاد، كما يلحظ المتأمل في كتابه أنه يقول عند ترجمة أبي عبد الله محمد الشهير بزيتون.

(وكانت مصافحتنا له ببلد طرابلس).

(أعادها الله للإسلام بمنه).

ألا تدل هذه العبارة على سرده للذكريات وكتابته لتاريخه عندما كان خارج البلاد بعيداً عنها؟ وتدل العبارة آكدة أنه عندما قام بتأليف كتابه كانت البلاد الطرابلسية تحت سيطرة الحكم الأجنبي الذي جاء من ناحية البحر.

* * *

وفي كتابه لقطات..

من ناحية الحياة السياسية.

من ناحية الصور الاجتماعية.

وحقيقة مؤكدة ليست قابلة للجدل فضلاً عن الرفض والإشاحة.. هي أن التراجم والمناقب والسير تعد وقائع وأحداث وملابسات.. وحالات وأحوال أي حقائق ومواد تاريخية فهي ظواهر وصور.. هي جوانب وركائز ينفذ إليها المؤرخ ويعتمد عليها.. أو يستنبط منها الدارس الاجتماعي والدارس لحياة الناس والبلد في تلك العصور، والحقب البعيدة..

فكتاب محمد علي الخروبي من ناحيته هذه أو من عدة أنحاء يعتبر وثيقة من وثائق ذلك العهد ـ الذي قلت لدينا مع الأسف مصادره وندرت وثائقه وهو معاصر وشاهد عدل تفاعل مع بيئته وتأثر بها ـ وثيقة لا غنى عنها لمؤرخ تلك الحقبة في أكثر من جانب وإن كانت في شكل سردها أو صياغتها أحيطت بكثير من المبالغات والتهويلات... وأمشاج قد يرفضها غربال النقد والمقاييس التي ترفض أساليب الغيبيات والسطحيات.. ولكن مع كل هذه الملابسات والمقايسات فالخروبي دليل شاهد لبلده وعصره آنذاك:

ويكفي أنه تطوع بالحديث عن مشاهداته وذكرياته في رحاب بيته.. ومدرسته.. وأساتذته.. وغير ذلك من ضروب الحياة العملية والوسائل التعليمية والاجتماعية بلا تردد.. هي سطور تدل في مضمار الوثائق والنصوص

وهي دلائل تفيد كل الإفادة لمن يدرس التاريخ الاجتماعي في القرن الحادي عشر للميلاد بشواطىء طرابلس.

سطور، وإن كانت مقتضبة. وحوادث، وإن كانت موجزة.

وأسلوب الخروبي في كتابه هذا ليس فيه تكلف السجاع أو حذلقة وغموض الكثير من الكتاب ـ ومن أجل الحقيقة ـ هناك بعض المآخذ والهنات المهولة.

لكن بقياس زمنه كانت تلك الأنماط والمؤاخذات أموراً سائدة مستساغة مستمرأة تلك هي حكايات الغيبيات.. والإفاضة في سرد الكرامات ولكن رغم زخم هذا.. يعد من المصادر والوثائق التاريخية التي يجد فيها المتأمل ما يطلبه في زحام الاتجاهات ولا يغيب عن البال أن الأستاذ محمد علي الخروبي لا يسطر في كتابه هذا تاريخاً مجرداً. ولا هو ينشد الأرقام ولا يشد إليها.

ولا يعنى بترتيب الأحداث الزمنية.. أو أحداث زمنه ولا هو الذي يعقد الفصول الطوال:

بل في كتابه الموجز كان يكتفي أو يقتنع في كل فصل أو موضوع بسطور موجزات.

وأيضاً ـ وما أكثر الإضاءات. والآضات ـ وما يستحق المراجعات ـ كان شأن كتّاب ومناهج عصره يكتفي بالأحكام العامة وصفات التمجيد والتقديس لأساتذته ومعلميه والحب كل الحب لأهله وبلده.. والبر كل البر بوالده ووالدته..

هي جوانب من التاريخ العلمي والاجتماعي.. ومضات من حياة الناس وعاداتهم في الخلوة والسلوك الفردي ومعاملة الأتباع والمريدين.

ومن ثنايا السطور أو من وراء السطور عند المطالعة الفاحصة قد تتضح أمور وأحوال أكثر مما اتضحت لنا..

وهناك الكثير الوفير مما لا تستوعبه هذه الصفحات القصار والسطور الموجزات.

كريم الدين البرموني

وتاريخ الصوفية

كان ميلاده عام 893هـ 1487م.

فهو من معاصري القرن العاشر الهجري ـ والسادس عشر الميلادي نشأ بدار جدته لأمه «حليمة» بمدينة مصراتة أيام أن كانت هذه المدينة الساحلية مزدهرة. وتموج بالنشاط.. من ناحية البحر بالسفن التجارية ومن ناحية البر بالقوافل.

وأيام ازدهار أو نشاط المدارس العلمية بهذه المدينة ذات الطابع الحضاري سواء من القاطنين بها.. أو الوافدين إليها.. أو المارين بها عن طريق المشرق والمغرب الإسلامي وكما كان والد الشيخ الخروبي صديقاً للأستاذ (أحمد زروق) وكان سبباً في مصاهرة وتزويج والد الخروبي بفتاة من مدينة مصراتة نجد أيضاً من أحاديث وذكريات «كريم الدين البرموني» ما يدل على صلة «أحمد الزروق» بوالده وأيضاً مساعيه لتزويج هذا الوالد من فتاة مصراتية ـ وقد أشار إلى هذا الكاتب المؤرخ كريم الدين البرموني نفسه، عن والده ـ عندما ترجم له في كتابه المزدحم بالمناقب والسير فقد حكى لنا أن والده عندما خطب والدته عائشة بنت عبد الرحمن بن شتوان، أكثر عليه والد الفتاة الصداق قاصداً على حد تعبيره ـ تطريده ـ ولكن الشيخ «أحمد الزروق» تدخل واستعمل نفوذه، وأمره أن يزوّج ابنته للبرموني ولا يأخذ ولي أمرها إلا ربع دينار قيمة الصداق الشرعي.

فقد كان والد المؤرخ البرموني من أصحاب «أحمد زروق» بل هو الذي جاء به من مصر إلى مصراتة وهذا نص هام في سيرة الرجل وتاريخه.

ودرس «البرموني» على يد أستاذه «محمد بن أبي بكر المصراتي..» بزاوية أو مدرسة ـ الزروق ـ وعندما توفي زروق ـ انتقل البرموني ـ إلى مدرسة أخرى في طرف مصراتة هي ـ زاوية المحجوب ـ وهنا تلقى دروسه على يد الأستاذ ـ عبد الرحمن بن بركات ـ وكان هذا الأستاذ من تلامذة الشيخ الصوفي عبد السلام الأسمر.

ومن هنا ـ يعد لقاء له أثره وتأثيره. ولا بد أنه سبق أن سمع عنه وروى له أساتذته أشياء عنه. فتكونت فكرة الإعجاب بشخصية ـ عبد السلام الأسمر ـ وفي ذلك الجو المشحون بتراتيل المتصوفة، وكم لأحاديث الأستاذ المدرس لتلامذته من أثر عميق وصدى قوي.. ولو بعد أحايين ومراحل ولعل أحاديث هذا الأستاذ الشيخ لتلميذه الشغوف كانت من الدوافع الحافزة التي ألحت عليه ودفعته فيما بعد إلى أن يكتب البرموني أضخم كتاب في سيرة وتاريخ هذا الشيخ الصوفي. بل وفي سيرة أتباعه ومريديه.. وتلامذته ومعاصريه وقد تغلب لديه جانب كتابة المناقب والسير والتراجم على جوانب أخرى كانت لدى ـ البرموني ـ مثلاً ـ هو في تكوينه العلمي كان فقيهاً من علماء المالكية يجنح لدراسة الفقه.

وكان الفقه وما يتصل به من أمور التشريع هو اللبنة الأولى والدعامة الرئيسية.. للدارسين في محاريب المساجد، وحلقات الزوايا.. وفصول المدارس، ولهذا نرى البرموني بادىء ذي بدء في حياته التأليفية يشرح ـ مختصر خليل ـ في جزأين وليس من المنتظر أن يكون في هذا الشرح جانب إبداع وابتكار.. إنما هو ـ بطبيعة الأجواء التعليمية وروح التأليف التقليدي السائدة في تلك الحقبة ـ لا يعدو بصفة عامة عن أن يكون نوعاً من التقليد وشكلاً من أشكال السرد والاجترار في التعليق والأقوال.. في شكل إطناب أو تلخيص ـ فلا يخرج بصفة العموم عن إضافة شرح إلى عدة شروح.. لو فقد هذا ومثيله لا تعدم المكتبة الفقهية شيئاً..

هو من إضافة المتن إلى المتون والشرح إلى الشروح. . ولكن ـ مع هذا ـ لنا وقفة تأمل هنا تثير شيئاً من الانتباه ـ والذي يهمنا ويثير انتباهنا ليس هو تأليفه للكتاب أو تعليقه على الشرح فقد كتب العلماء والمتعالمون عن ـ خليل كثيراً ـ إنما الذي يهمنا هو ما دار حوله. . وبالتالي ما نتج عنه من صراع حتى كان سبباً في انتقال البرموني من ميدان التأليف في الفقه ـ إلى ميدان التراجم والتأريخ للون من النشاط الصوفي.

فقد كتب البرموني شرحه لمختصر خليل عندما كان شاباً طالباً بمصر. . وعلى وجه التحديد كان في مدينة طنطا تلك المدينة التي كان بها مجالات النشاط في الميدان العلمي . . والصوفي.

وشأن فورة الشباب. . وزهو الفتوة. كان المؤلف جد معجباً بشرحه هذا حتى إنه كان على حد زعمه ووصفه لعمله (مثار حسد من زملائه وأقرانه) وقد لا يكون مثار الحسد هو الإبداع والنبوغ إنما هو صورة من تحاسد المحيط وتنافس المعاصرة ولكن الذي يهمنا ـ مرة أخرى ـ هنا أيضاً ليس هذا فحسب بل ما وراء. . أو ما بعد هذا. . .

فالذي يثير الإنتباه والإهتمام هو الصلة بين ـ كريم الدين ـ ومن ترجم له وخصه بتأليف كتاب تاريخي، وهي صلة أو لقاء في حياة الكاتب المؤرخ تعتبر نقلة من مجال الدراسة والكتابة والتعليق في الفقه إلى فن المناقب والتاريخ الصوفي.

ولندع، البرموني يحكي لنا طرفاً من قصة واقعية لا تخلو من طرافة وأيضاً نتلمس فيها الخيوط التي تشير إلى حقيقة تلك الصلة ودوافع ذلك الانتقال.

(. . والذي رآه من الحسدة من أهل مصر لحقته غيرة شديدة. . وأنا إذ ذاك بطنطا ـ كتب عليه كتابة إلى أن قال ـ والله ما هذا بشرح وإنما هو تسويد للبطاقة وتشنع علي تشنعاً شديداً).

ولكن. . بينما كان البرموني ـ في حالة نفسية وانفعال يصل إلى حد

الأزمة.. تحيط به الهواجس.. يرسل إليه من طرابلس الشيخ عبد السلام الأسمر مبادراً بتشجيع البرموني.. أرسل إليه قطعة شعرية.. أقرب إلى شعر وزجل العوام.. ولكن لها تأثير وفاعلية في ذلك الجو النفسي المتوتر.

قال عبد السلام الأسمر مخاطباً البرموني:

(يا برموني.. يا مريدي لا تحتار... من فقهاء هذا الزمان... ارحل من طنطا ومن ساير الأمصار... واسكن مكة تبيان.

تعليقك فاق الشرح حقا وجهار... وأنت مفتي هذا الزمان.)

ومن طرابلس إلى مصر كان البريد يحمل تأييد الشيخ الصوفي وها هو المؤلف الفقيه يناصره ويؤازره صوفي ويدعوه إلى الهجرة من أرض مصر إلى الديار المقدسة.. ترى هل بعث البرموني.. للشيخ عبد السلام الأسمر: بنسخة من كتابه.. وقرأها الشيخ وهو بطرابلس؟

أم هو مجرد تجاوب عاطفي ومناصرة مواطن من مواطنيه بلغته حكاية صراعه مع مشايخ طنطا فرآه مظلوماً مهضوماً.. فأراد أن يحامي عنه.. من بعيد.. على طريقة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النادبات على ما قال برهانا

وخاصة أن الأسمر كان له مع الفقهاء خصومات وملاحمات سجلها في كثير من أناشيده أو الأناشيد والمقاطع التي أضيفت إليه.

أم من ناحية أخرى كانت تلك المبادرة من الشيخ الأسمر لكسب البرموني.. إلى صفه.. وضمه إلى مريديه..

وسواء كان هذا أو ذاك.. أو كلاهما معاً. فعلاً كسبه إلى صفه عندما بادر بالثناء عليه ورآه دفعة واحدة (مفتي هذا الزمان..)

واستطاع البرموني أن يرد بعد سنوات طويلة جميل الشيخ الأسمر ومآثره.. فلم يضع هذا التآزر.. بل أثمر تعاطفاً متزايداً..

فقد رآه البرموني (قطب الأقطاب).

بل خصه بكتاب ضخم في تاريخه وترجمة حاله وتتبع أحواله وترجمة تلامذته ومن دار في دائرته.

ومن هنا كانت نقلة من ضفاف الشراح أو المعلقين على كتاب خليل.. إلى ضفة كتابه.. تاريخ وسير ومناقب أهل التصوف.. والاهتمام بالجمع والتقييد والسماع لما يتعلق بتاريخ ذلك الجانب..

وإن كان البرموني، قد ارتحل بإشارة ورسالة من أستاذه ـ عبد السلام الأسمر ـ من مدينة طنطا إلى مكة المشرفة.. لكن مكوث البرموني في مدينة طنطا لا بد أنّه كان له صدى في اتجاهه الصوفي.. ولم يخل من تأثير نفسي بشكل ما حيث كانت ـ ولا تزال للصوفي أحمد البدوي ـ آثار ومؤثرات عميقة. كما أثرت أجواء السيد البدوي وطنطا في كاتب مبدع هو مصطفى صادق الرافعي مع الفوارق والمفارقات الكثيرة.. فهناك صور من حياة الصوفية والمريدين وأتباع الطريقة تنطبع في ذاكرته.. حتى أوجدت القابلية..

وحالة التعلق ـ وفاعلية التأثر للأحوال الصوفية.. ولكن من طرف آخر نستطيع أن نوجد تعليلاً آخر. فلعل غضب البرموني.. أو إغضابه من منافسيه المصريين.. وإهمالهم له.. مع أنه من أصل مصري، وتحاملهم على صنيعه عندما تصدى للتأليف.. وخصومتهم له في أسلوب حاد ونقدهم لكتابه الذي ألفه في الفقه المالكي جعله لا يتعاطف ـ إلى حد ما ـ مع أنصار الشيخ البدوي وأتباعه ومريديه ـ وهو يتعاطف بكل قوته وإمكانياته مع الشيخ ـ عبد السلام الأسمر ـ ومريديه وأتباعه إلى درجة تصل إلى المبالغة والتعصب وتقبل حتى الخرافات والأساطير التي نسجت حوله.

ولعل ما يؤكد لنا تزايد الصلة، وقوة الرابطة بين التلميذ والكاتب وأستاذه الشيخ.. بين شيخ طريقة ومريديه.. هذا النص الذي سجله (كريم الدين البرموني) قائلاً (وزرت عبد السلام وأمرني بالمكث عنده فمكثت عنده إلى أن توفاه الله).

في تلك الفترة التي كانت طرابلس تموج بمختلف الأحداث السياسية والاجتماعية ومتعرضة لقراصنة البحر من لصوص أوروبا وغزاة نصارى الفرنجة.

فترة يكتنفها ضباب الغموض.. وصراع دام في الداخل والخارج.. وأرض المسلمين نهب وأسلاب.

غزوات من القراصنة.

وهجمات من المغامرين.

واستبداد من الحكام.

ومواد متكاثفة، ووقائع تصلح لأكداس تاريخية، يجلس البرموني. متربعاً يؤلف ويكتب ولكنه لا يهتم ولا تحركه الأحداث ليكتب حوادث الأيام ويسجل تاريخ الولاة والغزوات وما كان يصيب الشعب من جراء التحركات وجحافل الطغاة والولاة ونيران القلاقل.. بل هو يكتب عن ناحية واحدة استولت على بؤرة شعوره.. وتملكت كل أحاسيسه ومشاعره.. يعكف على جمع وتسجيل كل ما يتعلق بأستاذه الشيخ وتلامذته وأناشيده وما قيل فيه.. وما قيل عنه. ومأساة الشيخ الصوفي وصراعه وتحركاته.. ويؤلف كتاباً كبيراً في مجلد ضخم به من مواد المناقب والتراجم الصوفية ثروة طائلة.. مع أن البرموني ـ رحمات الله عليه ـ لو التفت إلى جوانب أخرى من حوله لوجد على الشاطىء.. وفي المدن والقرى والدواخل وفي وقائع عصره كثيراً من الأحداث والأمور الجديرة بالتسجيل والكتابة...

لكنه كان ينظر من نافذة واحدة.. أو يتنفس برئة واحدة.

وبدافع من شعور معين يتبلور في أعماق نفسه.. كنا نطمح منه أن يكتب عن كثير من حوادث التاريخ في عصره.. ولو مجرد تسجيل وتقييد..

ولا أقوال التحليل والتعليق.

ولكنه كان ينظر إلى ناحية خاصة في اتجاه خاص. في دائرة محددة.

ومع كل هذا ـ ورغم كل الملابسات والمؤاخذات ـ يلمس الدارس في ثنايا سطور كتابه وبين تلال وكثبان المعتقدات. . ويتضح للمتأمل والمؤرخ المتفحص مواد وحقائق. . ومن الصفحات والسطور تتبين خيوط فيها جوانب تاريخية وصور ولقطات من الحياة الاجتماعية. . .

في كتاب البرموني. . مواد ووثائق اجتماعية قام بتسجيلها وتقييدها عندما كان يقوم بكتابة التراجم والمناقب وسرد الكرامات وخوارق العادات التي شغل بها وقبلها مصدقاً لها. . متأثراً بها. . معجباً ومقدساً لأصحابها.

* * *

فحوى الكتاب وهيكله. . سير ومناقب. . أشخاص وحكايات. . حوادث في إطار صوفي. .

وشعر دارج. . أقرب إلى نتوف الزجل. . والارتجال العامي أو الأدب «الفلكوري».

ألوان من فنون الأدب الشعبي. .

صراع بين الحقيقة والخرافة.

بين منطق العلم وتهاويل الأساطير.

الصراع الخفي والمصاولات الظاهرة بين مذهب النقل ـ والفقه ـ والرأي.

بين أهل الباطن. . أو العقل الباطن والعلوم الصوفية أهل الباطن. . وأهل الظاهر.

بين علم اللدني. . وعلم السند والنقل والتلقي.

نماذج وأنماط. . وعوامل هدم. . وعوامل إصلاح في محيط لولبي. . وخضم زاخم. تيارات انعكست في هذا المحيط يغرق فيها الإنسان أو يحار فيها الإنسان من هؤلاء وهؤلاء.

ذهول التسليم والتبعية. أو ذهول الرفض والتمرد.

يسجل ـ كريم الدين البرموني ـ صوراً ويكتب صفحات طوالاً في زحام المناقب والكرامات والتراجم.

ينقل لنا عن المحيط الصوفي الذي شغله ـ وثائق كانت شفاهية كلها تدور حول شخصية صاحبه الشيخ.

وهي من محيط البلد.

فهو من هنا ـ وبهذا المقياس يعتبر كتابه وصنيعه الذي قدمه.. مواد وأطلال.. به ركام ومواد وخليط يحتاج إلى أصابع دقيقة..

قد يأنف البعض حتى من مجرد قراءته ويشيح عنه بمجرد تصفحه.. يزدريه.. ويراه من أساليب المبالغات ومناهج التهويل..

ومن طرف آخر.. قد يتلهف عليه البعض، ويتلمسه في قداسة ويتصفحه في رهبة ويقرأه في شغف ونهم..

طرفان متضادان.. ونظرتان على النقيض إلى الكتب الخطيرة.. التي كتبها البشر ـ خطورة الرهبة أو من الكتب الخطيرة ـ خطورة العدوى. بين مرتفع التقديس. ومنحدر الإهمال والازدراء..

خطان فيهما تقابل وتضاد.

لقد دفع الفكر بضربات مهولة.. والإضرار بالمعتقدات وتعاليم الشريعة السمحاء. بما حشى الكتاب من خرافات.. ومدسوسات.

ولكن مع المنهج العلمي.. ومحك المنطق يبرز سؤال بين هذين الخطين..

ألا توجد نقطة التقاء بين مبالغة التقديس ومبالغة الإهمال والازدراء؟

وبقطع النظر عن دوافع هذا وذاك. فلكل وجهة نظر.. ولكل شيعة وأنصار.. ويهمنا هنا.. الكتاب كمادة تاريخية ومن جوانب وزنه في معيار فنون التراجم والسير.

يهمنا الكتاب والكاتب في دراسة المناهج التاريخية والأسلوب الذي اختطه في أدب التراجم والسير، فهو كما أشرنا من الجانب التاريخي.. والمواد العلمية ـ عند تصنيفها وتنقيتها ـ لا يخلو من كثير من المواد والحقائق الهامة في تاريخ البلد والمحيط الاجتماعي بل والفكري والثقافي في تلك الحقبة والفترة المتردية في الانحدار.

وقد نشير لهذا لندرك أن اتجاه كريم الدين البرموني ـ إلى كتابة المناقب والسير وتاريخ الشيخ عبد السلام الأسمر وقصائده.. وشيوخه.. وظروفه.. وإن كانت مصاغة ومساقة بأسلوب التعاطف الروحي.. أو العاطفة المشبوبة بالقداسة.. والرهبة.. وصياغة المبالغات وتقبل حتى الخرافات والأساطير ـ غير أن الدوافع والحوافز كان من بينها كما سبق أن أشرنا:

حديث الأستاذ الشيخ له عندما كان طالباً مهاجراً من مدينة مصراتة إلى مدينة طنطا.

الوقوف معه عندما ثار أو تألب عليه شيوخ طنطا وإرسال القصيدة له تشجيعاً وهو شرف كان يراه عظيماً أن يتحفه الشيخ بقصيدة.. سار بذكرها الركبان في محيطها.

ـ الروح الصوفية التي نما فيها البرموني الكاتب بين مدارس ـ مصراتة ـ وطرابلس ـ وطنطا ـ والقاهرة ـ ومكة ويتلقى فنوناً من العلوم يضيفها لدراسته ويتعرف إلى أساتذة جدد.. وتتسع معارفه ثم يرحل إلى خارج الحدود.

ولكن... لا إلى العاصمة القاهرة.. شأن سير المنهاج الطلابي آنذاك.. بل يتوجه ناشداً الدراسة في ريف مصر وذلك بسبب البحث عن أستاذه المصري الذي سبق أن التقى به في بلدته مصراتة... وهناك في بلدة لقانة.. يلاقي شيخه، شمس الدين اللقاني..

وأيضاً يلازمه حتى فارق الأستاذ المصري دار الحياة الفانية ثم يذهب ـ كريم الدين البرموني ـ إلى البلاد الحجازية لأداء مناسك الحج.. وهناك يجتمع بأخ الأستاذ وهو الشيخ ناصر الدين اللقاني..

ويلتقي أيضاً هناك بـ ـ الشريف يوسف ـ تلميذ جلال الدين السيوطي وبالأستاذ ـ الجمال ـ ويجلس مستفيداً إلى أستاذ طرابلسي مهاجر هناك شرقت وغربت سمعته العلمية . . ويعد من صدور العلماء في عصره . . هو الفلكي العالم ـ عبد الرحمن التاجوري ـ وبمكة المشرفة وبالمدينة المنورة يجتمع كريم الدين البرموني بالشيخ أمين الدين الميموني .

وبالمحدث الرواية ـ ابن حجر الهيتمي . . . وعبد العاطي السخاوي ـ والفاكهاني .

مرحلة قبل سفره إلى مصر:

عندما توجه ـ كريم الدين البرموني ـ مرة أخرى إلى المدرسة الزروقية وجد هناك من أساتذتها ـ شمس الدين اللقاني ـ المصري ـ مكث بمدينة مصراتة وكان قد تتلمذ هذا الأستاذ على ـ أحمد زروق ـ أو كان خليفته على حد تعبير البرموني . وقرأ عليه الكتب المتداولة آنذاك أجرومية ـ ألفية ـ عقائد الخ .

ولم يفارق كريم الدين البرموني أستاذه المصري بمدينة مصراتة إلى أن غادر الأستاذ اللقاني المصري مدينة مصراتة عائداً إلى بلدته بريف مصر ـ لقانه ـ ويخرج الشاب المصراتي من دائرة الدواخل إلى مدينة أكبر إلى العاصمة ـ طرابلس ـ وهناك في المدينة الجميلة على شاطئها المزدهر اليانع يدرس بمدرسة ـ الرخام ـ كانت قرب القوس الأثري ـ ماركوس . . عند جامع قرجي الآن . . . ويتعلم هناك الغبار ـ أي الحساب ـ ويتلقى علوم الفلك والفرائض وتلك العلوم المتصلة بفنون الهيئة والمساحة والأرقام والمعادلات الخ . .

بعد هذه الجولة . . والالتقاء مع هؤلاء العلماء والمحدثين يعود كريم الدين البرموني . . إلى بلده وموطنه مصراتة . ويقول من ترجمته لنفسه ـ:

(زرت عبد السلام وأمرني بالمكوث عنده،) .

فهو ودود لأستاذه . . يلازم مشايخه ملازمة طويلة ويتتبع آثارهم . . ولعله كتب عنهم أشياء وأرخ لهم ولم تصل إلينا .

وتكوينه الذهني صدى لثقافة عصره وهي حقبة كانت في القرن العاشر الهجري. ولقد أصبح الأستاذ البرموني معروفاً مشهوراً خارج بلده حتى أن مترجمي فقهاء المالكية يدرجونه في الطبقات والمناقب باعتباره فقيهاً.. لا باعتباره كاتب سير ومؤرخاً من المؤرخين..

لقد كان من معاصريه المؤرخ الفقيه ـ أحمد بابا التمبكتي، فترجم له وكتب عنه في كتابه ـ نيل الابتهاج ـ بهذه السطور الموجزة.

(كريم الدين البرموني من شيوخ العصر أخذ عن ناصر اللقاني وغيره... وله حاشية على مختصر خليل في مجلدين كان بمكة عام 998هـ).

هذه السطور الموجزة هي كل ما خص به.. أحمد بابا التمبكتي.. صاحبنا هذا... والذي كان معاصراً له.

وقد سجله باعتباره مهتماً بتراجم رجال الفقه المالكي وطبقاته.. وأشار إلى كتابه على مختصر خليل ولكنه لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى كتاب البرموني الذي خصه بترجمة وتاريخ عبد السلام الأسمر.

وهذا إما لأن اهتمام أحمد بابا التمبكتي كان منصرفاً إلى كتب الفقه المالكي ومؤلفيها. أو من المحتمل أن كتاب البرموني هذا المتعلق بالتاريخ لم يصل إلى يد التمبكتي... أو لم يسمع به في الغالب لأنه في ثنايا ترجمته لشيوخ طبقات المالكية أشار أيضاً إلى أنواع عديدة من مؤلفاتهم في غير الفقه أحياناً... فقد ألفه البرموني ـ بطبيعة الحال ـ بعد عودته من مكة... بلا شك.

لأن التمبكتي... أشار إلى وجود البرموني بمكة عندما ترجم له.. ثم انقطعت أخباره عنه بدليل عبارة التعميم التي ساقها وهو بصدد الترجمة له في قوله:

(.... كان حياً بمكة عام 998هـ) فقد كان الالتقاء هناك في رحاب مكة المشرفة وانقطعت الأخبار بين الاثنين بعد ذلك. فقد انشغل الشيخ المناضل أحمد بابا التمبكتي بأحواله القلقة مع حاكم المغرب.

وعاد البرموني إلى مصراتة. . . وزليطن. . . وطرابلس ليعكف على تأليف كتاب تاريخي على منهج المناقب الصوفية. . قريب الشبه بمنهج الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاته ومن على شاكلته من مدرسة كانت تعتمد على الحب والتقديس والتعاطف كل التعاطف مع من يترجم له.

واسم الكتاب وعنوانه الذي اختاره (روضة الأزهار في مناقب سيدي عبد السلام) وقد اشتهر عند الناس من أهل الاختصاص والعوام باسم مؤلفه ـ البرموني ـ ونسوا عنوان الكتاب يقولون كتاب ـ البرموني. هكذا.

كما اشتهر مختصر خليل في الفقه المالكي باسم ـ خليل ـ قرأ خليل. . حفظ خليل. . ونسوا عنوان الكتاب. . .

كما اشتهر كتاب الحطاب. ولا يذكرون عنوان الكتاب.

يطلقون اسم المؤلف على الكتاب.

ومع شهرته وتكاثر نسخه في فترة من الفترات لكن لم تتح له فرصة حظ الطباعة كاملاً فلم يطبع إلا مختصراً. . .

اختصره عالم تونسي هو ـ محمد عمر مخلوف ـ وطبع في تونس وعلى هامشه الوظيفة الزروقية ثم توالت طبعاته التجارية الرديئة.

أحمد الشماخي

وكتاب السير

السير: عنوان كتاب من كتب التراجم والمناقب ومرجع من مراجع تاريخ الطبقات المذهبية وترجم فيه مؤلفة لعدد وافر من رجالات وعلماء وأئمة المذهب الأباضي..

وأرخ فيه لنشأة المذهب.. ورحلات رجاله سواء من علماء وتلامذة المشرق أو المغرب الإسلامي. يوضح فيه المؤلف الأسماء والتواريخ، متدرجاً من عهد نشأة المذهب الأباضي.. إلى العصر الذي عاش فيه المؤلف..

ومؤلفه الكتاب هو:

أحمد الشماخي ويعد كتابه ـ لولا بعض المآخذ والأساليب والإغراق في المبالغات والخرافات ـ من أهم مصادر التاريخ العلمي والتيارات الفكرية والمذهبية.

ولقد اعتمد المؤلف الليبي على كتاب (سير نفوسة الكبير).

وهذا المصدر الذي اعتمد عليه كثيراً وارتكز إليه يعد الآن من المصادر المفقودة التي يسمع بها أو يقرأ عنها الناس في طيات المعاجم والطبقات ولولا ما تلافاه أحمد الشماخي بالفقرات والنصوص التي نقلها في كتابه والسطور التي أثبتها إيجازاً أو إطناباً ـ لولا هذا لم نعثر على شيء من كتاب طبقات سير نفوسة.

وليس هذا هو المصدر الوحيد وإن كان هو الأهم الذي اعتمد عليه في ثنايا كتابه «السير». . . بل هناك مؤلفات ومصادر أخرى ذات قيمة علمية.

والمؤلف اشتهر وعرف بقلب ـ الشماخي. . . وهو. .

ـ أحمد بن سعيد بن عبد الواحد.

وله مزار تحت قبة قصبة ـ بن مادي ـ بجبل يفرن بطرابلس.

وكان من علماء القرن التاسع. . وأوائل القرن العاشر الهجري.

وكان معاصراً لصاحب كتاب ـ الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ـ السخاوي.

وكان معاصراً لجلال الدين السيوطي وابن حجر وأضراب هذه المدرسة في المشرق. . توفي أحمد الشماخي عام 928هـ 1521م بجبل نفوسة.

وكان الشماخي هذا قريب الزمن والمعاصرة مع كاتب مؤرخ للسير والمناقب من مواطنيه من أبناء طرابلس هو ـ كريم الدين البرموني.

وإن كان خط المسيرة لا يتفق في خطوط خاصة إلا أنه قد يلتقي معه في خطوط عريضة عامة فهذا ـ البرموني ـ مالكي متصوف. . أو على الأقل مهتم بتراجم المتصوفة.

وهذا الشماخي. . أباضي يعنى بطبقة علماء مذهبه.

البرموني يكتب في تاريخه عن أنماط المتصوفة والدراوشة.

أو هو يخص شخصية صوفية. . الأستاذ عبد السلام الأسمر بكتاب ضخم يجعله دائرة أو محوراً منه ينطلق إلى الحديث والترجمة لعدد وافر من أهل المناقب من الأساتذة والتلامذة الدائرين حول هذا القطب ومنها أيضاً يجد منطلقاً إلى الأناشيد الصوفية وتهويمات غيبية. . وشطحات قد لا يستسيغها كثير من أهل الفكر وأصحاب الدراسات العلمية فهو متأثر كل التأثر بالمحيط الصوفي.

وهذا أحمد الشماخي يكتب عن سير أهل مذهبه ويتتبع التراجم في طبقات

التشريع الفقهي من عصور بعيدة.. ويلم أطرافها من أقطار شاسعة ويتلقط كل شاردة وواردة ليزحم بها تراجمه لا يهتم ببلد واحد ولا يقتصر على فترة معينة كما صنع البرموني في النقطة التي رسمها حول شخصية واحدة.. وما يتصل بها.

لقد كانت لديه شخصية واحدة هي نقطة الارتكاز. ولكن محور الحديث والاهتمام ونقطة الانطلاق عند الشماخي ـ هو المذهب وتاريخ الفقه الأباضي.

ومحور الحديث عند البرموني ونقطة الانطلاق شخصية الصوفي المترجم له عبد السلام الأسمر.

والحقيقة عند المقارنة والتأمل نجد أن السير للشماخي وأشياخ جبل نفوسة لمقرين أو الأزهار لسليمان الباروني كلها تمثل في المكتبة التاريخية بليبيا لونين من ألوان الكتابة التاريخية أو شكلين من الأشكال في إطار المناقب والطبقات وكلاهما ـ من منطلق فنون المناقب والتراجم ـ ينبعث الدافع الكتابي عندهما من ثقافة معينة وخميرة مستمدة من مادة الفقه وتاريخه. ورجاله.. أو التصوف وتأثيراته..

وكلاهما ـ أي الشماخي والبرموني ـ تأثر في أسلوبه، وطريقة تناوله بعصور الانحطاط الفكري في المنهج.. وطريقة الأداء والتعبير.

وكلاهما يشترك في أسلوب المبالغات إلى حد التهويل وإلغاء الفكر المنطقي وغيبة الغربلة الفكرية. أسلوب التهويل والشطحات الذي قد يخرجه في دائرة الكرامات والغيبيات عن دائرة التصديق في بعض الحالات.

ثقافة معينة تجعل الكاتب في مسار تأليفه يأخذ مجراه إلى ذلك الاتجاه في مضمار السير والاهتمام بالمناقب وإن كان يفصل بين الاتجاهين بعض المسافات.

ـ بين خط السيرة في اتجاهها الخاص ـ

يفصل بين الاثنين: البرموني ـ والشماخي ـ في طريقة تناول السيرة. والترجمة أمور قد تظهر في شكل مسافات وأبعاد.

فالشماخي ابن الجبل ـ جبل نفوسة. وربيب المذهب الأباضي.

والبرموني من الساحل البحري ومدينة مصراتة وربيب الاتجاه الصوفي.

وكلاهما بدافع الحب ـ أو عوامل التقديس.. بدافع الإعجاب والإكبار قد يتناول فنون التراجم والتاريخ بهذه الدوافع والمؤثرات..

والحب والتقديس أقرب متناول إليه ـ منظار المبالغة والحب والتقديس قد يفتح نوافذ على أشياء بل قد يصم الآذان... إن أردت نصحاً أو نقداً.. ولو من باب الرفق والإشفاق..

إنه يجعل بعض العيون كليلة عن أشياء.. أو عن كل الأشياء وسواء كانت عين الرضا كليلة أو غير كليلة.. فإن أثر روح التقديس من كتاب التراجم والمناقب لها أثرها في الدفع ولها صداها في الإغضاء.

ولهذا كثيراً ما كانت روح التقديس والإجلال تجعل كاتب التراجم والطبقات ومؤرخي السير يقطف عباراته وينهج أسلوبه ويستمد كلماته من أودية المبالغات.

وقد لا يؤاخذ كل المؤاخذة كاتب يدفعه الحب والإعجاب عندما يكتب مؤرخاً مترجماً. ولا يتصور كاتب يفقد حرارة الإعجاب بمن يكتب عنه أو يفقد لهب الموضوع.

وبشكل آخر قضية لا تقبل الجدل ـ لا يتصور كاتب لا يحب من يكتب عنه أو من يترجم له..

ولاسيما أنه اختار موضوعه بكامل الحرية ومحض الاختيار هذه حقيقة لا يمكن جحدها.

إن كتابة الترجمة والتاريخ لشخصية ـ إذا جعلناها موضع دراسة أو كتاب ـ لا بد أن يربطها خيط من الإعجاب أو الحب والتقدير..

جانب أو خيط.. وإن شئت خيوطاً أو عدة جوانب.. ولكن المشكلة

الكامنة في ثنايا السطور أو ما وراء السطور ليست في مجرد وجود هذا الحب وتمكن الإعجاب والتقدير. إنما المشكلة أو الخطوة في سيطرة الإعجاب والحب في نفس المؤلف وأسلوبه إلى درجة تكون في علوها أو غلوها. . وشطط غلوائها حائلاً بينك وبين جوهر الحقيقة. . ومجال الموضوعية.

حتى لا ترى إلا كثباناً من المبالغات وهالات من التهويل حتى غدت بعض كتب المناقب والتراجم لا تريك شيئاً من خطأ. . أو غلط أو هفوة. . وضعف. . من ترجم لهم وأرخ لهم. . فكلهم على هذا النمط.

سادة ـ علماء ـ أبرار ـ وقمة ـ وما شاكل ذلك وهذا منهج وأسلوب في الحقيقة من عيوب كتاب التاريخ والسير عند مؤرخي الثقافة الإسلامية والفكر العربي ـ لا سيما في عصور الإنحدار والانحطاط.

تفقد كتب التاريخ والطبقات على نمط ـ البرموني ـ والشماخي ـ كثيراً من عناصر التحليل والمقارنة ـ وروح المنطق الطبيعي أو على الأقل تقديم الواقعية كما هي ـ كما كانت وهي حصيلة من مسيرة طويلة في كتب التاريخ والمناقب والسير ذات طابع الاجترار والتقليد.

مآخذ على آلاف المجلدات في تاريخ الأشخاص وسير الأفراد. . ملوك وأدباء. . سادة ومتصوفة أو غزاة. ، وأهل صلاح وتقوى.

إن كانوا صوفية فكلهم واصلون أقطاب أوتاد وان كانوا شعراء فكلهم مفاليق نوابغ. وإن كانوا حكاماً فكلهم في نظر من خصهم بالتاريخ والترجمة عدول. . سادة. وإن كانوا فقهاء فكلهم من أهل الرأي والاجتهاد.

وهذا من رواسب وبصمات مناهج التعميم ولا شك أن أصباغ الفضائل خلطت فيها كثير من الحقائق وقد يضطر الباحث إلى بذل جهد غير يسير للبحث عن ملامح الصورة في زخم العاطفة وأسلوب التهويلات وضجة التعميمات.

وهل يلام كل اللوم كاتب مثل البرموني ـ والشماخي ـ وقد جاءا. . إلى ميدان كتابة التاريخ والطبقات والسير بعد أن تكدست في رفوف المكتبة التاريخية أكداس وأطنان من تلك الشاكلة.

هل يلام كتاب التاريخ من هؤلاء وقد جاءت ثقافتهم نتاجاً مهزوزاً وخليطاً من تلك المفاهيم. يدفعهم حب العلم والعلماء إلى الكتابة المنقبية يظللها روح التقديس وقبول كل ما يسمع وتصديق كل ما ينقل.

يا غيبة رجال السند وأين أيام ازدهار علوم الحديث ومصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل.!؟

وفي الحقيقة ـ رغم كل المآخذ والهنات ـ والظروف والملابسات والهجوم أو الدفاع عن هؤلاء: رغم كل هذا وذاك ـ فقد صنع لنا البرموني والشماخي شيئاً يشكران عليه.

فهما في مجال التاريخ العلمي والاجتماعي قدموا لنا بطاقات تعريف.

التقطوا لنا صورة ـ وقد تكون هذه البطاقات في حاجة إلى فحص.. والصورة في حاجة إلى تفرس، وبطاقات التعريف أحياناً في حاجة إلى تصحيح.. حتى البطاقات المعاصرة.

الشماخي في سيره والبرموني في روضة أزهاره كلاهما قد سار على درب قد يبدأ مسلكاً ضيقاً ثم يتسع إلى مساحات أو متاهات أو يبدأ أحياناً واسعاً ثم يضيق حتى يؤدي إلى طريق غير نافذ.

وكلاهما لا يخلو من مبالغات تشم منها رائحة تذكرنا بأسلوب عبد الوهاب الشعراني في طبقاته 898هـ ـ 973هـ/ 1493 ـ 1565م.

ولم يكن عبد الوهاب الشعراني بعيد الزمن أو بعيد الأسلوب والمنهج عن هذين الكاتبين.

تجد في كتاب السير ـ وكتاب روضة الأزهار للبرموني غيبيات وكرامات وتصرفات وتأويلات قد يحار فيها أو يحار منها صاحب المقياس والمنطق الموضوعي.

هو طريق... وعر شائك.. ملبد.. سار على منهاجه كثرة من كتاب التاريخ والمناقب والسير في عصور التأخر الذهني وقصور الباع..

.وعندما يتعرضون للتاريخ والترجمة يرى هؤلاء المؤلفون في الشخصيات التي اختاروا. . . أبطالاً. . أو نماذج للبطولة. . وفي هذه الدائرة. . وبتلك النظرة. . تنشأ المزالق الخطرة فالبطل في ذهن المعجب به يضيف إليه كل شيء. . ويتصور منه صدور أي شيء عجيب غريب. . فائق. . خارق. . إنه ـ في تصوره ـ قدرة فوق قدرة الناس ـ العاديين ـ فقد يصبغ الكتاب والمؤلفون بدافع الحب وهالة التقديس أصباغاً قد تضيع وجه الحقيقة.

ومن هنا قد تنشأ إضافة خوارق العادات ـ لكن رغم هذا. . وبشكل عام. . وفي إطار المجموع. . نستطيع أن نخرج من زحام التراجم. . ومأخذ منهجها برأي أو فكرة. . فيها من الحقائق أشياء. . ومن الإنصاف شيء.

ـ الشماخي ـ والبرموني ـ ومن كان على منوالهما ـ أديا خدمة علمية في مجالات السير والتاريخ. . . لا تنكر. . لا ننكرها. . في خدمة التاريخ العلمي من من ناحية تقديم هذه النماذج ورغم الإطار المبالغ. . والأسلوب المجتر. . والمنهج التقليدي. . لقد حفظا لنا سطوراً وحافظا عليها من الضياع والاندثار.

ترى كم من النماذج التي ضاعت ولم يصل لنا من دنياهم ومجتمعاتهم شيء. . لأنهم لم يجدوا من يسجل وينقل لنا شيئاً عنهم.

هؤلاء الكتاب من أنماط السرد والنقل التاريخي أقرب إلى دنيا الوثائق والمصادر عن أي جانب آخر والوثائق والمصادر مهما كان شكلها ونمطها هي خامات يجد فيها الدارس الباحث مواد يستقي منها وتتضح له الرؤيا من الجانب الذي يهمه، والذي يخصه.

يشير الكاتب المؤلف في مقدمة كتابه ـ السير ـ إلى أنه اهتم بتأليفه بناء على رسالة وردت إليه.

(. . ممن أهمهم أمرنا، وابتغاء المطالعة على أحوالنا، وأخبار بلادنا).

وهنا أسئلة تلقى قد لا نجد لها جواباً من ثنايا المقدمة وصفحات الكتاب.

هل هذه الرسالة وردت إليه من خارج البلاد؟! أم من الوطن الليبي؟

في الغالب من مفهوم الإشارة أنها من خارج البلاد ومن غير أتباع المذهب.

سألوا سؤالاً أو أكثر، فأجابهم بكتاب، بدليل.. أهمهم أمرنا. أحوالنا.. أخبار بلادنا.. فلو كان السائل من أهل البلاد.. أو من أتباع المذهب لما كانت الصياغة بالإضافة على هذا الشكل.

وقد كان تبادل الرسائل ذات الاستفسارات العلمية نوعاً من النشاط الذي أمد المكتبة العربية الإسلامية بألوان من الدراسات والمؤلفات.

وقد يسير السؤال قاطعاً آلاف الأميال عبر الصحاري والبحار.. وكثرة من الكتب كانت في أول أمرها... أو من دوافعها جواباً لسؤال ورداً على رسالة وتلبية لطلب إنسان مغمور أو مشهور.

يبدأ الشماخي في كتابه التاريخي من سيرة الرسول محمد صلوات الله وسلامه عليه، ثم أصحابه أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وتدرج دولة معاوية وطبقة أتباع التابعين إلى أن يصل إلى دولة بني رستم وأهدافها التاريخية وكل ما تصدى له من فصول وأطوار تاريخية من العهود والعصور الإسلامية وتداول الدول، وكان في خطته ومنهجه قاصداً متعمداً في كتابه هذا، أن يجعله بمثابة فرشة أو تمهيد لموضوع الكتاب الخاص الذي هو مقصد المقاصد لديه ـ تراجم وطبقات فقهاء المذهب الأباضي ـ ذلك سدى الكتاب ولحمته. ولكن هذا التقديم الطويل والفرشة العريضة تعمد الشماخي قصدها لربط مفاهيم المذهب وتطوره التاريخي وربطه بأصول الإسلام الأولى والدفاع بطريق مباشر وغير مباشر عن مفاهيم المذهب وأطواره، وإظهاره رجاله ومؤسسيه بمظهر الصورة الواضحة، ولكنه في ربطه وانسيابه هذا ونظرته إلى جوانب من أحداث التاريخ لاسيما في عهود الخلفاء والخلافات العنيفة لم يكن الشماخي يخلو من عاطفة وبعض الميل، إن لم يكن كل الميل، وهذا واضح ظاهر في كتاب السير للشماخي وألوان أخرى من المناظرات وأنواع وصور من الجدل الفكري أو

الجدل غير الفكري يمثل في أسلوبه واتجاهه صراعاً من تلك الأنماط التي لم تكن تخلو منها كتب السير والمناقب وحكايات الوقائع. . وهل التاريخ البشري إلا مجموعة من الصراعات والنزاعات والخصومات والمنازعات، وإن اختلفت القوالب والصور، صراع دولة وصراع أشخاص أو صراع أفكار أو مذاهب أو تنازع ميول واتجاهات من عصر آدم والتفاحة إلى تفجر الذرة وانطلاق الصاروخ وما بعد الذرة والصاروخ والوصول للقمر، من التنازع على البئر والمعطن أو قطعة حبل في الدلاء أو التنازع على حدود المريخ ومداره. ويستطيع الدارس المتأمل لعصور الاضطراب والضمور الفكري عند المسلمين ولدى حلبة الفكر العربي ودهاليزه المعتمة في عصور الانحدار وأيضاً في عصور ازدهاره وتفتحه، أن يجد في كتب المناقب والسير سواء لرجالات الفقه والعلم والأدب أو لرجالات التصوف والتزهد وغيرهم ألواناً من الحياة الفكرية وأنماطاً من أسرار الحياة الاجتماعية والسياسية وأحوال الشعب والمراحل التي صنعته أو صنعها من ناحية الاقتصاد والمعاش والظروف السياسية. والحق الذي يجب أن يقال ويكتب ونحن بصدد استعراض جهود هذا المؤلف في سيره وملاحظة خطاه. أن أحمد الشماخي من جبل نفوسة ومن أواخر القرن التاسع الهجري وأوائل العاشر قد كتب السير وتاريخ الطبقات بروح علمية في عديد من الصفحات بقطع النظر عن الأسلوب والاتجاه وفي كثير من الصفحات جانبته الروح العلمية والموضوعية حتى تكونت بعض المآخذ عن الأسلوب أو الإطار، ولكنه كتاب مفيد كل الإفادة لدارسي تلك الحقب والمهتمين بالصراعات الفكرية وباستثناء المقدمة التي تسربلت وطالت وثقلت وتثاقلت والتي تناول فيها نزاع الصراع الأول في عهد الخلفاء الأجلاء رغم السربلات والمقدمة الطويلة التي تكاد تكون قائمة بذاتها أو هي مستند لما يراه ويعتقده. فإن أنواع التراجم المتعلقة بالفقهاء والعلماء بها وفرة من الإفادات العلمية وإن وقع في أكثر من مطب من مطبات المبالغات والانحرافات وعذره في هذا أنه لم يختلقها ولكنه بالروح العلمية كان عليه أن يعلق عليها تعليق الاستغراب إن لم يكن تعليق النفي والتفنيد، ولكن

كتابه هو صورة من مناخ ذلك العصر الذي قد تغلب عليه جوانب التعصب وتبلغ فورات التعصب وغليانه في المجالات السياسية حداً عنيفاً وتنعكس حتى على فنون التراجم والسير وطبقات العلماء والفقهاء. في الكتاب نقاط من معين الإعجاب الدافع إلى التعصب.. الدافع إلى سرد شيء من الخرافات... هل العيب في المؤلف الراوي؟ أم العيب أكبر من هذا في روح ذلك المحيط الذي نفخ في روح المنازعات المذهبية بشكل قد يخرج عن دائرة الجدل العلمي والبحث الموضوعي إلى تناول الأفراد والاختلاق الأقاصيص والخرافات؟

هي نقاط في كتابه يمكن حصرها والرد عليها أو يمكن حتى إزالتها من الكتاب بلا ضرر ولا إضرار، ويبقى الكتاب مع هذا مصدراً من المصادر ومرجعاً من المراجع.. مثل حكاية القنديل الذي كان يضيء ضريحاً من أنصار المذهب ثم طفيء القنديل لأن خصماً من خصومه دفن بجواره، وحكاية الرأس المقطوع الذي يبتسم عندما ينتصر أنصاره ويقطب متجهماً عندما ينهزمون.

هي خرافات تُرْفَض عقلاً وعلماً.. وترفضها الشريعة الإسلامية السمحاء، وأملتها روح العصبية النكراء.

بعد هذا وبعد أن نزيح من الكتاب أمثال هذه الهنات يبقى الكتاب في أنواع التراجم المتعلقة بالفقهاء والعلماء من المذهب الأباضي ذات أهمية وقيمة تاريخية، ولقد برهن الشماخي في كتابه على الاطلاع الواسع يدفعه إليه حب وإخلاص لمذهبه وعقيدة إسلامية صرفة بدافع حب الخير والإصلاح.

والنسبة هنا في مقياسها يجب أن نلاحظ وألا نغفل أن نضع نسبة المقياس نصب أعيننا..

فالشماخي كمؤرخ في فن الطبقات كان يؤرخ برغبة علمية ويغذيه اطلاع واسع واهتمام متزايد برجال المذهب الفقهي الذي يعتز به كل الاعتزاز إلى درجة قد تدفعه إلى قبول حتى المرويات الشعبية.

وقد يجانبه التوفيق عندما لا يستعمل أسلوب النقد والفحص لبعض

الأشياء من المرويات التي لا تستساغ ولا تقبل على محك العقل ولا حتى على محك النقل.

هناك أشياء من أودية التعصب رواها في ترجمات بعضهم وموقف الدارس والمؤرخ أمامها قد تتعدد به السبل.. هل من الأليق والأفضل حذفها، وحذفها قد لا يشكل المآخذ التي قد تنتج عن روايتها وتفنيدها؟

أم من الأفضل إثباتها كرواية ونصوص وأمانة تاريخية وناقل النصوص الخاطئة لا دخل له في صنع الخطأ؟

أم الحل الوسط هو الجمع بين الأمانة العلمية وإيراد النصوص كما هي بنصها وفصها، مع التعليق عليها تعليقاً علمياً يتسم بروح الحياد بالموضوعية؟

ولعل هذا هو المنهج الأوفق والأحسن، ولكن قبل هذا وذاك لا يغرب عن بالنا حقيقة يجب مراعاتها في مثل هذه الأحوال:

إن روى المؤرخون أشياء مريرة أو مؤلمة من ذلك الواقع الذي كان معاشاً من المسؤول عنه؟

حكام ذلك الزمان من ناحية لتفجير ذلك التعصب أو تغذيته والاستفادة منه؟

الاتجاهات الفكرية بالسلبيات والإيجابيات والمحاسن والمساوىء؟

صناع تلك الوقائع والأحداث؟.. بطبيعة الحال والمآل ليس المسؤول عن تلك الوقائع المريرة والأحداث المحزنة والصور القاتمة كتاب التاريخ والتراجم.

فهؤلاء العلماء والكتاب أمامهم أكداس من المواد ولديهم كميات من النصوص ومرويات من الحقائق جمعوها.. ونقلوها في شكل ترجمة أو فصل.. أو كتاب.

أما في الإطار من ناحية الشكل.. وطريقة تناول واستعراض هذه

الأشياء. . طريقة نسج هذا الثوب. . من هنا ننتقل إلى مسألة أخرى. . إلى قضية الأسلوب. . والمنهج.

ففقدانهم لروح النقد والتحليل. . والمقارنة والاستنباط هذا كله أو ما يتصل به يتعلق بقضية المنهج لهذا لا يمكن أن تضع عبء رواية الأساطير والخرافات على عاتق من تصدى للتراجم أو المؤرخ وحده. لم يكن هو المسؤول وحده عن ذلك الخلط والتشويه إنما كانت هناك عوامل عدة تشترك في صنعها، فالبرموني مثلاً حقيقة لم يكن مسؤولاً وحده عن ما شحن به كتابه. . وأيضاً أحمد عبد الواحد الشماخي ومحمد الخروبي وغيرهم. . ليسوا مسؤولين على النصوص والمواد. . التي كانت تقص مشافهة. . أو تؤخذ نقلاً. . إنما مسؤولية هذا وذاك في مضمار الكتابة والتسجيل وعلى محك النقد ـ هو عدم التحليل وفقدانهم للمنهج. . وطريقة عَرض المواد.

وعلى مقياس آخر ـ قيل قديماً ـ ناقل الكفر ليس بكافر ـ هل نقول بشكل ما. . عند محاولة التبرير أو التعليل ـ ناقل الأساطير والخرافات ليس من هذا الوادي. . . يفصل في هذا موضوعية المنهج ويبدو من طريقة ـ الشماخي ـ والخطة التي اختطها في كتابه ـ السير ـ.

التعريف الموجز: وكان مدفوعاً إلى هذا الإيجاز بالضرورة لأن طبقات مذهب فقهي متكامل في عشرة قرون كوامل أو ما يزيد من الصعب جداً أن يضمنها في كتاب. . في جزء.

ولم يقتصر على أعلام بلده. ولا على عصره.

إنما من عند نشأة المذهب في مطلع القرن الأول الهجري وهو يبحث عن سير وتاريخ رجاله.

لهذا فهو يوجز. . وهو يشعر بأنه يوجز في مكان قد يصلح فيه الإطناب وتطلب فيه الإفاضة. فنجده يقول في صفحة 163 من الطبعة القديمة.

(وحق بني المنيب ـ لكثرة فضائلهم ـ أن يبسط في أخبارهم ولكن القصد

من هذا الكتاب التعريف) ويفهم من هذه الإشارة التي ساقها هنا . . أنه كان يعرف الكثير من فضائل بني المنيب ـ وأخبارهم ومن حقه أن يبسط في ذكر أحوالهم ولكن لم يفعل . . ولو كان فعل هذا لأضاف إلى المكتبة التاريخية ـ جديداً مفيداً .

جديداً بالنسبة إلى غيره من الناس ومفيداً كتراث تاريخي في كل آونة . وهو يدلنا بتعريفه هذا على أنه في كتابه هذا كان ملتزماً خطة أشبه ما تكون ببطاقات التعريف أو على حد تعبيره . (. . . القصد من هذا الكتاب التعريف) وهي عبارة لها دلالتها وأهميتها .

وأكثر الذين خاضوا مجالات التراجم والمناقب والسير هم في الواقع الأغلب يقفون عند دور أو حدود التعريف .

وهذا وإن كان مفيداً . . أو يعطي بصيص الضوء ورأس الخيط إلا أنه لا يخلو من قصور وأحياناً تقصير مشين .

وأحمد عبد الواحد الشماخي في مجال التعريف أو بطاقة الشخصية . . كأنه ينقل أو يسجل من سجل النفوس . . لأنه شاهد مئات من كتب تاريخ الطبقات والمناقب فاكتفى في كثير من الأحايين ـ بهذا الشكل فلان . .

اسمه . . . . . .

لقبه . . . .

ميلاده . . . وغالباً وفاته . . . . . أو سرد شيوخه ومؤلفاته .

* * *

ويبدو أن الشماخي المؤلف كان من الناحية المعاشية والنفسية في حالة غير مستقرة . كان رجلاً يعيش في فترة قلقة ، وهو يشعر بأن عدم الاستقرار جعل كتابه عرضة للمآخذ أو الفجوات وليس هذا الشعور منه أو الإشارة إليه من قبيل التواضع . . عندما يسوق لنا معاذيره أو ملابسات ظروفه . . في شكل الاعتراف . . ليس هذا من قبيل التواضع المصطنع الذي يسئمنا به كثير من الناس

في مقدماتهم أو في مؤخرات كتبهم. . إنما الشماخي ـ في كتابه ـ يحكي عن واقعة آذته وظروف وملابسات أثرت في كتابه حتى أنه لم يجد مكاناً عند الوضع.

كيف ـ ولمه؟

(. . لم أجد مكاناً حين الوضع لتشتت البال وتعذر الأحوال لأسباب غير قليلة من التفاقم في البلاد وشدة القحط وتزلزل البلاء).

هذه هي الأجواء التي وضع فيها الكاتب المؤلف كتابه التاريخي.

شدة القحط والجفاف. تلك المشكلة التي عانى منها المجتمع الليبي في مختلف عصوره. . مرائر. . وجرائر.

وهي عوامل أو ظواهر كانت من الخطورة بمكان على سير وتطور الحركة الفكرية. . ومن العوامل الرئيسية في قحط وجدب جوانب من المكتبة الليبية، وهنا يضع المؤلف عند اعتذاره أمامنا حقيقة هامة، ويكاد أن يضع أصبعنا على رأس المشاكل وإن كان قد ساقها عرضاً. . في شكل كلمة سريعة وهي ـ بلا شك ـ جديرة بالتأمل. . وتسليط الضوء لا في عصر المؤرخ الشماخي فحسب. . بل بعده. . وقبله. . وفي الآونات المعاصرات.

(وتعذر الأحوال).

وهذا العذر أو السبب تنطوي تحته معاذير وأسباب كثيرة تظهر على مسرح بلاده السياسي والاجتماعي في شكل فتن وغزوات قبلية ومصارعات بين السكان وصنوف من الأهوال بدافع عصبية الدم والعرق ـ أو عصبية الفكر والرأي.

لم تكن البلاد الليبية في حالة استقرار من ناحية المعاش. . أو من ناحية الوضع الإداري والسياسي والفكري. . أيضاً. . في هذا الجو المشحون بالقلق والاضطراب والهزات رغم كل هذا يجلس أحمد بن عبد الواحد الشماخي في حضن جبل نفوسة على حصير بال. . أو نطع مهترىء ليكتب في التاريخ العلمي كتاباً ضخماً في سير أهل المذهب الأباضي. . وتتبع تاريخ رجاله. . واقتناص تراجمه.

وفي هذا الصنيع دلالة على معانقة فكرية.. واتجاه علمي.. يشكر عليه الرجل شكراً قد لا ينفعه..

فما كان يبحث عن نفع خاص في حياته..

فكيف بعد أن انطوت صفحة عمره، وأننا نرى أقواماً في بحبوحة ورغد من العيش لا يكلفون أنفسهم عناء قراءة الكتاب.. أو تصفحه.. فضلاً عن تأليف كتاب أو تحبير دراسة.



نصوص من كتاب تاريخ البهلول

وهذا كتاب من كتب التاريخ التي ألفها كاتب ليبي وفقدت.

والكتاب ألفه البهلول وكان الكتاب موجوداً في المتناول في عصر ابن غلبون.. وعنه نقل بضعة نصوص وأشار إليه في أكثر من موضوع (قال حسين بن أحمد) وكانت النسخة التي طالعها ابن غلبون بخط المؤلف المؤرخ حسين بن أحمد البهلول.. فهو يشير عند إثبات النص منه قائلاً.. (..فيما كتب ومن خطه نقلت).

وكانت أكثر نقولاته منه فيما يتعلق بالوالي العثماني عثمان السافزللي.. والبهلول من الأسر العلمية كما أشرنا في هذه الدراسة وكان المؤرخ على ما يبدو هو ابن الشاعر الأديب العالم البهلول الكبير..

وهناك نص في القصيدة التي مدح وتشوق بها لطرابلس بلده شاعر أديب كان مهاجراً بمصر بالأزهر.. برواق المغاربة هو أحمد حسين بن محمد أحد أدباء طرابلس ويشير هذا الشاعر الأديب أثناء هجرته إلى جده المؤرخ والأديب..

هو الوالد الأسمى فلا زال كاسمه   حسين أخو الحسن لأحمد ينتسب

إمام من الإسلام أحيا مآثرا   ومن قبله البهلول ذي الفخر والنسب

فيا فالق الأصباح والحب والنوى   فمد له عمراً طويلاً بلا وصب

فقد كان موجوداً على قيد الحياة عندما كان ابنه بمصر وأرسل إليه هذه القصيدة تشوقاً. إذاً هناك . .

● أحمد بن حسين البهلول الكبير صاحب القصيدة والمدايح النبوية والمؤلفات الغزيرة . .

● حسين بن أحمد البهلول صاحب التاريخ المفقود الذي نقل عنه ابن غلبون.

● أحمد بن حسين البهلول ـ من أدباء طرابلس صاحب القصيدة التي أشرنا إليها.

طرابلس الغرا ترى لي عودة   إليك وهل يدنو الذي كان قد ذهب

وهذه نصوص تاريخية احتفظ لنا بها ابن غلبون في كتاب التذكار.

(. . قال حسين بن أحمد فيما كتب في شأنه كان عثمان هذا داهية حازماً له من الرأي والتدبير وكتمان السر ما لم يكن لغيره.

كان إذا ورد عليه كتاب قرأه بنفسه ثم وضعه في جيبه وإذا أمر بكتاب كتب ثم عرض عليه فقرأه بحيث لا يستطيع أحد الزيادة عليه.

وكان ذا مكر وخداع لا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة ولما عقدت له البيعة رآه بعض الأعراب مشرفاً من أعلى برج القلعة قال:

الآن استراحت الأعراب واطمأنت وحق لها السرور حيث سجن هذا الرجل نفسه.

فقال من سمعه، الرجال كثير غيره يقومون مقامه قال: ما أظن أحداً يقوم مقامه . . هيهات . . . هيهات أن يكون أحد مثله . .) قال البهلول . .

(. . ومن عظيم ظلمه الفاحش أنه كان إذا باع أحد الشركاء عقاراً ولو جزءاً لا يتجزأ غرم البائع وغير البائع مكس العقار كله ولو بيع قيراط واحد أخذ

صاحب المكس مكسه كله ممن باع ومن لم يبع وربما كان من لم يبع يتيماً. . أو أرملة فظلمهم بأخذ المكس، وهذا شيء لم يسمع به في ملة من الملل فلذلك كان المكس آولاً ثلاثة من المائة فترقى إلى أن بلغ مكس العبد عشر ثمنه وأكثر ولم يزل يترقى في المكس بسبب ذلك إلى أن بلغ استلزام البائعين أربعة وعشرين ألفاً بعد أن كان ألفي ريال وخمسمائة) اهـ.

ولعل البهلول أفاض أكثر في مظالم هذا الوالي الذي كانت ولايته أربعة وعشرين عاماً . . . والذي انتحر بالسم بعد محاصرة الشعب له وثورتهم عليه. . وكان ذلك في عام 1083هـ.

ومن النصوص التي ساقها ابن غلبون عن البهلول:

قال البهلول (. . وكان نظرهم في ذلك أن الرجل منهم إذا مات وترك أولاداً صغاراً أكلوا ملكهم بلا خراج حتى يبلغوا مبلغ الحلم وليس عليهم حرج في ذلك فإذا بلغوا حسب رقابهم وأدوا عليها ما كان مفروضاً. . وإذا أراد الرجل النقلة باع ملكه بأعلى قيمة لسلامته من الخراج فهذا نظرهم الذي لم يره عاقل إلا استقبحه لشبهه في الصورة بالجزية. . بل هو أخوها. . أو هو هي. .

فلم يزل عثمان يحتال عليهم إلى أن أحصى نخلهم كله وفرض على كل نخلة قرميلا ونصفاً نكالاً لهم وأبقى رقابهم ملزمة بما كان مفروضاً عليها ومفروض النخلة في غيرها قرميل سنوياً لا غير. .

فضعف بذلك أهلها وتفرقوا في الأوطان شغر بغر (1 هـ ص124 ـ التذكار، طبعة أولى). (التذكار لابن غلبون).



عبد السلام بن عثمان التاجوري

وكتابه الإشارات

كتاب صغير الحجم، محدود الصفحات. على شكل رسالة موجزة. .

ألف هذا الكتاب عبد السلام بن عز الدين بن عثمان، الذي ينتمي إلى الصوفي عبد السلام الأسمر والكتاب أو الرسالة هذه تدخل من باب الدراسات التاريخية عن طريق الاهتمام بالآثار. . . والمزارات والأضرحة.

فالكاتب كان مهتماً كل الاهتمام بالأماكن وتحديد المزارات والتعريف الموجز المقتضب بالأولياء من أصحاب هذه المزارات. .

وأحياناً يكتفي بالإشارة إلى المكان وتحديده ومجرد ذكر اللقب أو الاسم لصاحب المزار. . والدافع إلى تحرير كتابه هذا هي المشاعر الصوفية والغيرة على تراث بلده من ناحية آثارها ومساجدها. . وأضرحة الأولياء وأهل التصوف. .

وموضوعه هذا الذي شغل حيزاً من تفكيره. واستولى على مشاعره وأحاسيسه قد يهم أيضاً متخصصين من أهل الإختصاص من الذين يريدون رسم خريطة البلاد في تلك الآونة. . أو الذين يريدون دراسة تاريخ التصوف وحركات المد الصوفي. . ويهم الذين يبحثون عن المزارات وأضرحة الأولياء وأماكن وجودهم لكن من جوانب أخرى في ثنايا الكتاب ـ رغم إيجاز إشاراته وصغر

حجمه.. رغم هذه الهنات والمؤاخذات.. رغم الإيجاز الذي لا يدخل في الإيجاز البلاغي ـ تجد في سطوره.. لقطات.. ولمحات.. تحتاج إلى انتباه المتأمل.. وعين الدارس الفاحص. ومن جانب آخر أيضاً.. هي لمحات وإشارات قد تنفع الباحث الدارس والمتأمل الفاحص وتفيد المؤرخ المتتبع لمثل هذه الموضوعات التي يجد فيها ما يصلح للاستنباط أو المقاييس أو الدراسات الاجتماعية هو لون من الاتجاه الفكري في بعض الملابسات والأحوال..

وهذا لا يلحظه أو لا يجده من يقرأه القراءة العابرة السريعة..

والمؤلف عبد السلام بن عثمان عندما يهتم بذكر الصالحين والأولياء.. هو يمثل صورة من الاهتمام الذي كان سائداً في تلك الظروف..

حيث غلبت روح التصوف والروحانيات والغيبيات على الاتجاه العلمي.. وحيث وجد التصوف مناخاً وحيث وجد المتصوف اهتماماً من العامة والخاصة لا في حياتهم فقط.. بل حتى بعد الممات.. وما الاهتمام بالمزارات على هذا الشكل إلا صورة من هذا الاهتمام الذي جعله يبحث عنهم ويسجل أماكن مزاراتهم بشغف وحب وتقديس.

وهذا الجو الخصب للصوفية ومن ينتسب إليهم حتى نسبوا إلى أحمد زروق قوله... (إن الزاوية والفواتير تنتج الأولياء كما تنتج الأرض الطيبة الزعفران).. كانت أرضاً ومناخاً.. وظروفاً اجتماعية وسياسة خصبة كل الخصوبة لاتجاه التصوف.. والتزهد والتعبد.. في الواحات. والقرى وعلى السواحل والشطوط.. والابتعاد كل الابتعاد عن صخب الحكام ومصاولة الحاكمين.

وإن كان هناك جانب مهم في مثل هذه الأجواء لا يصور نوعاً من السلبية والهروب.

بل يؤكد نوعاً من المواجهة والمصارعة.. ولوناً من ألون الفروسية والجهاد المقدس..

يصور ويؤكد هذا كثرة من المزارات والأضرحة للأولياء والمتصوفة على

شط البحر. . على الساحل هي في الواقع أماكن لرباطات. . وثكنات للمجاهدين والرباط موطن الجهاد. . وكانت عيون هؤلاء الزهاد المتعبدين، عيوناً فاحصة. . وأيديهم على الزناد تجابه الغزاة والقراصنة ولصوص البحر من أوروبا وما وجود مثل هذه المزارات في شط طرابلس مثل الشعاب وعبد الجليل والهدار. . والمصري. . والأندلسي. . وأيضاً أبو شعيفة بقصر أحمد بمصراته وفي ناحية زواغة وعند زوارة من المنطقة الغربية. . وغيرها. ما هي إلا رباطات إسلامية للدفاع عن البلاد وحماية الثغور الإسلامية من اعتداء القراصنة ولصوص النصارى والوافدين من أوروبا. .

وهو جانب كان يجب أن يهتم به مؤرخو الصوفية بدل الإغراق في ذكر الكرامات. . وخوارق العادات وتوارث حكايات الأساطير التي أحياناً إذا وضعت في ميزان المنطق العادي. . ومقياس الفكر المجرد ونصوص الشريعة الغراء. . ترفض بهذا المنطق وبهذا الفكر. . وبهذا النص. .

ترفض أو تستهجن في كثير من الحالات والأحايين وهذا المؤلف عبد السلام بن عثمان كرجل نشأ في جو صوفي ومحيط صوفي وأسرة صوفية.

كان بطبيعة تلك الأحوال وحتمية هذه المناخات والملابسات. . أن تكون لها تأثيرات قوية على تصوراته الفكرية. . ودوافعه الخفية والظاهرة وهو بإحساس صادق نابعٍ من تخوف على الضياع والاندثار. لتاريخ وتراث بلده. . يشير قائلاً:

(. . لم أر من تعرض لذكر صالحيها إلا التجاني في رحلته. . والشيخ الخروبي في بعض تآليفه ذكر شيئاً يسيراً).

وهذا الاهتمام من عبد السلام بن عثمان جعله لا يكتفي بما أورد هذان. . الرحالة التونسي والصوفي المؤرخ الليبي. . . وإن كان التجاني عندما أقام عاماً ونيفاً بطرابلس اهتم بالعلماء والحياة العلمية أكثر والخروبي اهتم بالصوفية وذكريات أسرته وأساتذته وطرق التهذيب والتربية أكثر. . فهي ذكريات عائلية

وشخصية. . كما أشرنا في الفصل الذي عقدناه عن كتابه. . وهنا حتى عبد السلام بن عثمان لم يذكر لنا اسم وعنوان كتاب الخروبي ـ وهذا قد يدل من ناحية على أن كتاب الخروبي بلا عنوان ـ وقد أشرنا إلى هذا في صفحات سابقات.

ثم يعلل عبد السلام بن عثمان هذه الظاهرة أو الحالة. بقلة الكتب التي تسجل الآثار والمزارات في طرابلس وضياع الكثير من هذا التراث ويرجعها إلى سبب جد معقول. . ومنطقي. . . وليته أفاض بشيء من التفصيل. . ويشير إلى ما علل الرحالة العياشي سبب هذا الاندثار وندرة أو قلة أخبار تواريخ الأولياء والصالحين والتعريف بأماكنهم. . كيف ضاعت واندرست هذه المزارات.

(. . إن البلد حديث عهد بكفر قد تداولته أيدي الأعداء غير مرة).

وهذا يجعلنا نَتحسّر على ضياع المكان الذي كان به العالم اللغوي الأديب أبو إسحاق، إبراهيم الأجدابي. . فقد بحثت عنه طويلاً في مدينة طرابلس بدون جدوى مع أنه جدير بالاهتمام كعالم لغوي له شهرته في كل الآفاق والبلدان. .

إن هجمات الغزاة واعتداء النصارى على البلاد من نورمان وإسبان ومالطيين وفرسان القديس يوحنا ونابولتان وغيرهم ـ قبل ضياع الأندلس وبعدها ـ قد ضيع الكثير من آثار البلاد. . والمزارات والرباطات. والمدارس الدينية. . والمؤسسات والأضرحة. . بل حتى المساجد والكتب وبالتالي مؤكداً. . أضاع كثيراً من مصادر التاريخ العلمي والمعمار والفن.

وهذه الموجات البحرية والبرية جنت على الآثار والمباني وهي نقطة هامة جديرة بالتأمل والمقارنة.

ومن هنا. . أراد عبد السلام بن عثمان بدافع من حسه الصوفي وغيرته الدينية والوطنية أن يتلافى هذا النقص. . ويسد هذه الثغرات بالتعريف والإشارة وهو متواضع يعرف أنه لا يقدم دراسة مستوفاة مستقصاة. . بل مجرد إشارة. . وهو يشير بذلك في عنوان كتابه. (الإشارات). مجرد إشارة. . وبعدها لك أن تأخذ من هذه الإشارة خط المسير إن لم يتعبك الطريق.

ويبدو أنه كتب رسالته وسطر معلوماته من الذاكرة ولم يكن بجواره من يمده بالمصادر والمراجع وإن كان قد سبق له أن اطلع على عدد منها. . كما أشار إلى التجاني. . والخروبي. وإضرابهما.

وأما تحديد المكان فمن معلوماته التي اعتمدت في الغالب على الزيارة والمشاهدة. . أو السماع والمشافهة ويبدو أنه قام بعملية مسح لكثير من المزارات لا لجميعها. . وإن كان قد اكتفى بجولة إلى حد الزاوية الغربية وما بعدها بقليل.

ولم يعرج على مزارات نفوسة لأكثر من دافع وسبب. . ويقول (. . فأردت مستعيناً بالله أن أذكر في هذه الأوراق من حضرني في الوقت معرفاً بموضعه. ذاكراً له على سبيل الاختصار شيئاً ما بلغني عنه).

ويلاحظ في هذه الجملة نقاط.

حضرني في الوقت = فهو يكتب من ذاكرته.

معرفاً بموضعه = فهو مهتم أكثر بالمكان وتحديده. .

سبيل الاختصار = لدافع ظروفه أو قلة المراجع والمعلومات.

شيئاً ما بلغني عنه ـ يتصل بالكرامات. . وخوارق العادات وهي في غالبها مرويات تموج بها مثل تلك المجتمعات وترويها الجدات والأجداد. . ومجالس العلماء أحياناً.

وهو أيضاً بدافع المشاعر الصوفية وروح التبتل لا يريد من تأليف رسالته هذه التي خصها بالمزارات. . لا يريد إلا. .

(عسى أن تقع بين يدي محب لأوليائه متعطش لهم فتحصل لي منه دعوة صالحة ننال بها في الدارين إن شاء الله صفقة رابحة. .).

وكان عبد السلام بن عثمان من أصحاب وتلامذة الشيخ ـ أحمد المكني ـ ويخص بها الدعوة الصالحة (شيخنا وبركتنا أبا العباس السيد أحمد المكني. . حفظه الله). اهـ.

ولأن هذا الشيخ كان يحب الأولياء وسيرهم. . والصوفية وتاريخهم وكان عبد السلام بن عثمان يقدر هذا الأستاذ الشيخ غاية التقدير والاحترام.

وقدم بعض الكلام على فضل الزيارة وشروطها مما تنوء به كتب الأولياء والمتصوفة وأهل المناقب والتراجم مما عرف بالأدب الصوفي. .

واعتمد في كتابه أو رسالته على ـ وصية ـ عبد السلام الأسمر. هذه الوصية التي قامت بدور كبير في الأدب الصوفي والمحيط الشعبي في ليبيا مما كان له تأثير على كثير من الناس منذ القرن العاشر الهجري.

وهي وصية فيها كثير من الآداب الشرعية ولا تخلو من بعض شطحات أو بعض التنبؤات بالحوادث والوقائع حتى أن بعض العامة يقولون. . إذا حدث حادث أو وقعت واقعة. . ـ قال ـ كيف ما قال عبد السلام في الوصية: وليس هنا موضع تحقيق أو دراسة هذه التأثيرت والمقولات إنما في حيز خاص هنا نشير إلى أن ـ الوصية. . كانت من مراجع ومعتمدات كثير من الكتاب والمهتمين بالصوفية والتصوف.

كما اعتمد عبد السلام بن عثمان على الرحالة المغربي ـ بن ناصر الدرعي. .

واعتمد على ـ السلسلة ـ ومقطوعات عبد السلام الأسمر المشهورة التي كان ينظمها مستغيثاً بالأولياء في بلاد طرابلس وبلدان العالم الإسلامي. . من معاصرين وغير معاصرين. . وهي مشحونة بأسماء عديدة من أولياء طرابلس.

وقد بدأ المؤلف بالإشارة إلى مزارات من كان بداخل مدينة طرابلس. . مبتدئاً بمزار ـ سالم الشماط ـ في باب البحر. . . ويحدد المكان. .

ـ «قبره بداخل المدينة مما يلي ساحل البحر ـ ولم أر من ذكره غير أن الشيخ يكثر من الإشارة إليه في مقطعاته المشهورة بالسلسلة. .». اهـ.

والتي كان يذكر فيها أسماء عديدة من الأولياء والمتصوفة منادياً مستنجداً متوسلاً. أثناء محنته وسجنه واعتقاله. .

وأشار إلى ـ عبد الوهاب ـ ومزاره بالسور في فم باب البحر وهو عبد الوهاب القيسي الذي ترجم له ابن غلبون والنائب، وأشار عبد السلام بن عثمان إلى كتاب كان قد جمع فيه عبد الوهاب. . مراثيه ـ جمع رؤيا ـ ويؤكد لنا أنه رأى وشاهد نسخة منه في خزانة شيخه وصاحبه الشيخ أحمد المكني.

وعند ذكر سيدي يعقوب بباب البحر يقول:

(. . أخبرت أن سيدي يعقوب دفن بالمغرب فلعل هذا ابنه وبه كني. . والله أعلم).

ويبلغ به حد الإيجاز عند ذكر الاسم فقط فيقول:

(وسيدي الهدار).

ويكتفي بهذا. . لا يضيف شيئاً. . ولا يفيدنا بشيء بل ليته ذكر لنا حتى الاسم كاملاً. . أو في أي عصر كان.

(وسيدي عمران الذي في وسط السور الغربي من ناحية العيون). . وهذه الإشارة بهذا التحديد للمكان تفيد من يريد أن يرسم أو يتعرف على خريطة مدينة طرابلس في تلك الآونة.

ومن النقاط أو الإشارات التاريخية الهامة عندما أشار إلى عبد الله المكني وهو جد صاحبه أحمد المكني وبينهم نسب ومصاهرة. . وكان الجد المكني من العلماء الأخيار وذكره الداري في سفرته التركية وهناك نص له ودلالته وقيمته.

«وبه ـ أي بالشيخ المكني ـ حمى الله مدينة طرابلس من يحيى الشقي الذي ادعى أنه خديم الفاطمي.

واتبعه جل أهل طرابلس وكان سفاكاً لدماء المسلمين.

قتل من الأشراف في ساعة واحدة ما يقرب من العشرين.

كان هو الذي قتل سيدي عمران بن الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر فأهلكه الله ـ أي بعد قتل الأشراف وسيدي عمران بقليل.

وكاد أهل طرابلس أن يصدقوه في دعاويه الكاذبة ويفتحوا له الباب لولا ما منعهم سيدي عبد الله المذكور). اهـ.

ويحيى هذا أو يحيى السويدي أشار إليه ابن غلبون وغيره وهو الذي هجم على مدينة طرابلس وادعى أنه من طرف الفاطميين، وقتل كثيراً من المواطنين. وقاومه الشعب هنا بقيادة الشيخ عبد الله المكني..

إشارة صغيرة وردت على لسان عبد السلام بن عثمان وهي صفحة تاريخية تحتاج إلى مزيد من البسط والدراسة وهي إشارة من أنواع المفاتيح لمن أراد مزيداً من الاستقصاء والبحث. ولعلها من فوائد هذه السطور المقتضبات التي قيدها عبد السلام بن عثمان في كتابه الإشارات، ويشير إلى سفر عبد الله المكني إلى إسطنبول واستنجاده بالسلطان العثماني خليفة المسلمين وجاء منه بجيش في البحر وقاتل يحيى السويدي دعي الفاطمية حتى تغلبوا عليه في أواخر القرن العاشر الهجري وهذه الإشارة تؤكد أن أبناء طرابلس استنجدوا أكثر من مرة بإسطنبول... ولم يكن استنجادهم في مدارج التاريخ مرة واحدة..

لقد استنجدت طرابلس بإرسال وفد من تاجوراء وأنقذ العثمانيون المسلمون طرابلس من براثن فرسان القديس يوحنا وتسلط الصليبيين.

وها نحن نكشف هنا إنقاذ طرابلس بوفد برئاسة عبد الله المكني.. هذا الوفد الشعبي كان في أواخر القرن العاشر وأيضاً استنجدت طرابلس مرة أخرى بإسطنبول في أواخر عهد الأسرة القره مالية.. أيضاً كان مطلباً شعبياً من طرابلس.. وهذا يؤكد أن الدولة العثمانية في عصرها الإسلامي كان مجيئها إلى شاطىء طرابلس إنقاذاً وبرغبة شعبية ولم يكن احتلالاً كما يدعي بعض من كتبه العرب في المشرق خاصة... من غير المطلعين على الأحوال والملابسات وظروف تلك المراحل. خاصة في بلاد المغرب الإسلامي وشمال إفريقيه بالذات.

وفرق كبير بين ظلم واستبداد وغطرسة وجهل بعض الولاة العثمانيين في أساليبهم وبين عملية الاستنجاد والإنقاذ أيام طرغود ومراد وأيام عبد الله المكنى ووفده الشعبي.

وسيدي حمودة وكان مسجده في وسط ميدان الشهداء بمدينة طرابلس. .
ولكنه كان مقبرة في عصر صاحب المزارات وكان بإزاء المدينة خارج سورها. .
وهو لم يكن معاصراً للمؤلف صاحب الإشارات ولكنه يقول لنا ـ إنه رأى من رآه.

وليس المهم هنا هذه المعاصرة أو تلك المشاهدة والرؤية إنما ما كان أثبته المؤلف من أن سيدي حموده كان ضحية فتك به اليهود ومكرهم في طرابلس مما يدل على تلاعب اليهود وتقريبهم من الحكام حتى في تلك الأوقات البعيدات.

سيدي حمودة كان صوفياً ينفر من اليهود غاية النفور وإذا اجتمع بهم ضربهم بما وجد حيث كان، حتى أنهم اشتروه من الأمير حينئذ بدراهم كثيرة وقتلوه. . هي مأساة من مآسي دهاليز التاريخ. صوفي ينفر من اليهود في بلده لتلاعبهم وتدخلهم في شؤون البلاد والمجتمع. . فما كان منهم إلا أن دبروا له مكيدة وبذلوا المال ورشوا الأمير الحاكم وقتلوا الصوفي الدرويش. . هي مأساة لها أكثر من جانب.

يشير إليها صاحب الإشارات إشارة تحتاج إلى أكثر من وقفة تأمل وإدراك. . لما وراء الظواهر والوقائع في محيط ذلك المجتمع.

ومقبرة الشعاب وهي شرقي المدينة على شاطىء البحر تلك الروضة ذات الطابع الإسلامي المميز. ولم يقدم لنا شيئاً جديداً أو مفيداً عن صاحبها الصوفي المرابط. . واكتفى بالقول بأنه ـ عبد الله الشعاب ـ وهو من الأقدمين ثم أحالنا على رحلة التجاني. .

مع أن ربوة الشعاب كانت رباطاً من رباطات المسلمين وكان الشعاب جندياً مقاوماً وصوفياً جديراً بالوقوف عند سيرته ولكن أين المصادر. . والمراجع التي أكتنفها وأكتسحها ما أكتنف وأكتسح كثيراً من آثار البلاد وتراثها ويفيدنا المؤلف بأن روضة الشعاب بها الصوفي المجاهد سليمان ـ أبو أولاد سليمان السبعة جدود الفواتير وقبر أحد أولاده.

هذان. . . الأب سليمان. . . وولده. . كانا قد نالا شرف الاستشهاد وهما يجاهدان ويصدان غزو النصارى عندما اقتحموا موانىء وشواطىء طرابلس.

وهذا يدل على أن الصوفية وأصحاب هذه المزارات لم يكونوا غالباً من دعاة الهروب والسلبية بل هم يحملون السلاح ويجاهدون في سبيل الله والوطن. في مقبرة الشعاب كثير من مزارات المجاهدين الذين كان لهم موقف بطولي لصد غزو البحر. . ومجاهدة النفس أيضاً. .

لقد كان نضالهم عملياً. . ولم يكن مجرد تجرد روحي. . . وهي أيضاً من المواضيع التي تحتاج إلى وقفة أطول ونظرة دارسة فاحصة. .

ويشير الكاتب عبد السلام بن عثمان قائلاً.

كأنه يجيب على تساؤلاتنا. . ورغبتنا هذه قائلاً:

(. . . وقد عرفت بالشيخ سليمان وأولاده بعض تعريف في غير هذا التقيد. .).

ما اسم هذا الكتاب. . . وهذا التقيد! متى كتبه. . لعله يقصد بكتابه فتح العليم ـ الذي خصه بترجمة عبد السلام الأسمر وسلالته ويدل على أن تأليفه هذا الكتاب سابق على تأليفه للكتاب الذي خصه بالمزارات والأضرحة.

وعندما يشير إلى مزارات ساحل مدينة طرابلس يبدأ بمزار الشيخ ـ ابن خليف ـ في المنشية وضاحية المنشية الآن داخل مدينة طرابلس من ناحية شارع بن عاشور.

ويذكر أيضاً ـ عبد الله المصري ـ خارج المنشية بنحو نصف ميل.

ولم يحدد الزمن الذي عاش فيه ـ عبد الله المصري ـ إنما اكتفى بأنه من الأقدمين. . وأنه قد ذكره عبد السلام الأسمر في سلسلته وإن صاحبه وشيخه ـ أي المؤلف هذا ـ أبو راوي ـ كان يعظم سيدي المصري كثيراً.

وقد ذكر لنا اسمه. . على أن الناس تكتفي بكلمة سيدي المصري. .

ولكن ها هو يثبت لنا اسمه ـ عبد الله المصري ـ وكان الناس يظنون أنه من أولاد الأسمر ويضفون حكاية غريبة لوجوده أو نفيه هنا ككرامة للشيخ الأسمر . .

ولكنه سابق عليه . . . متقدم عنه في الزمن كما أكدت الإشارة هنا . . وأكدت مقتطفات الصوفي عبد السلام الأسمر .

* * *

ويشير إلى مزار ـ الهاني ـ .

وهذا المكان الذي اشتهر بكبرى المعارك في الجهاد ضد الطليان . . معركة الهاني . . التي دارت رحاها في هذا المكان .

(. . وقبة الهاني على قارعة طريق الحجيج وهو من مشايخ أركاب المغاربة) .

هذه فائدة تاريخية يذكرها لنا المؤلف . لكنه يشر إلى عصره . حتى أن بعض الناس التبس عليهم الأمر . . بين موقع الهاني وابن هانيء . .

بل إن الشاعر رفيق المهدوي قدم سؤالاً وطرح هذا في مجلة ليبيا المصورة .

ويأتي جواب التساؤل هنا واضحاً ـ إن هذا المزار وهذه القبة لشيخ مغربي من أشياخ ركب الحجيج . . وقد قامت قوافل الحجيج بدور في تاريخ الرحلات والصلاة العلمية والتاريخية .

ويشير إلى منطقة الهنشير : روضة ـ محمد الصويد ـ وولده عبد الحفيظ الصويد وهو المشهور بالصيد وكان مزاراً يلجأ ويحتمي به الناس من عنت الحكام ولا يمكن القبض على من احتمى به ـ كان عرفاً وقانوناً سائداً كما تحكي وقائع التاريخ في عصور متأخرة .

ويشير صاحب الإشارات إلى أن الشيخ الصويد أصله من أولاد رقيعة الأعراب وكان في ابتداء أمره من الجند المعروفين بالصبايحية وهو تعبير دارج

في طرابلس وتونس وشمال أفريقية.. ويقول المؤلف بأن الصبايحية هم أشر الجند وكان محمد الصويد من سلك هؤلاء ثم تاب الله عليه وقذف في قلبه نور الهداية.. على يد الشيخ البصير نزيل غريان.. وكانت المرتبات للجند يفرضها الحاكم على مناطق وبلدان على شكل مقطوعات وأتاوة..

وعندما بعثه الأمير الحاكم ليأخذ هذا الجند الصبايحي مرتبه من البلاد والمناطق الشرقية بطرابلس ومعه جماعة من الجند الصبايحية مروا بالقرب من الشيخ سالم المهدوي.. بأرض زليطن.

وعرج لزيارة هذا الشيخ الصوفي مع جماعته وصحابه من الجند.. وامتنع الجند.. وخالفهم وقصد زيارة الشيخ سالم المهدوي.

وكان لقاء وحوار... وانتقل من ضفة إلى ضفة إلى ضفاف الإشراق والشفافية..

من شقوة الظالم.. إلى شفاء النفس ولا عجب كم من نقلات هدت هؤلاء إلى طريق الصواب وجادة الحق.. وعلى حد تعبير المؤلف. (..نزع الله من قلبه محبة ما هو فيه من ذلك الوقت ورجع من عند الشيخ.. وترك ما هو قاصد له من المرتب واعتزل الدنيا وأسبابها.. وأقبل على الخلوة والعبادة وانتفع به الناس.. وخصوصاً في الشفاعة.. لأن أرباب الدولة يعرفونه... فلما أعتزلهم وانتسب إلى طريق الله اعتقدوه.. وصاروا لا يردون عليه شفاعة وحصل له من الجاه ما انتفع به الناس). اهـ.

وتوفي عام خمسين وألف (1050هـ).

وأما ولده عبد الحفيظ عرف به العياشي في رحلته ذهاباً.. وإياباً.. وتوفي في عام سبع وثمانين وألف (1087هـ).

* * *

وكما أنقذ الأتراك المسلمون البلد من براثن القراصنة والغزاة النصارى... بطلب من الوفد الشعبي الذي ذهب من تاجوراء.. إلى إسطنبول

يشير المؤلف عند كلامه على مزارات تاجوراء إلى حادثة تاريخية وواقعة عانت منها البلد من ظلم واستبداد بعض الولاة الأتراك.

وقد كان بعض المتصوفة يعاني من جور بعض الطغاة وفرق بين الفترة التي أنقذ فيها سلطان المسلمين وأمير المؤمنين البلد وفرق بين بعض ـ من الولاة الطغاة الذين جاروا واستبدوا سواء من الأتراك أو غيرهم. ولا تزر وازرة وزر أخرى..

وكان هناك مزار (أبو بكر التاجوري من أكابر الصالحين وله كتاب كرامات رأيته عند ذريته فاهتمام المؤرخ الكاتب بما قيده المتصوفة وسجلوه من رؤيا منامات صالحة من ألوان الكرامات وخوارق العادات قد يعطي صورة عن محيط مجتمعه الفكري هبوطاً وارتفاعاً..

وليته سجل لنا بعض الكتب العلمية والأدبية التي بصورة مؤكدة لم تكن البلاد خالية منها كل الخلو كما صنع غيره مثل التجاني وابن ناصر عندما أشارا إلى بعض الكتب والدروس.

ولكن جانب اهتمام عبد السلام بن عثمان هو التصوف سواء من ناحية الممارسة العملية أو الكتابة التاريخية ذات الصبغة المنقبية.

وفي هذا قد نجد جوانب من حياة المجتمع ونمطاً من السلوك الاجتماعي والتفكير.. وتغلب الجانب الغيبي في الممارسة والتناول لكثير من القضايا وتهمنا إشارة.. ذات دلالة تاريخية عندما قال:

(.... له كتاب كرامات رأيته عند ذريته فيه عجائب ولما أن هدم الترك البلد لم يتركوا من مساجد البلد إلا زاويته ومسجداً آخر.

أو ما بنته السلطنة كالجامع الأعظم والمدرسة). اهـ.

إذاً هدمت آثار ومدارس ومساجد مع أن تاجوراء كانت منطقة عامرة بهذه الآثار والمخلفات العلمية والمعمارية ولم يسلم من معاول الهدم في تلك الفترة

التي أشار إليها سوى مسجد تاجوراء ومدرسة وما بناه الترك.. كارثة.. ومأساة.. في موجة عاتية.

وما أكثر ما تحملت ليبيا من كوارث ومآس في عصور التخلف ويقصد بالجامع الأعظم والمدرسة جامع مراد آغا والمدرسة التي تم بناؤها...

وهناك نقطة يشير إليها عند الإشارة إلى أبي بكر التاجوري (.. وعلى زاويته أوقاف كثيرة أكلها بعض ذريته.. ولم يصرفوا منها شيئاً في مصارفيه وتركوا الزاوية سائبة لا ينتفع الخلق منها بشيء فإنا لله وإنا إليه راجعون ـ وعسى ببركته أن يقيض لها من يعمرها وقد تسببت في عمارتها بما أمكنني فلم يتيسر لي إلى الآن). اهـ.

إن الجناية على أوقاف المدارس والزوايا والمؤسسات العامة ظاهرة بل جريمة يتألم لها كل غيور وقد سجل عبد السلام بن عثمان حسرته وتألمه لما وصلت إليه بعض المؤسسات والأوقاف في تاجوراء في عصره في القرن الحادي عشر الهجري..

ويشير إلى أن في تاجوراء مزاراً لشيخ يسمى أحمد البهلول وهو غير الشاعر الأديب العالم المؤلف أحمد البهلول الذي يجاور مزاره المنيذر الصحابي وهذا يدل على أن هناك أكثر من أحمد بهلول... وما أكثر بهاليل طرابلس.

وعند الإشارة إلى زاوية الحطاب بتاجوراء قرب البلد من المشرق وهو من مشايخ الخروبي يشير عبد السلام بن عثمان.. قائلاً (لقد عرف به وأطال ترجمته حتى كادت أن تكون أكثر من ترجمة الشيخ زروق).

وحسناً ما صنع الخروبي من إطالة الترجمة نسبياً للحطاب لأن الإمام زروق غني عن التعريف وهناك أكثر من كتاب ودارس اهتم به في المشرق والمغرب بينما الحطاب سواء الكبير أو الصغير والحفيد أو الجد ما زال في حاجة إلى أكثر من دراسة وترجمة.

وما قدمه الخروبي في اهتمامه بالحطاب هو موطن شكر لا موطن تساؤل

في المقارنة بين الطول والقصر في الكتابة والترجمة، وعند ذكر مزار الأندلسي ـ يذكر اسمه ـ محمد الأندلسي. ولا يذكر لنا وفاته. . أو جوانب وفيرة من حياته مع شديد الحاجة إلى معرفة هؤلاء في ساحة التاريخ الصوفي ورحلات الهجرة والاغتراب.

ولقد كان الأندلسي هذا موطن اهتمام المتصوفة وقال أحدهم وهو أبو راوي. .

(لو يعلم أهل تاجوراء قيمته لبنوا ضريحه بالفضه) ولا شك أن محمد الأندلسي كان من نمط الجند المتطوع لحراسة الشواطىء من الغزو البحري من طرف النصارى القادمين من أوروبا. . إنه مناضل مرابط. . مثل الشعاب وعبد الجليل في طرابلس. . . وأبي شعيفة في مصراته وغيرهم من الذين اتخذوا أماكنهم للعبادة والدفاع عن شطوط البحر. . ولعل في هذه الإشارة دلالة.

(أبو راوي يقول إذا ذكر عنده الخوف من النصارى على تاجوراء. . . هذا لو لم يكن يسكن الأندلسي على البحر). اهـ.

وقالها بطبيعة الحال بعد وفاة الأندلسي ولكن فيها دلالة ولاسيما أن الشيخ الأندلسي كان في حياته وأثناء وجوده جندياً مرابطاً. . . بكل معنى الرباط. .

ومن الكتب الضائعة التي نعثر على أسمائها ولم تصلنا. . هذا الكتاب في مناقب الشيخ محمد الأندلسي والذي أشار إليه عبد السلام بن عثمان في رسالته هذه وأكد لنا أن هذا التأليف رآه صاحبه الشيخ أبو راوي.

ثم يجد المؤلف بن عثمان في كتابه هذا فرصة عند الإشارة إلى مزار الأندلسي ويهتم بموضوع الأوقاف التي أُنْتُهِبَت وضاعت (. . . . وقد أوقف على مقامه من العقار أوقافاً كثيرة للواردين عليه وثلاثمائة وستين نخلة على عدد أيام السنة).

لقد كانت الثروة الزراعية مهمة في البلاد بل هي عماد الاقتصاد، وأين ذهبت هذه الأوقاف. ويقول عبد السلام بن عثمان في حسرة (. . . فتولى ذلك

أناس أكلوه ودمروه وجعلوه ملكاً من أملاكهم يتوارثونه ويضربون فيه الفرائض وباعوا بعضه حتى لليهود.. واستعانوا به على شرب الخمر والدخان وغيرهما من القبائح.. نسأل الله العافية). اهـ.

هذه صورة فئة من الناس لا خلاق لهم..

فلم يكن بطبيعة الحال المجتمع كله متصوفاً طاهراً.. بل هناك لطعات من القبح والرذائل. وهي صورة من تصرفات يسجلها المؤرخ في الطباع والعادات أو وثيقة اجتماعية.. هؤلاء أكلوا الأوقاف وباعوا الأوقاف حتى لليهود.. و.. الخ..

وقد يتبادر سؤال.. وماذا صنعت يا من تصرخ لنا عبر هذه الأجيال والأزمان في رسالتك: وصلنا صوتك في هذه السطور.. ماذا صنعت في مجابهة هذا.. في بلدك وأهلك..؟

وهناك.. جواب لمثل هذا التساؤل يدل على أنه لم يكتف أو لم يقف عند حد التوجع تألماً ـ أو التألم توجعاً.

(.. وقد سعيت وتكلمت في تغيير ما فعلوه فيه من المنكر بما أمكنني فلم يتيسر إلى الآن... فعسى الله أن يقيض لهم من أهل الخير من ينتقم منهم بموجب الشرع العزيز ويحاسبهم بما استغلوه منه... ويصرفه في مصارفه).

ويقارن الكاتب في رسالته الصغيرة بين إهمال وإهمال وضياع وضياع.. وهو موضوع كان مهتماً به غاية الاهتمام لمحاولة الإصلاح والدعوة إلى الخير..

(.. ويشبه موضع سيدي محمد الأندلسي... وأوقافه زاوية الشيخ سيدي أبي بكر التاجوري وإن لم تكن مثله في كل الوجوه لأنها لم تضرب فيها فريضة ولا فيها بيع لليهود فيما علمت).

وكان الكاتب مهتماً بالأوقاف وموضوع إهمالها وضياعها وهو أيضاً يظل

راصداً لظلم وجور الحكام الأتراك ويبدو أن له مع الأتراك خصومة قديمة تتصل بأجداده أيضاً.

فكل فرصة يجدها يشير إلى هدم الترك لآثار البلاد... (... وبتاجوراء أوقاف أخرى على مساجد هدمت مع البلد لما هدمها الترك.. فتولاها أبناء المتولين لها حين الهدم وأكلوها.. ولم يوجد من تلك المساجد إلا ذكرها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم). اهـ.

وهدم الترك لتجاوراء كان على عهد عثمان باشا ويلاحظ أن عثمان باشا كان له صراع عنفيف مع المتصوفة، ليست الدولة التركية ودار الخلافة بل تصرف باشا مستبد ووال طاغ، وقد أشار المؤلف إلى عثمان باشا في أكثر من موضع أيضاً في كتابه ـ فتح العليم ـ ويشير أكثر من مرة إلى تهديم الترك لتاجوراء وعند الإشارة إلى عبد الرحمن النعاس يشير...

(..حين خربت الترك تاجوراء وسبوا حريمها فكان سيدي عبد الرحمن غائباً لأنه حذرهم من الخلاف.. فلم يسمعوا له قولاً فخرج منها ومكث عند أصحابه من أولاد سيدي عبد النبي فلم يأت حتى وجدها خاوية على عروشها..). اهـ.

وعند الإشارة إلى ـ أحمد مروان ـ الصوفي من أهل تاجوراء وحجته وهجوم عثمان باشا على تاجوراء في غيبته.

(...وكان في إتيان سيدي أحمد في ذلك العام رحمة للبلاد مع الأمير المذكور لأنه لم يتهمه بالقيام عليه لغيبته في الحج بخلاف غيره من المرابطين المقيمين بالبلد فكان يقبل شفاعته في كل ما يأتيه فيه). اهـ.

وما أكثر أساليب الأساطير في عالم المناقب كثرة من المغارات والكهوف تدور حولها الطرائف من تخيلات الأساطير.. لكنها مواد لم تخل منها كتب الآثار والتاريخ في كل العصور والبلدان.. وأهل الكهف هنا.. على قمة جبل في أرض طرابلس عجيب أن يكون أهل الكهف رابضين هنا. وجودهم هنا.. ليس له سند تاريخي.. ولكن ما يرويه هنا عن طريق السماع وروايات العوام.

(... وفوق لقاطة مسجد في قمة جبل يعرف بمسجد أم غربان تزوره الناس وتتبرك به. ويذكرون أن في ذلك الموضع أصحاب أهل الكهف). اهـ.

ويقصد بالمكان الذي بعد لقاطة.. هو ـ المرقب ـ ولا سند تاريخي لهذه الرواية..

إنما هو أثبت قصة أو حكاية متداولة على ألسنة العوام وهو نفسه يكاد لا يصدق هذا... لأنه يقول ـ يذكرون ـ ثم يقول.

(.... وانظر هل ذكر أحد من العلماء أنهم هنا فإني لم أطلع عليه). اهـ.

ولكن عندما تضاف الرواية إلى الشيخ عبد السلام الأسمر يحاول إيجاد تبرير لها من ناحية كرامة الصوفية وانطواء الأرض له.. والرؤية عن طريق الكشف... ومن الأشياء التي يسوقها والتي دلت على مدى تغلب التفكير الصوفي آنذاك والمنطق الغيبي في عالم الكرامات ما يراه من أن هناك مزارات آخرجتها ودلت عليها فرس الشيخ عبد السلام الأسمر.. والتي كان يطلق عليها اسم سعيدة والله أعلم..

وفي فصل عن ساحل آل حامد.. وعين لبدة..

(إن بلدة لبدة.. مدينة قديمة خربت قبل الإسلام وفيها بناء عظيم وآثار هائلة.. فإن حضرت لك فيه نية اعتبار فلا بأس وإلا فالترك أولى).

ويشير في صفحة 69 إلى موضوع الشيخ سالم بن طاهر أحد معاصري الشيخ عبد السلام الأسمر والذي كان له موقف في موضوع ضرب البندير. وكان يعترض عليه مخافة أن يقتدى به من ليس مثله ـ على حد تعبيره ـ وفي الكتاب إشارات إلى أنماط من المتصوفة وبعض من هؤلاء الذين يسمون ـ الملامتية ـ وهو نوع من الدراوشة في سلوكهم ما يؤخذ عليهم وكما أشار ربما أظهروا ما لا يستحسنه الطبع ولا يخالفه عند تحقيقه الشرع إلا ما يحرمه وهي موضوعات وسلوك شغلت بال كثير من رجال الشريعة الذين وقفوا لأمثال هؤلاء بالمرصاد وكان صراعاً عنيفاً ليس مكان تفصيله هنا لقد أثارت جدلاً عنيفاً.

وهو يعتذر عن الإسراع والإيجاز الذي قد يصل إلى درجة النقصان أو الخلل في الموضوع قائلاً:

(. . . وهذا ما حضرني في الوقت مع العجلة والأشغال الكثيرة وإلا فأهل البلد كثيرون جداً).

وهو يسجل ويقيد من الذاكرة على ما يبدو عندما جلس للتقييد. . بدليل قوله. .

(. . وثم مسجد بالقرب منها بينها وبين الزاوية يقال له مسجد كوية وفيه قبر رجل صالح لا أستحضر اسمه والمسجد قديم يتبركون به).

ويشير إلى مزار صالح بن مبارك الفقيه ـ ومبارك هو الذي اعترض وتصاول مع الشيخ عبد السلام الأسمر وأشار إليه في عديد من مقطوعاته. . أو المقطوعات التي أضيفت ونسبت إليه.

وعند ذكر مزارات مصراتة قال:

(. . . لم أستحضر حين الكتب أسماءهم وكنت قيدتها فغاب القيد فأردنا أن نذكر على سبيل التبرك المشهورين فلا نغفل عن غيرهم).

في منطقة ـ أبي روية ـ مزار سليمان الجزولي ـ وقد زعم بعضهم أنه صاحب دلائل الخيرات. . الكتاب المشهور ولكن يظهر أنه من ذريته وإلا فصاحب كتاب دلائل الخيرات دفين أرض المغرب.

ويشير إلى إبراهيم المحجوب واكتفى بالاسم دون إفاضة في ذكره أو حتى إثبات سنة وفاته.

وفي منطقة ـ الغيران ـ ابن رزق الله قالوا إنه صاحب أحمد بن عروس. . وكان لأحمد بن عروس صلة بأهل مصراتة. . بل إن أمه من مصراتة فهم أخوال له. . كما أشار الذين ترجموا له. . ومزار فتح الله وله تمسك بظاهر السنة والشريعة وأشار إلى منطقة أبي شعيفة ولكن لم يشر من هو ولا في أي زمن عاش.

وذكر مناطق مصراتة بوروية ـ الغيران ـ زمورة ـ المساورة ـ قزير ـ تكيران ـ.

وفي ثنايا كتابه هناك مناطق وبلدان أطنب وأفاض نسبياً في ذكر مزاراتها وتخلل ذلك قدر لا بأس به من المعلومات.. تاجوراء.. باعتبارها بلده ومنشأه.. وزليطن بلد أجداده ومنبع من منابع الحركة الصوفية التي أوجدها الشيخ عبد السلام الأسمر وأتباعه وأولاده ومن غير ذلك من البلدان كان المؤلف سريع الإشارات سريع الخطو.. موجز الكلمات..

وبعض بلدانٍ زارها. وبعض مناطق كان يكتفي بالسماع وتداول الأخبار والمرويات عن الذين أشار إلى مزاراتهم.

ومن المناطق التي زارها ـ مسلاتة ـ.

(... ولما زرناه مع الشيخ سيدي أحمد في أواخر ربيع الأول سنة 1094م أطلعونا على وثيقتين بهما شهادة العدول أن سيدي أبا القاسم هذا ولد مكتوباً على ذراعه الأيمن لفظة محمد بقلم القدرة وتاريخ إحدى الوثيقتين سنة عشرين وثمانمائة 820هـ والغالب أنها في حياة الشيخ فيعلم بذلك تاريخ عصره). يقصد الشيخ أبا القاسم..

وأما السنة التي زار فيها مسلاتة 1094م هي السنة التي فرغ فيها من تأليف الكتاب.

ويلاحظ هنا اهتمامه بالوثائق وإطلاعه عليها واستنباطه من قراءة الوثائق تاريخ من يتكلم عنهم وهو منهج لو استمر عليه لكان أقرب إلى الروح العلمية والأسلوب المنهجي.. ولكنه في أكثر كتاباته يكتفي بالسماع إلى حد تصديق وتقييد كل ما يروي.

(.... وفي الوثيقتين أن زوجة الشيخ شريفة الطرفين فيكون أولاد الشيخ شرفاء للأم.. وقد أثبته لهم جماعة من المحققين.. كما يعلم بمراجعته في محله). اهـ.

ويشير إلى الشيخ عبد الواحد الدوكالي وهو من أشهر المتصوفة.. ولم يتكلم عنه هنا لأنه تحدث عنه طويلاً في كتاب آخر هو ـ فتح العليم ـ.

(... وهذا ما حضرني حين الكتب من مشايخ المدينة (طرابلس) ونواحيها الشرقية.. فلنذكر أيضاً ما حضرنا منهم من أهل النواحي الغربية على سبيل الاختصار.

ولنقتصر غالباً على ذكر أسمائهم وأماكنهم. لأجل ما ذكرنا من طلب الاختصار.. ولأجل العجلة ولأني لا أعرفهم مثل النواحي الشرقية). اهـ.

وهكذا يسوق ثلاثة أسباب أو مبررات يحتمي بها أو يعتذر بها.

1 ـ طلب الاختصار: وليته في بعض المواطن لم يختصر وطلب الاختصار خطته في كتابه.

2 ـ العجلة: ولا أعرف ما الدافع إليها والإبداع الفني والتحقيق العلمي عدو العجلة.

3 ـ ولأنه لا يعرفهم مثل النواحي الشرقية من البلاد وهي على أية حال مبررات أو معاذير يرفضها المنهج العلمي وليست مبرراً كافياً.. أو هي ليست بالمعاذير المصاغة علمياً..

وفي بلدة جنزور والماية والغار يبدأ بالإشارة إلى عبد الجليل الجنزوري وهو من أصل مغربي ومن أهل الرباطات على شاطىء البحر وأشار إليه التجاني في رحلته.

ويذكر عن عبد الجليل وصاحبه سليمان حكاية اصطياد الحوت من البحر.. كان يقتات عبد الجليل بما يصطاده.. فقال له صاحبه سليمان..

ـ لماذا هذا التعب ـ وخاطب الحوت فتطاير وخرج بكثرة بلا صيد..

فالتفت إليه عبد الجليل وقال:

ـ تفخر علينا يا سليمان بحوتك ـ أخرج ياحوت مقلي وخرج الحوت مقلياً ـ.

وهي حكاية كانت مشاعة عند العوام في البلد وطبعاً التجاني لم يذكر مثل هذه الحكايات. لأنه كان مؤرخاً ودارساً.. وعالماً يتأمل. ومنهجه في رحلته يختلف عن منهج عبد السلام بن عثمان وأصحاب الاعتماد على مرويات العوام... والحكايات التي هي أقرب إلى الأدب الشعبي منها إلى مناهج التحقيق التاريخي.

مثل هذه المرويات الطافحة بتواريخ هؤلاء قد تكون بعيدة عن التاريخ العلمي.. والتحقيق المنهجي ولعل اهتمامه من الناحية الترجمية المنقبية بمثل هذه الحكايات والمرويات جعل عالماً ناقداً.. ومؤرخاً منهجياً.. مثل ابن غلبون.. المتحرر فكرياً.. لا يميل إلى كلام ابن عثمان ولا يجعل له وزناً علمياً.. بل ينتقده مر الانتقاد من ناحية كتابته التاريخية. وأيضاً الفقهية

لقد رفض ابن غلبون آراء وسلوك ابن عثمان وأمثاله.. وما رأيك في حكاية من يرمي بعمامته في الهواء فتقف فيركب عليها.. ويمكث في الهواء:

حكاية شعبية يسوقها لنا في كتابه بدل أن يذكر لنا تاريخ الشخص وميلاده أو وفاته أو صفاته ومواقفه لكن هذا هو منهجه في كل كتاباته.

ويشير إلى مزارات الزاوية الغربية ـ وجودايم، ومن طرائف الأدب الشعبي الذي تموج به الحركة الصوفية أن صوفياً من أهل المغرب أتى ذات عام فوجد أن الصوفي أحمد عبد الحميد قد توفي وترك أبناءه صغاراً لم يجد من يقوم عليهم ويهتم بأمرهم..

وعندما سأله الشيخ عبد السلام الأسمر عنه قال المغربي:

سيدي أحمد شجرة   فيها الطيور تبات

انقطعت الشجرة   راحت الطيور شتات

فأجابه الشيخ الأسمر.. لا يا مغربي لا تقل هكذا.. وقل سيدي أحمد شجرة.. فيها الطيور تبات.. انقطعت الشجرة.. وخلفتها شجرات.

وقد تفيد مثل هذه النصوص لدراسة الحركة الصوفية وأجوائها من ناحية وصلتها بالأدب الشعبي في أسلوب أقرب إلى اللهجات العامية والأزجال.

ويشير إلى أن ـ عبد النبي الأصفر ـ كان في زمن وجود الشيخ زروق بطرابلس وله معه مكاتبات ومراسلات بين الجبل حيث يقيم وبين الزروق حيث اتخذ إقامته في مدينة مصراتة.

كما يشير إلى أنه وقع لمحمد بن عبد الرحمن البشت محاورات مع عبد النبي الأصفر ويقول (. . . ولم أتقنها حيث الكتب). أي لم يستحضرها عند تأليفه لهذا الكتاب وهي بلا شك محاورات ومكاتبات ذات أهمية لتاريخ تلك الفترة.. لو عثر عليها. . . ويقول وهو يشير إلى مزارات الزاوية الغربية وإلى الصوفية سيدي علي (. . . لما زرناه مع الشيخ أحمد المكنى سنة اثنين وتسعين وألف 1092م) أي قبل كتابته لكتابه هذا بعامين تقريباً.

(. . . أخرج لنا أولاده ورقة بخط الشيخ أحمد زروق كاتبه بها لو حضرتني حين الكتب لأثبتها تبركاً بها، وإن كان المقصود الإقلال بقدر الطاقة..) اهـ وهذا إشارة إلى وثيقة تهم الدارسين لتاريخ أحمد زروق وعصره.. وكم من وثائق ضاعت.. إن الكوارث التي مرت بالبلد أضاعت المباني والآثار وبعض المدارس والمساجد.. والمقابر والمزارات..

فما بالك بالوثائق والأضابير والأوراق.

ويشير إلى مزارات بلدان ومناطق..

الرابطة ـ والمطرد ـ الصابرية ـ وبوعيسى ـ وصرمان ـ وقاليل ـ ودحمان ـ وزواغة ـ. ويشير إلى نص ذي أهمية..

(. . . وفي زواغة منصور الكواش. ـ ومعه تحت حائط حجرته من الجنوب سيدي أحمد البهلول من أولاد بو عجيلة مات شهيداً، وزواغة رباط كثير ما يظهر فيها النصارى، وفي الكابوط قبور شهداء ممن ماتوا عند فتح زواغة وذكروا أن أسماءهم مكتوبة عليهم).

ويلاحظ أن أحمد البهلول هذا غير الأديب والشاعر المعروف الذي قمنا بتحقيق ديوانه في المدائح النبوية، ويلاحظ وجود شهداء أبرار، ولم يكن أصحاب المزارات مجرد متصوفة بل فيهم أبطال مقاومون، وهذا النص (أسماؤهم مكتوبة عليه) يوضع لدى المهتمين من علماء الآثار الإسلامية. والمنقبين والمتتبعين للتاريخ. من هم؟ ومتى؟ وفي أي معركة من المعارك؟ وما هي أسماؤهم. . وهل توجد إلى الآن هذه الكتابة؟

وفي نهاية الكتاب يشير إلى أن صفحاته التي قدمها للقراء (وكان تقيدها في نحو ستة أيام مع أشغال كثيرة فأصلح بفضلك ما تراه) اهـ ويسجل تاريخ من الفراغ.

فرغ من تقيدها جامعها عبد السلام بن عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد السلام الأسمر في أوائل أشرف الربيعين سنة أربع وتسعين وألف 1094م.

تعابير ليبية

وتضمنت صفحات كتاب «الإشارات لما في طرابلس من المزارات» عدة تعابير ومصطلحات ليبية اخترنا منها هذه القائمة قد تفيد الدارسين للهجات والمصطلحات وتطور بعض التعابير سواء في التاريخ الاجتماعي أو الأسلوب الكتابي

* * *

تسببت في عمارتها = عملت وسعيت	الطابيه
محلة = حي وضاحية	براح الصالحين
تسبب في الحلال = باع واشترى وتاجر	الخيرة في الواقع
سانية = مزرعة بستان	يشيل منهم
سبخه	يشيلون منه
حارة هراغة	اللاقبي
بائتاً معه	الضرة
والكمال على الله	صبايحية
مطامير	يروح
الشرب من السبالة	عزم عليه

دخيل

يا بهيليل

خلطه

عشم

الخلدي – نوع من الأمراض اصطلاح صحي.

يتقوت

أصابه الحال

البندير

المتسببات

فم الروضة

عييت

تسبب فيها

حيشان

ارفعوني له

عرمه

كديه

* * *

كتاب أحمد بن عبد العزيز

والأساطير والخرافات

هذا كتاب له صلة بالتاريخ

ولكن له كل الروابط والصلات بالأسطورة والخرافة . .

وقد نشأت كثير من أعشاب الخرافات . . . وأزاهير الأساطير على ضفاف التاريخ . . أو على حساب التاريخ ولكن تظل آسنة جافة لركود مياه الضفاف ما لم يحركها وتر فنان . . أو ريشة مبدع . . أو قلم دارس باحث . .

فمواد الأساطير . . ومعادن الخرافات وما يتصل بها من أمور عندما تلتصق بالتاريخ . . وتندمج في مواده لا يصبغ عليها إطار الحيوية . . ولا يدفع في شرايينها دفق الحياة ونبضها إلا فكر فنان . . وتلك الأساطير والخرافات مجهولة المؤلف ـ تستلهمها ريشة الفنان بمختلف الألوان والأصباغ ـ مهما كانت الهوية . . أو الباعث على الخلق والتصوير . .

فهي تبتعد ـ بشكل ما ـ عن جوهر التاريخ وحقيقة مناهجه العلمية .

تصلح أن تكون كل شيء ـ إلا أن تكون تاريخاً مجرداً . . أو مصدراً معتمداً . . لوحده . .

الأسطورة . . والخرافة ـ مهما كان منبعها ـ قد تكون لوناً من ألوان الفنون

التي تستهويها النفس. . وتهز الأحاسيس وتحرك الوجدان والمشاعر أو العقائد وقد ترضي العاطفة أو تشحنها وتثريها ـ ولكنها ـ كخرافة ـ وأسطورة ـ رغم استمدادها من التاريخ ـ أو التصاقها به ونشأتها في رحابه. . أو على ضفافه. . لا تكون أبداً تاريخاً بالمعنى العلمي. . هي من ضروب الفن ـ وحرية التخيل.

والعلم ـ له قيوده. . . أو ضوابطه ـ له غرباله الكبير المصفي، من هنا ـ كان حتماً أن تنشأ التحقيقات وأن تكون ضوابط الأسانيد في حقائق التاريخ. .

فهو علم وليس أسطورة وخيالاً. . ومجرد حكايات للفن أو أصباغ البهارات وتزويق الهالات وطبخ ما يريد، لكن صحافه وأطباقه لا تقدم مواد تاريخية.

وقد تستفيد من المواد التاريخية.

قد تكون الأسطورة رمزاً.

وقد تكون الخرافة ذات دلالة.

ولكن ـ لن تؤخذ مادة تاريخية. . . وسنداً مجرداً. . ولا أريد هنا ـ أن أفيض في الحديث عن علاقة الفن الأسطوري والفن الخيالي بالتاريخ وشعابه وهضابه أو صلة ذلك بالأدب والمسرح والقصة والحكاية المستمدة من قرب أو من بعد من وادي التاريخ ورحابه وضفافه.

ولكن لا بد من هذه المقدمة الموجزة أو الإشارة العابرة لهذا. . ونحن بصدد دراسة لكتاب صغير عثرنا عليه في باريس بالمكتبة الوطنية. . وصورناه. . وقرأناه. . وهالنا ما حوته صفحاته. . وما تضمنته سطوره. .

فهو من ذلك النوع الذي أراده ـ أو رآه صاحبه تاريخاً. . أو خيل إليه أنه يكتب تاريخاً. .

ويؤرخ لعصور مرت بمدينة طرابلس. . وأنحاء الوطن الليبي. . وهو في الحقيقة الواضحة. . من ذلك النوع الذي يمكن وضعه أو إضافته إلى باب ـ الأدب الأسطوري ـ وذلك اللون من الخرافة الناشئة في وديان التاريخ وضفافه.

كتاب يتناول تاريخ وحوادث طرابلس عن طريق الأسطورة وكان عماده في تدوين سطوره ـ وهو التقاط ما كان يدور ـ غالباً ـ في الأسمار والأحاديث العابرة ـ والحكايات والمرويات الشعبية ـ عن طريق الخرافة المسموعة عبر أجيال.. وأجيال.

ورغم كل هذه الملابسات والمؤاخذات هي لا تخلو في سديمها من بعض الخيوط التاريخية والوقائع والحقائق. يختلط فيها الواقع بالخيال..

والحكايات المرتجلة بالحقائق المتواترة وفيها فيض من الحوادث تروى بكرم الأساطير وفيض التصورات... والذي يحيرنا أكثر أننا لا نستطيع أن نعتبره تاريخاً بالمعنى المألوف.. وبالقياس المنطقي العلمي.. كما أننا لا نستطيع أيضاً أن نزج بهذا الكتاب في مجالات القصة الفنية.. والرواية الأدبية.. مثل ألوان كثيرة من القصص الشعبي التي زخر بها التراث الفني في ليبيا العربية الإسلامية.

القصص الشعبي ـ بلا شك ـ له بهارات الفن ونكهة الأدب ـ مثل الزير سالم ـ أو الرحلة والموجة الهلالية الزناتية أو سيف بن ذي يزن.

* * *

والمؤلف هنا ـ أو الراوية يروي في تقيداته عن أبيه عن جده.

فهو يحاول أن يقنعنا أنه يكتب.. أو ينقل لنا تاريخاً... تاريخ بلاده طرابلس.

ومع هذا.. من الصعب أن نعتمده مصدراً تاريخياً لحوادث تاريخية.. وإن كان في إطاره وأسلوبه يعكس شكلاً من أشكال تأثر الكتاب أو الرواة بوقائع التاريخ.. وما مرَّ بالبلد من عصور وأطوار..

وما حدث بها من صراعات ووقائع. وهو في الحقيقة ـ من جوانب الصدق فيه ـ يعتبر في كتابه راوياً ـ وناقلاً أكثر منه كاتباً أو مؤلفاً بالمعنى الدقيق للتأليف والكتابة.

وما أكثر أنواع التواليف التي هي في أصلها أنماط من النقول وأشكال من الروايات لا تخرج عن هذا النطاق وليس فيها للناقل جهد يذكر أو للرواية إضافة تشكر. . ولكن من جوانب أخرى ـ قد يكون له فضل المحافظة أو الحفظ والنقل والاهتمام. . وهذا قد يحفظ لنا خيوطاً كانت تضيع في متاهات الإهمال.

والمؤلف أو ناقل الرواية يقول في سطر يعتبر مقدمة وتعريفاً. .

«. . . هذا كتاب العبد المؤمن أحمد بن عبد العزيز عن أبيه عن جده. . ».

وهذه العبارة الموجزة هي كل ما نعرفه عن الكاتب المجهول الذي نقل وروى في كتابه ستة وثلاثين صفحة كل صفحة ما بين عشرين وواحد وعشرين سطراً. .

أسلوب الكتاب أقرب إلى عصر ولهجة القرن العاشر الهجري وما بعده عصر الانحدار والجمود في التفكير والأسلوب.

وقد أشار أحمد بن عبد العزيز الطرابلسي إلى حوادث من وقائع التاريخ ـ والغزوات البرية والبحرية بأسلوب الأسطورة الشعبية.

وهناك وقائع حكاها في صورة بعيدة عن التصديق وأضخم غلطة. . إن لم نقل كذبة ساقها في كتابه. مثل زعمه قدوم الإمام علي بن أبي طالب إلى شمال أفريقيا وهذا يدل على جهله المطبق بسيرة الإمام الجليل وخطأ قد لا يقع فيه طالب من طلاب العلم قرأ شيئاً من تاريخ ذلك العهد. . ولكنه كان ينقل مسموعات وروايات لها شعبية التداول وليس لها سند تاريخي.

وهناك في صفحات الكتاب مثل. . وما أكثر الأمثال والأمثولات فهو يعلل في حذلقة ومماحلة لبعض التسميات لبعض القرى والمدن في ليبيا. . وركب شططاً في هذا. . ويزعم أن ـ المرج ـ وهي إحدى مدن برقة المعروفة سميت مرجاً لأن عقبة بن نافع بقي سيفه ـ يمرج ـ فيها، وهي اسمها بالنصرانية ـ سيرينا.

وليست مدينة المرج وحدها في كتابه وقعت تحت طائلة التأويل المضحك بل حتى مدينة لبدة أيضاً فيحاول ـ أحمد بن عبد العزيز ـ في عقلية عامية وسطحية مبتذلة وأسلوب ساذج أن يجعل من اسم مدينة لبدة الرومانية مقترناً بأسطورة.

(.. إن الذين لم يؤمنوا يتلابدون في الخزائن) مع أن هذا التعليل بعيد عن الحقيقة والصواب وبديهي الخطل..

فلبدة أو لبتس مانيا..

ولا دخل في تسميتها للاشتقاق اللفظي العربي للبد ـ يلبد... تلبد.

ولكن هذه المماحلة تعطينا صورة عن المحاولات الشعبية لتأويل وتخريج أسماء المدن والقرى وهو شيء متداول في عصور الانحدار.. وقد نشأت كمية من التأويلات والتخريجات وحفريات الأسماء لدى الخيال الشعبي حتى خلق وابتدع أحياناً لوناً من عجائب التأويل والتخريج والتوليد اللفظي الذي اختلق له قصة وحكاية. يسندها للتاريخ..

وذلك مثل زعم الرواة أن بلد الفيوم سبب تسميتها أنها بنيت في ألف يوم..

مع أنها ليست عربية الجذر في تسميتها. بل هي فرعونية..

والبدرشين إحدى مدن مصر في الصعيد لأن يوسف شاهد زليخا في أواخر عمرها عجوزاً فقال البدرشين..

ولنا نحن الليبيين مع المصريين وافر من هذا التخيل أو التحايل على مسميات المدن والقرى شيء كثير.

فمدينة مصراتة.. ذات الطابع الحضاري على حوض البحر الأبيض يسترسل الخيال الشعبي ليضيف إلى التاريخ لما ليس له ويرى أن سبب تسميتها في رواية تاريخية شعبية:

أن رجلاً ـ من مصر . اتي ـ حل بها أو بناها مع أن مصراتة . . أو مسراتة أشار إليها ابن خلدون كقبيلة بربرية أمازغية لا صلة لها بالتركيب المزجي أو المزاج التركيبي . .

وخصب هذا الخيال الشعبي في مضمار تاريخ المدن أو مسمياتها. فمدينة تاجوراء أيضاً يختلق لها أسطورة تحكي أن ابنة الملك كانت تستحم على شاطىء البلدة تركت تاجها خلفها. . وقالت. تاج وراء . . وسميت المنطقة تاجوراء.

وأبسط القواعد للرد على هذا ـ أن ابنة الملك في تلك الآونة لم تكن تعرف حرفاً عربياً ولم يكن الفتح العربي شرف البلاد.

ومن هذا القبيل الذي نود ألا نستطرد فيه كثيراً ما زعمه المؤلف أن بلدة «ترهونة» اسمها بالنصرانية ـ ترهل ـ وأسمها بالعربي . . الخ.

وهي تأويلات وتخريجات، عامية ساذجة . . ومقتضى الأحوال الخرافات منشأها والأساطير حقلها الخصيب لا صلة لها بعلوم اللغات أو الحوادث التاريخية. إنما هي صورة مما يتناقله عوام القرون المتأخرة في أسمارهم. وأحاديثهم المرتجلة.

قد يكون مصدرها عجوز حول موقد. أو شيخ في حلقة لم يجد ما يبدد أو يملأ به فراغه الطويل . . ثم ظاهرة التلاعب بالكلمات والحذلقة في الاشتقاق قد يضاف بشكل من الأشكال إلى فن الفلكور . . لا إلى تاريخ أسماء المدن والقرى الذي هو علم له ضوابطه وتتكفل به علوم اللغات والحفريات اللغوية والتاريخ . .

ولكن الكاتب أو الراوي . . التقط مثل تلك الأسماء من أفواه الناس . . أو نقلها عن أبيه عن جده. أو أمه أو جدته سيان وفي باب الخطأ يتساويان فكتاب أحمد بن عبد العزيز أشبه برواية الأساطير وفتوح البهنسا وكتاب راس الغول . . الخ . .

* * *

فهو يروي عن الفتوحات صوراً شعبية وعن البطولات أقاصيص يقدم فيها نماذج غريبة من الأسماء المعروفة. . وغير المعروفة. . في هالات. . وإطارات مبالغة كما يتصوره السامر الشعبي في حكاياته وروائع خياله أو شطحات خياله الثري.

ويبدو من إشارة المقدمة أن والد أحمد بن عبد العزيز هذا لم يكن كاتباً أو مؤلفاً بالمعنى الدقيق وبالمفهوم الصحيح للتأليف. . بل هو ناقل.

وناقل ينقصه كثير من التثبت والثقافة التاريخية وكل هذا يتضح من أسلوبه. . وطريقة عرضه للفترات التي تعرض لها.

ونجد مثل هذه العبارات كركائز لما ينقل ويسجل. (. . قال الناقل) (ويقول الناقل) (انتهى ما وجدناه مقيداً). (قال الناقلون لهذا الحديث) هو يشبه الروايات الشعبية في ركيزة سردهم. . (قال الراوي) وما شابه هذه الركائز. ومن نماذج سرده وتسطيره لما نقل وسمع. (. . . قال الناقل وتولى بمدينة لبدة نصراني من مالطة القديمة وهي «رودس» وتسمى بالعربية ـ رقريق ـ فخلف النصراني عام 133 ـ وكان له وزير يسمى اتربه ـ وكان له من الأموال ما يغني عن جميع الأموال ـ وكان له من العامل الذين هم من تحته مدينة تسمى بالعربية «زليطن» وبالنصرانية زوقم ـ وبالقرب منها تسمى بالعربية «القاطة الحديث» وبالنصرانية «قليونطه» الخ.

ولنا أن نلاحظ ونسأل عام 133 هل هي ميلادية أم هجرية؟. .

ويلاحظ أن إشارته لاسم «رودس» بالعربية على زعمه يقال لها ـ رقريق ـ وهو ما كان ينطقه العامة وإلى الآن في اللهجة الليبية تطلق على اليونان «رقريق ـ وهي تحريف لكلمة أغريق.

وبالكتاب كثير من العبارات التي تدل على اللهجة الليبية.

ويتحدث عن أولياء وصالحين من متصوفة طرابلس مثل حديثه عن سيدي سالم المشاط 874هـ ـ 1469م.

ومن أسلوبه، في ثنايا الكتاب مثل عبارة (. . . ركبوا ونشروا الكتان واتكلوا على الرحمن) ص42 ـ 43.

وهو أسلوب يدل على أيام تكاثر الحركات البحرية في شواطىء طرابلس وحوض البحر الأبيض وأيام الغزو والقرصنة البحرية وأيام سفن ذات أشرعة وقلاع كتانية.

ويصل الكتاب في العصور والحوادث إلى عهد «مراد» والبطل الشهيد طرغوت باشا 933هـ ـ 1526م ويكتب اسم «طرغود. . بحرف الدال والتاء الأخيرة هكذا درغوت.

وفي آخر الكتاب المخطوط جاءت هذه العبارة (. . . انتهى ما وجدناه مقيداً بأخبار السالفين وتنزيل حسابهم من غير مناقشة ولا مجادلة).

فالعبارات السابقة.

قال الناقل.

وانتهى ما وجدناه مقيداً.

وقال الناقلون لهذا الحديث.

تضاف إلى هذا كله هذه العبارة (انتهى ما وجدناه مقيداً). .

وعبارة (تنزيل حسابهم من غير مناقشة ولا مجادلة) كل هذا يؤكد لنا بصورة قاطعة أن أحمد بن عبد العزيز الطرابلسي نقل لنا شيئاً كان مسجلاً. . أو هو قام بنسخ شيء كان مقيداً في دفاتر وكنانيش والده وكان هناك كثير من البيوت يحتفظ فيها المثقفون وأشباه المثقفين بدفاتر فيها تقيدات وكنانيش بها طرائف من التاريخ المجرد أو الأساطير المزعومة أنها تاريخ. . أو المزيج من هذا وذاك.

وكنانيش لا تخلو من طرائف الأدبيات والمرويات عن وقائع الأحداث مسموعة أو مشاهدة. . ومن المؤكد الذي لا يحتاج إلى كثير من التصور أنه وجد في كنانيش أبيه وجده هذه الأشياء المكتوبة فنقلها برمتها وصورتها. وبحذافيرها كما أشار (من غير مناقشة ولا مجادلة).

ولعله أثبت هذه العبارة ليؤكد من طرفه خلو الطرف أو صحة النقل وأمانته. وكأن شيمة النقل عن التاريخ والوقائع هو مجرد السرد.. وحرفية النقل.. والتسجيل من غير مجادلة ولا مناقشة.

ترى هل هي في نظره محمدة سجلها وأمانة أشار إليها؟

أم هو من ناحية أخرى وبطريق غير مباشر.. شكل من أشكال الاعتذار عمّا به من أخلاط.. وامشاج: !!؟

وسواء كان هذا أم ذاك.

لا يدخله هذا الصنيع في باب الإعجاب بمقدار ما يدخله في باب العتاب والملام.. إذ لو شغل ذهنه وقارن ـ ولو بجهد يسير ـ بين كثير من الحقائق لظهرت غرابتها. ولحذف.. أو أضاف الكثير. ولكن هذا النقد التاريخي.. وغربلة المرويات كان في لغة الواقع وبأسلوب المنهج العلمي يحتاج إلى عقليات وذهنيات قد لا تسمح بها تلك الظروف والمناخات الفكرية التي عاشها أو التي أنبتته.

ولا نريد أن نجرده من الاعتراف بكل جهد بذله.. يكفيه بمقدار أنه عكف على مخطوطات في بيته واحتفاظه بمتروكات أبيه وجده.. ونقله لها بشغف ونهم وحفظ تام وأمانة حرفية رغم ما في معلوماتها من تحريفات.

أوراق كتبت في بيت من البيوت القديمة بطرابلس لتظل محفوظة منقولة بباريس حتى يتاح لها أن يكشف عنها غطاؤها رغم كل ما يؤخذ عليها من البعد في كتابتها عن الروح النقدية والغربلة.. أو الأسلوب التحليلي.

* * *

وقد عودنا البحث العلمي أن أي شيء، أي مادة، أي موضوع، مهما كان.. لا بد أن تجد فيه خيطاً.. أو ضوءاً قد يفيد في بعض الجوانب.

أو يرى فيه غيرك من زاوية ما.. شيئاً قد لا تراه أنت أو لا تهتم به أنت. وظهر هذا السطر في مفتتح الكتاب. كما ظهر أيضاً في خاتمته.

(هذا كتاب.. أحمد بن عبد العزيز عن أبيه عن جده).

ولكن هناك سؤال يطرح من قريب أو من بعيد.

هل كل ما ورد فيه من هذا القبيل الذي إليه أشرنا؟ هل كل ما جاء في سطوره وصفحاته عار عن الصحة بعيد كل البعد عن حقائق التاريخ؟.

يقترب كل القرب من الخرافة والأسطورة والتاريخ الملفق أو المطعم بالخيال الفني إن أردنا تهذيب التهمة أو المآخذ.

ومن الإنصاف.. والأقرب إلى الصواب أو الاستصواب أن هناك بعض الأخبار والوقائع ذات الصبغة التاريخية منها تلك الحوادث التي كانت قريبة من عصره مثل واقعة وفد التواجير إلى مدينة إسلامبول. ذلك الوفد الشعبي الذي ذهب بحراً في رحلة محفوفة بالأخطار.. مغامرة جريئة طالبين من سلطان المسلمين النجدة لإزالة الغزو الإسباني والاستعانة بالسلطان الذي لبى طلبهم بدافع الشعور الإسلامي الصادق وأنقذ بلادهم وهذه إشارة مهمة من الكتاب.

وقد يثير هذا النص قضية هامة، فهو يؤكد أن الأتراك في عصرهم ذاك وقدومهم إلى شاطىء طرابلس وليبيا لم يكن غزوا.. ولا هي من أنواع الحملات المغرضة التي تعرضت لها بلاد المسلمين.. ولا هو استعمار ـ والعياذ بالله ـ كما تورط في وصف هذا مغرضون أو مقلدوهم.. أو سطحيون أو مثقلون بالجهل إنما كان مجيء الأتراك المسلمين إلى شواطىء طرابلس برغبة شعبية وتلبية لمطالب وفد يحمل رغبة شعبية.. يطلب نجدة لإنقاذ البلاد من براثن احتلال أجنبي عسكري بحري إسباني كادت البلاد أن تصبح مثل قبرص أو مالطة آنذاك.

ليس العهد العثماني استعماراً رغم مظالم بعض الولاة وتخلفهم بل كان في عهده الأول انقاذاً من ناحية الخليفة وفي عهده الثاني كان عهد السوط والجبايات والتأخر.. وكان ذلك من طبائع العهد كله، طبائع الانهيار.. واضمحلال الدولة آنذاك.

ويلاحظ في النسخة الباريسية ما يدل على تلك النسخة فقد كانت النسخة المخطوطة عند قنصل فرنسا بمدينة طرابلس عام 1809م وقد كتب عليها بالعربية :

(أنا كلنسلير الفرنسيس في بلد طرابلس تمت هذه النسخة في أوائل محرم 13 محرم 1224هـ، فبراير 1809م.



ابـن غلبـون

وكتابه التذكار

هذا مؤرخ من علماء القرن الثامن عشر الميلادي كان من أشهر علماء جيله بطرابلس أيام عهد القره مانللي ومؤسس الأسرة أحمد باشا القره مانللي.

كان ميلاد أبو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون في مدينة مصراتة إحدى المدن الساحلية على شاطىء طرابلس.. حيث كانت دراسته الأولية وتكوين لبناته العلمية.. ثم توجه وهو شاب إلى رحاب الجامع الأزهر.

وعاد إلى بلده مصراتة عام 1133هـ ـ 1720م كما أشار في ثنايا كتابه (التذكار). وله مواقف في الاصلاح الاجتماعي ومجابهة السلطة الحاكمة في صراحة العلماء وحزم المؤمنين وجراءة أهل الكرامة.

ومواقف أبو عبد الله محمد بن غلبون تنم عن شخصية قوية ورأي أصيل. وتحرر فكري.

وهو عالم.. مدرس.. فقيه.

لا يكتفي بحلقة الدرس وشرح تعابير الفقهاء ومصطلحات الأصول والتفرعات بل هو يهتم بدرسة التاريخ الذي شغف به واطلع على كثير من مصادره ومراجعه.

وكتابه (التذكار).

يدل على اطلاع واسع وفهم لخفايا التاريخ ويدل على منهجه العلمي ونظرة جادة موضوعية بعيدة عن السربلات وتمويهات المبالغات.

وهو لا يستند إلى الشطحات الخرافية ـ سيما في المناقب والتراجم.

وقد ألف ابن غلبون كتابه هذا بعد عودته من مصر بحوالي اثني عشر عاماً 1732م. عندما كانت صلته لا تزال طيبة ووثيقة بالحاكم.

بأحمد باشا القره مانللي. . بل أشار المؤلف في مقدمته أن أمير المؤمنين. وهو اللقب الذي كان يشير به إلى أحمد باشا، قد أشار عليه وطلب منه أن يشرح قصيدة أحمد بن عبد الدائم الأنصاري. . الذي كان قد رد بهذه القصيدة على تهجمات الرحالة المغربي العبدري وكان شرح ابن غلبون لهذه القصيدة كتاباً تاريخياً لطرابلس وأحوالها وأدوارها وأطوارها من العهد الإسلامي الأول إلى عهد أحمد باشا.

وشخصية المؤرخ ابن غلبون من ذلك النوع الذي تحرر فكره وحاور أهل البدع وأصحاب الطرق.

وأيضاً له في الدراسات من الجانب النقدي آراء تناول فيها مؤلفات بعض من المؤلفين المعاصرين له وهذه الإشارات والتعليقات النقدية دلت على وجود مناخ أو روح علمية نقدية لقد انتقد مؤلفات عثمان بن عبد السلام التاجوري ومؤلفات علي بن عبد الصادق.

الأول في كتابه تذييل المعيار.

والثاني في بعض مؤلفاته إذ قال عنه: «يميل إلى جمع المسائل دون تحرير. . الخ».

وكانت مناظرته مع الشيخ النعاس التاجوري 1139هـ ـ 1762م ـ أي بعد عودته من مصر بحوالي ست سنوات وهي أيضاً مناظرة تدل على روح التحرر والاتجاه نحو النقد الإصلاحي.

يعد كتاب (التذكار ـ فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار) من أهم وأصدق مصادر تاريخ ليبيا في عصورها الإسلامية وفترة العهد العثماني الأول بالذات وقد سبق لنا أن أفردنا دراسة خاصة عن ابن غلبون صدرت في طبعتها الأولى عام 1966م بطرابلس.

ثم أعيدت طباعتها في بيروت.

كما سبق أن ألقيت عنه محاضرة ومقارنة بينه وبين المؤرخ أحمد النائب منذ سنوات وضمنته فصلة من كتاب أعلام من طرابلس.

فهل بعد هذا أعود إليه مرة أخرى؟

فأكون كصاحب الأسطوانة الواحدة يكررها ويكثر استعمالها فأما أن تشرخ.. أو يملها السامع.. أو تدل على قلة البضاعة عند العارض..

هل أتردد في العودة إليه؟

ولكن هناك أكثر من سبب ودافع:

لأن هناك ما يقال عنه وهناك ما هو جدير بالكتابة فيه وتتكشف لنا دوماً حقائق وأمور جديرة بالقول والكتابة والإشارة.. عند التأمل في شخصيته وحياته العلمية.. ومنهجه في تناول التاريخ.

تنكشف لنا أنحاء وجوانب ما زالت في حاجة إلى مزيد من القول والدراسة فهو من ذلك النوع خصب العطاء.. عميق الآراء.. واسع الأرجاء والساحة.

هذا من ناحية، فلن يكون الحديث عنه مجرد أسطوانة مكررة. أو أغنية مملولة.

ومن ناحية أخرى.. تدفعنا هنا الحاجة ومقتضى الحال أن نشير إليه.. لا بد من الإشارة إليه هنا.

فهل يليق أن نصدر كتاباً يتعلق بالمؤرخين الليبيين ويكون مكان ابن غلبون

شاغراً ثم نهتم بمن هو أقل منه درجة أو أقل منزلة وأثراً. . من الناحية العلمية والتاريخية.

وعلى كل حال. . ومهما يكن من الأمر. . فلا نطيل القول عنه. .

* * *

وقد اعتمد ابن غلبون في كتابه على كتب التاريخ من المصادر المعتمدة أمثال ـ ابن عبد الحكيم ـ وابن الأثير ـ وابن خلدون ـ واعتمد على مشاهدات الرحالة من الحجاج أثناء ذهابهم إلى المشرق وعلى أقوال وأوصاف الجغرافيين أمثال البكري. والإدريسي.

ولعل من أقيم المصادر مشاهداته الشخصية. والروايات المعاصرة له. . والأحداث التي عاشها المؤلف وشاهدها عن كثب.

وميزة بن غلبون بالنسبة إلى غيره من مسجلي التاريخ أنه كان مستعملاً المنهج العلمي. . والمنطق وأسلوب المقارنة والاستنباط في كثير من المواضع. عندما يسرد الحوادث ويسجل الوقائع. . ولو بمقدار نستطيع أن نصنفه من النوع الجدلي وليس مجرد ناقل سارد. وله ـ بشكل ما ـ في بعض الإطارات أسلوب الاستقصاء والاستنباط ـ والتناسق ـ ولا يكتفي كمؤرخ عالم بمجرد السرد وببغائية النقل أو غوغائية الحكايات. بل له أسلوب الناقد. . الفاحص الدارس. .

والنقد لدى بن غلبون ظاهرة أو أسلوب قد جرّ عليه صنوفاً من المتاعب وألواناً من المصاعب في حياته سواء مع الحاكم المتصرف عندما ينتقده. أو عند العامة أو مدعي العلم من المنتفعين بالأوساط العامية. فهو من نمط الجدلي المحاور. من أعلى القمة في سلطة الحكم. وحتى من عامة الناس يلاقي كل ذلك بالمواجهة الصريحة الجريئة ولعل حكايته مع الحاكم الباشا الذي كان على أوثق الصلات به وأمتنها في أول الأمر. حتى وهو في مطاوح الغربة والهجرة العلمية ثم حدث الفتور ـ ووقوع التوتر والابتعاد بسبب بعض الأفراد أو بعض

من المتسلطين الوشاة. . مما يدل على صلابة الموقف وحدة النقد العلني. . وكرامة أهل العلم. وانتقد ابن غلبون معاصريه ـ لم يجامل صديقاً ولم ينافق حاكماً متصرفاً. . وانتقد معاصريه أمثال التاجوري عندما ألف ذيل المعيار في الفقه المالكي. وانتقد علي بن عبد الصادق ـ مع أنه على صلة طيبة به ـ وأيضاً ترجم لهما في كتابه التاريخي هذا. . ولم يهملهما مع عزوفه عن ترجمة كثيرين من المعاصرين ولكن ـ بالأمانة العلمية ـ أشار حتى لمن كان لا يتفق معه في الرأي العلمي والاتجاه الفكري.

ولكنه لم يشحن كتابه بكل ما سمع أو نشر وذاع في محيطه في عالم الترجمة والنقولات. من مشافهات الرواية كما صنع مثلاً المؤرخ النائب الذي كان متأخراً في العهد العثماني الأخير أو في أواخر العهد المتأخر. وفرق كبير بين ابن غلبون والنائب.

بين التذكار والمنهل.

والتذكار والمنهل كتابان متداولان بين أيدي القراء. . تسهل على القارئ المتعمق المقارنة وتتضح بالمقارنة معالم الصورة.

وإن كان كلاهما تصدى للتأليف في تاريخ طرابلس غير أن موضوعية ومنهجية ابن غلبون شيء لا يقبل جدلاً. . ولا تصل إليه شائبة من الارتياب.

وفي غير المجال التاريخي يكون لابن غلبون نشاط في مجال التأليف في علم الفلك وعلم الفرائض. . والمواريث وكان أيضاً شارحاً. . ومن الشرح ـ كمدرس ـ يجد منطلقاً واتساعاً في التعليق والإبانة والشرح.

فقد شرح ابن غلبون نظم ابن سعيد السويسي في علم الفلك. . وهو كتاب ألفه ابن غلبون بعد تأليفه للتذكار بأمد من الزمن. . وكان علم الفلك يدرس أسلوب تلك الأعصر دراسة نظرية وعملية. . مما كانت تسمح به ظروفه في حدود إمكانياته.

وكان ابن غلبون من مدرسي هذا العلم ويدرس الجداول والمنازل ويعمل مزوله.. في المسجد والمدرسة التي يدرس بها ويشرف عليها.

وكان كتابه في الفلك أو شرحه لتلك المنظومة مصدراً اعتمد عليه عالم ليبي آخر عندما ألف في الفلك هو الشيخ قنونو الزليطني. والذي صب معلوماته الفلكية في قالب نظم أيضاً..

وألف ابن غلبون في علم القراءات والمواريث أيضاً شرحاً.. وعلى طريقة السجع في العناوين قدم للناس والطلاب العلم (تحفة الأخوان البهية في المقدمة الرحبية).. ودلت دراساته هذه على اهتمامه بعلوم الحساب والفلك والمواقيت والمواريث والفرائض.. وهذه الأمور المتعلقة بالفقه من ناحية وبعلوم الرياضيات من ناحية أخرى. وكانت رسالته في علم الميراث ـ على ما يبدو ـ في أواخر عمره.. وأما كتابه في التاريخ فقد كتبه في فترة نضجه.. وازدهار شبابه وأثناء تطلعاته وطموحاته العلمية.

وسافر ابن غلبون إلى فزان. يوم أن كان السفر إلى فزان قطعة مزدوجة. من العذاب كان في مهمة.. وأيضاً يظهر في تلك السفرة اتجاهه العلمي من ناحية.. وموقف المصلح صاحب الرسالة من ناحية أخرى.. فهو عالم له موقف.. وهو صاحب الرأي والتصرف ومجابهة الحاكم.. ويقول (لما سافرت إلى بلد فزان حرسها الله. من كل حاسد وباغض وشيطان. وذاكرت فيها نبذة من الزمان طلبة أجلاء محبين وإخواناً، وجلت وترددت وخضت وبحثت ورأيت علم الفرائض وما يتعلق به قد غار ماؤه بلا ارتياب لتشعب مسالكه وتوقفها على الحساب.. إلخ...).

وكان من دوافع هذه الرحلة الشاقة والسفرة البعيدة آنذاك إلى فزان أنه عين عاملاً من طرف الحاكم وساعياً لأخذ وجلب الزكاة الشرعية من أهل تلك الأصقاع... وكان من تصرف ابن غلبون وحزمه أنه أخذ الزكاة المفروضة شرعاً من الأغنياء ولكنه عندما شاهد البؤس والفاقة المتفشية والهياكل البشرية

الجائعة. . وهذه الأيدي المحتاجة إلى الإعانة قام بتوزيع جانب مما جمعه على هؤلاء المحتاجين الجائعين بدل أن يجلبها إلى مقر الحاكم بمدينة طرابلس وهذا ما قرره الشرع: أخذ من الأغنياء وإعطاء للفقراء المحتاجين. وهذا ما قام بصنعه هذا العالم المتمكن. . وتجول من بلد إلى بلد ومن منطقة إلى منطقة. وعاد إلى مقر الحاكم بلا مال وافر مجلوب. بل بألم مضن. . وتصور يؤرق مضجعه وعندما سأله الحاكم؟

ـ أين أموال الزكاة؟ وبماذا قدمت علينا؟ وأين الأموال التي أمرتك بجمعها؟

أجابه ابن غلبون بجواب فيه أصالة الرأي. . وأصالة العالم الحازم.

ـ أخذناها ممن وجبت عليهم ودفعناها لمن وجبت لهم. . وهذا ما بقي منها.

وكان تصرفاً لم يعجب الحاكم المتربع في قصره وقال في نبرة غاضبة ولهجة باشوية مخاطباً ابن غلبون.

ما أمرتك بهذا. . وإنما أمرتك بجمعها وجلبها والإتيان بها إلى بيت المال.

وأجابه ابن غلبون في جرأة وصراحة بلا تلعثم ولا تردد. . لم يتراجع. . لم يعتذر. . .

إن بيت المال خزانة للفقراء. . وقد وجدناهم محتاجين لذلك المال. فلا يجوز خزنه وتركهم جياعاً. .

وقال الحاكم:

ـ إنك رجل متصلب.

وهنا لم يسكت الشيخ ولم ينكث برأسه. . بل رفع صوته ورفع رأسه شامخاً قائلاً: في اعتزاز ومجابهة:

ـ الصلابة في الحق أمر واجب. .

وليت علماء المسلمين تدوي في وجدانهم كلمة ابن غلبون هذه. . . «الصلابة في الحق أمر واجب». هي صدمة للحاكم ولعتوه. . وأثارت مكامن الغضب منه فقال:

ـ إنك لم تعمل بأمري ولم تخضع للومى فأخرج من ملكي وحكمي.

وأجابه ابن غلبون في جرأة أكثر. . وصراحة تحكي قوة الحجة. . وعمق الإيمان.

ـ ميز لي ملكك وملك الله لأخرج من ملكك وأبقى في ملك الله.

عندئذ غضب عليه. . ونفاه إلى فزان وهي تعتبر من المنافي البعيدة منذ أزمان سحيقة فهل بقي ابن غلبون هناك حتى وفاته؟ أم عاد إلى مصراتة وطرابلس؟.

ـ ترى أم دبرت له مكيدة حتى قتل. . فقد قيل أن الحاكم دبر اغتياله. . ولا يبعد فلقد كان هذا الحوار وهذا الموقف واعتقاله مما لا يتحمله الحكام الظلاّم. إن موضوع نفيه. . وموضوع نهايته أمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث والاستقصاء والمقارنة وهل هو الذي انتقد أحمد باشا بعد أن كان متقرباً إليه. . ويطلب منه تأليف شرح على قصيدة تاريخه ويلبي طلبه. . ثم ينقلب عليه. . أم الذي نفاه غيره من الباشوات؟ إنها أمور تحتاج إلى تريث في الإجابة. وبحث يسنده الدليل. ولكن الثابت المؤكد هو جرأة ابن غلبون وصلابته وغضب الحاكم عليه وتحديه له. . سواء كان هذا الحاكم والي باشا أو والي متصرف.

وإن كان أحمد النائب المؤرخ أهمل الإشارة والترجمة لابن غلبون في كتابه المنهل العذب. . فإنه عاد في كتابه نفحات النسرين والريحان. فعوض هذا التغاضي والإهمال. . وكتب ترجمة تعطي بعض الملامح والمواقف عن ابن غلبون.

(محمد بن خليل بن غلبون.. كان رحمه الله تعالى فقيهاً فاضلاً واسع العلم مؤلفاً صوفياً واعظاً. ومن القائلين بالحق والعاملين به.. لا تأخذه في الله لومة لائم.. خطيباً لسناً ألف التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار. (غير أنه كان في اللسان أفضل. كثر امتحانه به والتعرض له بسببه. وذلك أن بعض الوشاة ذوي الغايات وشى للوالي أحمد باشا القره مانللي الباقي جامعه المعروف أن صاحب الترجمة قال: في بعض وعظه وخطبه منتقداً أو معترضاً بأن هذا الجامع بني بأموال حرام).

هذا النص الذي ساقه النائب في كتابه نفحات النسرين له قيمته ودلالته.

وفي الحقيقة ليس الموضوع أن الرجل العالم في لسانه فضل أي زيادة أو سلاطة بل هي أجواء الوشاة من ناحية. وصراحة وصدق العلماء من ناحية.. وغطرسة الحاكم وغروره من ناحية أخرى وعوامل ومؤثرات وأسباب ومسببات هي من عوامل الاضطهاد في عصور الانحطاط والانحدار الفكري وكان ابن غلبون من ضحايا تلك الأجواء وشاية مغرض.. وضيق صدر حاكم مستبد..

وهذه الصورة التي رسمها لنا عن اضطهاد ابن غلبون تعطي فكرة عن صلابته واتجاهه إنه عالم صاحب رأي وموقف.



مصطفى خوجة

ودفتر غدامس

كان من المثقفين في العهد القرمانللي بطرابلس ومن الذين لهم غرام بجمع الكتب واقتنائها والبحث عن النادر حتى كون مكتبة ذات أهمية كانت فيما بعد نواة لأول مكتبة عامة بطرابلس وكان اهتمامه أكثر بكتب التاريخ والنُسخ النادرة والطريف منها.

وله ميل إلى تسجيل التواريخ ونقل أشياء من وثائقه.

وقد حفظ لنا مصطفى قاسم خوجه المصري الطرابلسي كتابين لم يكونا من تأليفه هو.. ولكن له فضل إنقاذهما من الضياع ولولا اهتمامه بهذين الكتابين لضاعا في خضم الإهمال كما ضاع من المكتبة العربية والتاريخية شيء كثير..

الكتاب الأول من الشرق.. من مصر. والكتاب الثاني من واحة غدامس من أطراف ليبيا. الكتاب الأول عنوانه:

ـ أوضح الإشارات فيمن تولى مصر ـ القاهرة ـ من الوزراء والباشوات.. تأليف المؤرخ المصري ـ أحمد شلبي عبد الغني والنسخة الوحيدة الفريدة في العالم مخطوطة ومحفوظة بمكتبة جامعة بيل بالولايات المتحدة الأمريكية..

والمؤلف سجل أحداث مصر في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي ـ الحادي عشر الهجري. وإلى فترة وفاته 1150هـ 1737م.

وهذا الكتاب الذي ألفه أحمد شلبي أو جلبي عبد الغني يعتبر من أهم المصادر التي اعتمد عليها الجبرتي في تاريخه ومصطفى خوجة الطرابلسي نسخ بيده النسخة الوحيدة الباقية الآن في مكتبة جامعة «بيل» الأمريكية!

أرأيت كيف يرحل الكتاب.. ويختفي ويظهر.. ويخلد..! وفي ختام النسخة يقول مصطفى خوجة:

«.. وقد كتبه الآن العبد الفقير الحقير الكاتب مصطفى خوجة بن قاسم بن عبد اللّه قرشي النسب.. طرابلسي الدار.. حنفي المذهب. أشعري الطريقة لنفسه، ولمن شاء الله من بعده طالباً للأجر وجزيل الذخر. وفي أواخر ثاني الربيعين سنة 1210هـ من الهجرة النبوية (1715م).

* * *

والكتاب يقع في 532 صفحة

سجل فيه مؤلفه أحداث ووقائع من تاريخ مصر في العصر العثماني، سيما في القرنين السادس عشر، والسابع عشر سنة بداية الحكم العثماني حتى عام 1150هـ ـ 1737م والفضل في استكشاف هذه النسخة الفريدة والعثور عليها لصديقنا الدكتور ـ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ـ المدرس بكلية البنات بالجامعة الأزهرية.

وهو الآن عاكف على دراسة هذا النص ـ وقدم بحثاً عنه في مهرجان «الجبرتي الذي عقد بالقاهرة».

وعندما ورد اسم «مصطفى خوجة» أكدنا له أنه ليبي طرابلسي.. كان مهتماً بالتاريخ واستنساخ مراجعه، وتأكد هو من خطه المغربي.. وإشارته والدكتور ـ عبد الرحيم ـ يعد بحثاً عن النسخة لنشرها.

* * *

توفي مصطفى خوجة سنة 1213هـ 1897م.

وفرغ من نسخه لكتاب أحمد شلبي عام ـ 1210هـ ـ أي قبل وفاته بثلاث سنوات. .

وغريب أمر ترحال وتجوال الكتب!

كتاب يؤلف على شاطئ وادي النيل وينقل المؤرخ الجبرتي منه نصوصاً. . وكان في حوزته. .

ثم يفقد الكتاب ويختفي. . فترة من الزمن. . ثم يخطه ناسخاً مهتماً به مثقف من وجهاء وكبار المسؤولين في طرابلس الغرب ثم مرة أخرى تطوح به الأيام. . ويحفظ في مكتبة في جامعة بالولايات المتحدة الأمريكية. والفضل في بقاء هذه النسخة للكاتب مصطفى خوجة.

ويحفظ لنا مصطفى خوجه كتاباً تاريخياً آخر. . وأيضاً غدت النسخة الفريدة الوحيدة. . وأيضاً غريب أمر هذه السياحة والترحال لهذا الكتاب.

يسجل في واحة غدامس ونسخته تحفظ في مكتبة مصطفى خوجه ومدرسته بطرابلس. ثم يذهب هذا الكتاب إلى أوروبا. . إلى باريس وهو كتاب نسخته نقلت بخط مصطفى خوجة من زمام بلد غدامس. . فما هي حكاية هذا الكتاب الذي يؤرخ ويتحدث عن واحة غدامس؟

الكاتب مصطفى خوجة نسخ تقيدات من واحة غدامس قبل وفاته باثنين وثلاثين عاماً. أي وهو في ريعان الشباب. . ونقلها من وثائق غدامس ومعنى ذلك أنه رحل إليها. . أو هل نقلت إليه؟ الغالب أنه كتبها بخط يده نقلاً عن سجلات ووثائق مدينة غدامس. . كما يشير سطر الكلمة الموجزة في المقدمة أو التعريف (هذه نسخة نقلت من الزمام بلد غدامس القديم نصه بعد سطر افتتاحه).

والزمام هو السجل والقيد ويقصد به السجل القديم الذي كان في بلد غدامس وليته أثبت لنا سطر افتتاحه علنا نعثر على شيء قد يدلنا على أشياء أو يعطينا سطر الافتتاح ضوءاً يؤدي إلى مسرب أو ساحة من الساحات المتعرجة في الطريق التاريخي.

ومصطفى الكاتب ابن قاسم الخوجة المصري من مواليد طرابلس وبها نشأ وتكون ودرس العلوم على أساتذة عصره منهم الفقيه الناظم محمد بن سالم الفطيس والفقيه عبد السلام بن ناصر وشيخ من أفريقية السمراء متصوف مكث بطرابلس هو محمد عبد الرحمن الكانوي البرناوي وكان من المقربين لعلي باشا القره مانللي. على الأول فقد شغل مصطفى خوجه منصب مستشار في حكومة علي باشا القره مانللي. . وكان من كتبة الديوان في عهده ومن مؤلفاته (المسائل المهمة والفوائد الجمة فيما يطلبه المرء لما أهمه). وهو كتاب لا صلة له بالتاريخ إنما مجموعة من المطالعات والفوائد وأشرنا إليه في فصلة كتبناها عن مصطفى خوجه في كتابنا لمحات أدبية عن ليبيا. . . وتوجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة الأوقاف بمدينة طرابلس.

إنما الكتاب الذي له صلة وموضوعه تاريخي هو هذه الرسالة أو هذه الأوراق التي نقلت ونسخت من سجلات مدينة غدامس. . وحوت موضوعات ونقاط ذات أهمية تاريخية. .

دفاع أهل غدامس عن واحتهم.

نظام توزيع مياه عين غدامس.

تقسيم القبائل والأحياء.

حملات على غدامس. . حملة رمضان باي.

وحديث شاهد عيان عن تنظيم الدفاع الشعبي عن الواحة.

عادات وتقاليد وأنساب.

الشيخ عومر خالد شيخ من غدامس وموقفه في الدفاع عن الواحة.

وإشارات أخرى يجد فيها الدارس التاريخي والاجتماعي مواد ونقاطاً تمده بكثير من الحقائق. وكان قد فرغ منها المؤلف أو المقيد والناقل عام 1181هـ ــ 1768م.

ويبدو أن هذه التقيدات التي نقلها وحفظها لنا مصطفى خوجه كانت من

تأليف شيخ غدامسي، وكانت في أصلها عبارة عن جواب لسؤال وتلبية لرغبة بدليل هذا النص في الصفحات الأولى:

(قد سألني بعض الإخوان أن أكتب لهم ما وجدناه في عقود الأوائل وما سمعناه من الذي أدركناه من أكابر البلاد في عوايد غدامس من السالفات في مصالحها. . وبنيان السور والبيبان. . وعقر العريان ولزمة الترك. . والمؤونة ومجاري الماء وغير ذلك والله الموفق).

إذاً مصادر الكتاب أو الرسالة. . عقود الأوائل وسماع من كبار أهل البلد والحديث عن السور التاريخي والأبواب. . وما فرضه الأتراك من ضرائب. . ومجرى عين غدامس. . كلها أمور تاريخية تجد اهتماماً من مواطن على قدر من الوعي والاطلاع. .

ومن هو هذا المؤلف الذي وجه إليه ذاك السؤال فأجاب بهذا الكتاب الذي غدا من أوثق مصادر تاريخ الواحة. من هو هذا الكاتب الذي أجاب رغبة بعض الأخوان. لم تشر السطور التي كتبها والتي نقلها الناسخ المثقف مصطفى خوجة. . من هو؟

وإن كانت الدلائل لا تدل على أنه كان معاصراً لحملة رمضان باي كما ستأتي الإشارة إلى ذلك، ثم أن هذه السطور على اقتضابها تدل على منهجه وطريقة تناوله لموضوع تاريخ واحة غدامس هي مصادر مكتوبة. . ومصادر مشافهة. .

ما وجده في عقود الأوائل. . وما أكثر ما كان منها في غدامس.

ثم ما سمعه من الذين أدركهم من أكابر أهل الواحة.

ثم تناولت النسخة عوايد أهل غدامس من قديم في تنظيم العلاقات، وتوزيع المسؤوليات وتحدث عن السور والبناءات وعدد القبائل العربية وغير العربية وكلها أشياء تاريخية واجتماعية ذات قيمة علمية وقبل أن يدخل على الموضوع بالتفصيل باعتباره شيخاً له نصيب من الدراسة الشرعية قدم للكلام

بشيء من النصيحة بأسلوب الوعظ والإرشاد وأوصى بالتقوى، والتواضع وإقامة الشعائر ثم ساق قصيدة أو كلاماً منظوماً بأسلوب تقليدي لا صلة له بموضوع الكتاب التاريخي. . إلا أن هذا التمهيد وهذا الانعطاف في الكلام ينم عن مشاعره الدينية ورغبته الإصلاحية وهو شيخ من شيوخ الواحة. .

ثم يبدأ الموضوع الذي يتصل بتاريخ واحة غدامس ويسوق نصوصاً هي من صميم الموضوع التاريخي وإن كانت من المرويات والمشافهات كما يبدو.

(. . وبعد ـ فاعلم أيها الواقف على هذا أن بلاد غدامس بلاد قديمة من زمان النمرود بن كنعان بن سام بن نوح وقيل قبله. . وقيل فارس من قوم النمرود الذي خَرّج ماء عينها ـ ثم بعد ذلك جازت قافلة على الوادي وقيلوا في الوادي، وتغدوا هناك، ثم رحلوا وساروا إلى أن باتوا، فلما أصبحوا أرادوا الرحيل ففقدوا آلتهم من الأكل، وقال أحدهم، نسيناها في غدانا أمس، ثم رجع فارس منهم على إثرهم حتى أتى إلى الوادي وترجل عن فرسه يطلب آلته، وإذا بالفرس تنبش الأرض وينبع من ذلك الموضع الماء ولذلك سميت بعين الفرس. وسميت البلاد بغدامس وقيل أول من سكنها أغدامس بن سام والله أعلم.). اهـ.

وهذه من الخرافات والأساطير المتداولة في تسمية البلدان. . وكل الشعوب لها لون من الأساطير والحكايات حول تسمية البلدان والبقاع منها ما هو من الخيال سدى ولحمة. .

وهنا إزاء هذه الحكاية التي يظهر عليها ملمح الأسطورة أبسط ما يوجه من تساؤل. .

هل كل النمرود وأهله يعرفون اللغة العربية حتى يقول هؤلاء غدانا أمس؟ بهذا الضبط والإيقاع؟ ولا شك أنها تضاف إلى وادي الخرافات الشعبية لا إلى التحقيقات والحفريات اللغوية لأسماء البقاع والأمكنة، إنها مثل الحكايات والأساطير المتعلقة باكتشاف البقاع أو بناء المدن وليس هنا مكان تفصيل هذا اللون من التفكير الخرافي. .

إنما نكتفي بالقول هنا بأن غدامس هي سيداموس وهي كلمة غير عربية ولا صلة لها.. بغدا.. أمس.. أو غداً البارحة وأول أمس.

وحكاية اكتشاف عين الفرس أضيفت إلى أكثر من عهد من العهود التاريخية القديمة.. والله أعلم.

ومن طرائف ما كان يروى ويسوقه المؤلف لهذه الرسالة عند الحديث عن اكتشاف هذه العين التي هي شريان الحياة في الواحة.

(.. وتخرج في الزمان عين أخرى في الجانب البحري ويكون سبب خراب غدامس خروج هذه العين).

ويهتم المؤلف الغدامسي بتاريخ عمران ومسكن الواحة وأصول القبائل وتفريعاتها.. عربية وبربرية أمازغية.

(.. وأول من استوطنوا غدامس بنو ماني، وبنو مازيغ وأصلهم من قرارة بعين بنوها وعمروها، وتناسلوا فيها حتى صارت مدينة ـ ثم خربت، ثم صارت قصوراً ثم خربت، ثم صارت مدينة، ثم انقرضوا بنو مازيغ، وعصبوهم بنو ماني وتولوا البلاد فلم يزالوا على هذه الحالة إلى أن تولى ورنوغا يعني بنو ماني تفرعوا على ثلاثة فروع.

فرع خلف شارع بني ذرار.

وفرع بني فضل.

وفرع خلف ورنوغا.

ثم ورنوغا خلف واجليد ـ وواجليد خلف وليد ـ ودازيت ووليد خلف أولاد ليروهم ـ وأبي بكر وموسى.. ثم أبو بكر المذكور خلف أولاد داوود ـ وأما موسى خلف محمد بن موسى، ومحمد المذكور خلف ثلاثة أولاد وهم ـ موسى ـ وإبراهيم ـ وأكيار ـ وإبراهيم المذكور خلف أولاد إبراهيم ـ وأما كيار خلف أولاد كيار ـ وأولاد بربر وأما موسى خلف أولاد موسى ـ وعندهم سبعة ديار حمران أمر ولا يتهم بني وليد المذكور.

وأما بني درار كلهم ولد يونس بن طلح). اهـ.

ويلاحظ أنه يوجد في الواحة ـ ضرار ـ في رأس الغابة ـ مران ـ ويوالي سرده للقبائل بالواحة وتفريعاتها سواء من أصل عربي أو بربري امازيغي طارقيّ ثم يعود ليرى أن غدامس من زمن سيدنا إبراهيم الخليل قبل النبي محمد صلوات الله عليه بثلاثة آلاف سنة. وفتحها سيدنا عبد اللّه بن جعفر أرسله عقبة بن نافع عندما كان بأفريقيا وكان فتحها صلحاً وليس عنوة ويشير إلى وجود الأصنام المنحوتة هناك وقد تركها الفاتحون على حالتها إلى الآن، وهي من الآثار والأطلال القديمة في غدامس.

ويرى المؤلف أن أولاد قاف أصلهم من دمشق وأولاد بن ديلم جدهم الأعلى حسان بن ثابت الأنصاري صاحب الرسول وشاعره وأما بنو ياقوت من ورغما. والفاضلات أصلهم من أوجله.

ويتحدث عن العيون في الواحة.

(.. وخرجوا لهم ساقية تنويش ـ يعني أول الحال أعين لها ثلاثة سواق الكبيرة الجانب الشرقي المعروفة بتاسك والوسطى من الجانب البحري المعروفة بتارط والصغيرة ـ من الجانب الغربي المعروفة بتند قزان). اهـ.

ويتنازع هؤلاء على الرياسة وليد وأخوه وأزيت، ورحل وليد للجانب البحري ودازيت للجانب القبلي حتى استفحلت بينهم المنازعات والمصاولة.

ويتحدث المؤرخ الغدامسي عن مراحل تاريخ الواحة التي هددتها ومزقت هدوءها قوات الاستبداد من الخارج في عهود الولاة.. والبايات.. والسلاطين.. وتنوعت الحملات. كانت الواحة لا تفرض عليها غرامات وأتاوات إلى عهد الدولة الحفصية.. ثم عكرت صفوها حملات المخازنية والقواد من العسكريين المغامرين الأتراك وغيرهم، ومن هذه النصوص تتبين المعاناة التي عاناها شعب الواحة.. (.. وغدامس ليس لهم المغرم للسلطان إلى الدولة الحفاصة وبعد زمن يرموا عليهم رمية المخزن ثم يبعثوا قياداً

ويفسدون بالجور وأول من فرض قطيعاً معلوماً على غدامس ودرج مولانا أبو فارس. . فرض عليهم أربعمائة مثقال بل ويزيد على ذلك واستمر كذلك في دولة الحفاصة والترك). اهـ.

كانت غدامس تدفع إلى خزينة السلطان مثاقيل الذهب وينصرف مندوب الوالي أو السلطان البعيد ولا يصل إليها من أمور الإصلاح شيء. . بل جهد أبناء الشعب وحركتهم الاقتصادية ونظام القوافل هو الذي كان المورد والمصدر. . هو الاعتماد على الذات ولم يدخلها من يسرقها علناً. مثل ما صنع الذي حكى عنه المؤلف الكاتب.

(. . وما سمعنا ظالماً دخل غدامس وفياها عدا قايد إبراهيم من قياد بني حفص.

وأما في دولة الترك كل عام يبعثون شاوش ويعطوا له أهل درج وغدامس من غير زيادة ولا نقصان). اهـ. ويبرم الشاوش شواربه ويمضي بمثاقيل الذهب بعد أن يأخذ ما تيسر من الرشاوي باسم الهدايا ثم لم يتركوا الواحة في هدوئها وصمت أحزانها والتزامها بما ألزموها به بل ها هي أنواع من حملات العسكر تتوالى في كوكبة ودبدبة عندما شعروا بأن غدامس تكاد أن تكون مستقلة أو ذات تسيير ذاتي. .

(وجاءها القايد يوسف بحملة، ورمى عليهم رمية المخزن وذلك سنة 862هـ ـ 1457م ثم أيضاً سنة 873هـ 1468م (في القرن الخامس عشر الميلادي). القايد أحمد ورمى عليهم رمية المخزن وقدرها ثلاثة آلاف مثقال. ثم قدم حسين باي. . ويشتهر بحسين النعال 883هـ ـ 1478م، وغلقوا دونه البيبان ثم عاد بعد الألف «1001هـ 1592م». جاءهم الباي درويش بحملة ورمى عليهم خمسة آلاف مثقال ـ رمى أي فرض وأجبرهم ـ وقسم القطيع ففرض على ـ درج ـ مائة وواحد مثقال وعلى غدامس ثلاثمائة مثقال. والنصف على بني وليد والنصف على بني وازيت واستمر الأمر كذلك كل عام يأتيهم شاوش ويعطوا له ذلك). اهـ.

(والفرق على النخيل والماء على المنفعة فبعد كل سبعة سنين يغيرون الغاية ويقسمون عليها النصف على بني وليد والنصف على بني وازيت). اهـ.

ويتحدث عن الحملات التي تعرضت لها غدامس ومن أهمها خمس حملات تعرض لها شعب غدامس ولم يستسلم..

(.. وبلاد غدامس جوها خمسة محال ولا خشها أحد إلا ببعضهم بعضاً ثم يصالحون مخافة على النخيل وأما الخروج لا يخرجون منها يضربون على أرواحهم من البلاد وجاءتها حملة القايد رمضان). اهـ.

وهنا نقطة ذات أهمية. فهذه إحدى الحملات العاتية كان من معاصريها ومشاهديها بل ومن الذين قاوموا مع صفوف الشعب في غدامس هذا الذي كتب وقيد هذا التاريخ مصدر معاصر.. وشاهد عيان. وما رأى كمن سمع.

يحكي لنا وصفاً من مشاهداته ويثبت لنا وثيقتين هامتين هما:

رسالة من صاحب الحملة.

ورسالة من شيخ غدامس.

ويصف لنا أيضاً ملامح رمضان باي صاحب عسكر تونس وهي من أهم الموضوعات التي تطرق إليها مع وصف عين غدامس.. وطرق توزيع المياه بها.

ويقول صاحب المشاهدات ومؤلف الكتاب:

(ونكتب لك إن شاء الله كيف صار بينهم وبين أهل البلاد والمحلة بعدما عينا ذلك وحضرناه الحمد لله من تواضع لله رفعه ومن تكبر عليه وضعه ومن توسل إليه بنبيه محمد ﷺ حماه ورفعه.

فاعلم أن رمضان باي صاحب عسكر تونس فهو رجل شديد أشقر الشعر، يظ العنق.. طويل القامة كلامه رعد قاطع). الخ.

هذه صفات ملامحه.. تؤكد أنه شاهده ورآه وعاين تصرفاته.. والمؤلف

هنا يؤكد لنا أن هذا القائد صاحب الحملة له سنوات وهو يهدد وينذر ويتوعد غدامس بالقدوم إليها إن لم تبادر وتدفع ما يفرض عليها.

(.. وله منذ ستة أعوام يذكر القدوم إلينا). اهـ.

ويتبين هنا صورة من استعداد غدامس وتهيئتها لصد هجمات الحملات. لقد طلب القايد رمضان أن ترسل له غدامس ما يريد وإلا.. هجم عليها.

(وأقرب ما كان بعث إلينا كتاباً يريد أن نبعث له ثمانية عبيد قياد والدارطواش عمر كل واحد 15 عاماً مع ثمانية خدم ملاح عمرهم مثل عمر الفتيان ومائتين جلد شرابة) اهـ. فماذا كان جواب أهل غدامس على هذه الطلبات التي صحبتها نغمة تهديد من رجل يوصف بأنه صوته كالرعد.. لقد اعتذر أهل غدامس في أدب ولطف محتجين بضعف الحال. وقلة المورد.

فهل من حياء يمنع أو يحول القائد الظالم من الهجوم على غدامس (.. ولا بعتنا له ذلك.. وحاولنا بالتلطف وضعف الحال فلما قدر الله بقدر منه تواترت علينا الأخبار بأنه قادم لبلادنا بجيشه ونحن حينئذ مخادمين تحت السلطان ونؤدوا النايب الذي علينا). اهـ.

هذه الواحة البعيدة يطمع فيها السلطان وأعوانه وموظفوا الولايات فتعطي وترهق بالضرائب والجبايات. والمفروضات. ليس هذا.. فحسب.. بل هي لا يدعونها آمنة مطمئنة.. بل ها هي حملة من قادة تونس تهددها.

ولم يغفل أهل الواحة بل يتساءلون عن الأحوال ويرسلون في طلب الأنباء.. ماذا في الأفق من مخاض دموي.. ويتحدث المؤلف في سطور تعطي أبعاد الصورة وملامحها.

(.. وكتبوا لنا أولادنا في طرابلس بأنه قادم علينا).. إذاً وجب الاستعداد والتهيؤ للملاقاة الدامية.. كيف كانت المعركة.. والتخطيط لها؟

(.. أرسلنا رجلين لجبل الأعراض يلتمس لنا الأخبار فبعد أيام رجعا

وقالا لنا الحملة وصلت ـ تطلون ـ ثم أرسلنا رجالة إلى سيناون ورجع لنا ثم انقسم أهل البلاد على ثلاثة أقسام.

كل يقيمون نهارهم بالبنيان وتهريس البارود ويقيمون ليلهم بالعسة.

فأهل شارع ـ تفرفرة ـ وشارع تصلك ـ فزعة ـ وتوفزين ـ وبني درار ـ قسم ـ وجرسان ـ وبني مازيغ ـ قسم.

واتفق أهل البلاد إذا وصلت الحملة يرحل الشيخ عمر بن محمد بعياله ويسكن في ـ بني وليد ـ ويرحل الشيخ أبو بكر بن الشيخ موسى بعياله ويسكن في دار عومر المذكور لأجل تستهني البلاد وينصح في بعضهم بعض).

هذا الاستعداد والتنظيم يعطي فكرة عن تماسك أهل غدامس ودفاعهم في سبيل بلادهم.. تنظيم في الشوارع والمحلات وتصيد الأخبار.. وبعضاً منهم جعلوه لرفع الروح المعنوية إذ ينصح بعضهم بعضاً.. كما وزعوا الشيوخ على الأحياء والمناطق، والشيخ عمر انتقل ليسكن في بني وليد.. وهو من أحياء وشوارع غدامس.

ويحكي المؤلف عن كيفية المقاومة في صورتها كما شاهدها المؤلف.. وهي من الوثائق النادرة عن المقاومة الشعبية لأبناء الصحراء والواحات أيام الغزاة والحملات المدمرة..

(.. ثم أن المرسول رجع إلينا من سيناون.. وعلم بالحملة مصوبة إلى درج ـ وجاءت إلى درج ـ وفيتها وربطت خاصتها). اهـ.

وسيناون.. ودرج ـ من المناطق في طريق غدامس كما ذكر في التاريخ الصحراوي.. لا سيما أيام تجارة القوافل.. وفيّتها.. أي غارت عليها ونهبت ما بها.. والتعبير من الفي وهو تعبير ليبي متداول له أصل من الفصيح وربطت خاصتها أي سجنت وحبست أعيانها وأهل الواحة بها.

(وفيت أيضاً تقهه وهدت قصرها وفيت ماترس.. ورحلت مرحلتين.

والثالثة نزلت.. ترفين.. ونحن ظاهرين إذ قدم علينا أبو القاسم القرجوم بكتاب من الظالم المذكور ودفعه إلى شيخ غدامس الشيخ عومر بن محمد بن خالد بن سليمان من بني وازيت). الخ.

وقد ساق المؤلف في كتابه نص الخطاب.. وهو أيضاً وثيقة تاريخية.. وتكمن الروعة والشجاعة في شيخ غدامس على خطاب المتهدد المتوعد.. صاحب الحملة فكان رداً صريحاً.. واضحاً ليس فيه تردد الخائف ولا تلعثم المتردد.

والخطابان المتبادلان من الرسائل النادرة في تاريخ هذه الحملات والمقاومة الشعبية.. ولولا حفظ المؤلف لهذا النص. ولولا اهتمام مصطفى خوجة باستنساخ هذا الكتاب.. لضاعت هذه النصوص كما ضاع الكثير من المصادر التاريخية التي تكشف كثيراً من الحقائق.

أما خطاب صاحب الحملة فهذا نصه كما أورده المؤلف.

(.. الحمد لله والصلاة والسلام على نبيه.

ـ من عبد اللّه سبحانه صاحب الحملة المنصورة بالله رمضان باي. ـ أيده الله تعالى..

إلى ولدنا صاحب الفضل والجمال الشيخ عومر بن الشيخ محمد شيخ بلاد غدامس.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولا زايد بعد حمد الله إلا حبكم ووددكم وأنتم منا وإلينا وسبق في علمنا أنك خديم الدار الكريمة من غير شك وتوفر علينا لخدمتك للدار الكريمة.. وشكرنا فضل إحسانك.. وجزاك الله عنا خيراً.. واعلم الآن ما عندنا إلا ما عندك. وبلد غدامس لنا سنجق، ونحن قدمنا عليكم ولا نبغوا إلا عمارة البلاد. وتكون أنت على يدنا.. وتخدم الدار الكريمة كما كنت تخدمنا في استخراج حقوقنا وقد أتينا بكتاب من صاحب المخزن المعمور وديوان العسكر

(.. فلما ورد عليه الكتاب.. وقرأه.. غضب غضباً شديداً فلما طلعت الشمس.. ورد علينا بخيله خاصة وحلق على البلاد.. وفي صبيحة يوم الخميس في سبعة وعشرين من رمضان 1018هـ 1609م ثمانية عشر بعد الألف سحلت علينا العسكر في عدد وعدد.. وجد وجديد). اهـ.

والمؤلف كان دقيقاً في وصفه.. أميناً في نقله فهو يذكر في تقييداته إحصائية بالحملة وأنها كانت تحوي ألفين وخمسمائة..

منهم أربعمائة خيل وثلاثة آلاف بعير.

وأربعمائة غرارة.

وجنود ورجال.

فماذا كان من أهل واحة غدامس؟.

(.. والتمت أهل البلاد من كل جانب ومكان.. والتقى الجمعان وعظم القتال.. حتى عاد النهار ليلاً من كثرة البارود ولا تسمع غير تصفير الرصاص وتغريد المدافع فيا له من يوم ما أعظمه. ومن هول ما أشده).

وحتى نساء البلد في غدامس قاومن حملة رمضان باي، وهو نص ذو أهمية يؤكد دور المرأة حتى في الواحات البعيدة في صد العدوان في القرن السابع عشر.

«فلو رأيت نساء البلد الأحرار كشفوا عن وجوههم».

ثم يتحدث عن كيف رفع الناس المصاحف.. والاستغاثة والنداء.. ويقول..

«.. وبقدر الله نصر أهل البلاد وهزموا الحملة ونزلت مما يلي بني وليد.. في اليوم الأول نزلت على وازيت ومات من رجالنا ثلاثة.. ومات من الحملة عدد كثير». اهـ.

وكما سجل المؤرخ لقد بدأ القتال في ليلة القدر في رمضان ولم يراع

(. . فلما ورد عليه الكتاب. . وقرأه. . غضب غضباً شديداً فلما طلعت الشمس. . ورد علينا بخيله خاصة وحلق على البلاد. . وفي صبيحة يوم الخميس في سبعة وعشرين من رمضان 1018هـ 1609م ثمانية عشر بعد الألف سحلت علينا العسكر في عدد وعدد. . وجد وجديد). اهـ.

والمؤلف كان دقيقاً في وصفه. . أميناً في نقله فهو يذكر في تقييداته إحصائية بالحملة وأنها كانت تحوي ألفين وخمسمائة. .

منهم أربعمائة خيل وثلاثة آلاف بعير.

وأربعمائة غرارة.

وجنود ورجال.

فماذا كان من أهل واحة غدامس؟.

(. . والتمت أهل البلاد من كل جانب ومكان. . والتقى الجمعان وعظم القتال. . حتى عاد النهار ليلاً من كثرة البارود ولا تسمع غير تصفير الرصاص وتغريد المدافع فيا له من يوم ما أعظمه. ومن هول ما أشده).

وحتى نساء البلد في غدامس قاومن حملة رمضان باي، وهو نص ذو أهمية يؤكد دور المرأة حتى في الواحات البعيدة في صد العدوان في القرن السابع عشر.

«فلو رأيت نساء البلد الأحرار كشفوا عن وجوههم».

ثم يتحدث عن كيف رفع الناس المصاحف. . والاستغاثة والنداء. . ويقول. .

«. . وبقدر الله نصر أهل البلاد وهزموا الحملة ونزلت مما يلي بني وليد. . في اليوم الأول نزلت على وازيت ومات من رجالنا ثلاثة. . ومات من الحملة عدد كثير». اهـ.

وكما سجل المؤرخ لقد بدأ القتال في ليلة القدر في رمضان ولم يراع

المعتدي الآثم حتى حرمة شهر رمضان وداوم القتال إلى يوم العيد. . حتى في الموسم في الشهر الحرام. . من فئة ادعت الإسلام. . والجيرة ويصف المؤلف الغدامسي تلك الأيام:

(ولما دامت المعركة والقتال اليوم الثاني والثالث إلى أن يحول بين الناس الليل وفي يوم الفطر أتانا العجمي وطلب منا الصلح). اهـ.

وقبل أهل الواحة الصلح بعد انتصارهم إنقاذاً للنخيل وخوفاً على هذه الثروة الزراعية فقد قطع على بني وليد خمسمائة نخلة وقبل أهل البلد المصالحة بخمسة آلاف يدفعونها لهذا الظالم. . ورحلت المحلة. . أي الحملة. . بعد أن صرع من جنودها أزيد من مئة.

ومات من أهل البلد عشرة من الأحرار. . وعشرة عتري ـ على حد تعبيره ـ وكان رحيلها يوم الثاني عشر من شوال. .

ومن الطريف أن يصور ملاقاة جند الأتراك العتاة الظلمة فيقول مما يدل على أن رسالته هذه والصفحات التي أرسلها. . كانت على شكل تأليف.

(. . ويا أيها الواقف على هذا إذا دهمتك محاربة الترك فأنها أشد مرارة فاستعن بالله وتوكل على الحي الذي لا يموت واعمل مثل ما عمل قبلك يعني كيف نزلت علينا المحلة). اهـ.

وينصح المؤلف أهل بلده بالتعاون ويذكر بعض العادة والتقاليد في الواحة. . وهي تقاليد عريقة ذات مظهر حضاري.

ويشير إلى تقسيم القبائل وتفريع العائلات وتقسيم الأحياء والمناطق والشوارع. . وهي حقائق وأمور ذات أهمية لدارس هذه الواحة والمتأمل في تقاليدها وتراثها.

ولا نريد أن نطيل هنا في اقتباس النصوص. . فالرسالة أو الكتاب هذا جدير بالنشر والتعليق في بحث ودراسة أوسع نطاقاً.

يذكر في الكتاب التقاليد المعتادة في بناء السور والحفاظ على أبوابه. . وعين الماء التي في الواحة. . عين الفرس. . والتنظيم المائي حسب أصول هندسية وتقسيمات متعارف عليها بين الأحياء والعائلات. . وهي مصطلحات وتقسيمات دقيقة لا تخلو من مصطلحات فنية وخبرة علمية.

إن عين غدامس. . من أشهر عيون العالم في تاريخها ومن أعرقها في العادات والتقاليد والتنظيمات التي جعلت للواحة طابعاً معيناً مميزاً.

فضلاً عن المعمار والبناء والممرات والأسقف والدهاليز. ويتحدث عن كيفية ـ القادوس ـ السطل ـ وثقبه وتدفق المياه منه بعملية حسابية دقيقة حسب أصول وقواعد متوارثة. وتقسيم الماء بالعدد. . وأجرة الكيال. . ومن يكتب ويقسم حصص الماء بين الناس. . الخ.

وجاء في ختام الصفحات لهذه الرسالة العلمية الدسمة.

(وهذا ما وجدناه قيدناه وبالله التوفيق على أفقر الورى وأحوجهم إلى رحمة الله الكاتب مصطفى خوجه بن قاسم المصري كفله الله بمنه. . تاريخ 7 محرم الحرام فاتح 1181هـ). اهـ.

وهكذا كان الفراغ من نسخها عام 1181هـ الموافق 1767ف.

وبالكلمات مصطلحات وتعابير ليبية منها:

عوايد = رسوم = ضرائب	خاصتها = وجهاء وأعيان
لزمة = عهدة أو احتكار	سبيل العادة = الأمر المعتاد = المألوف
قيلوا ـ ارتاحوا وقت القيلولة	حلق = دار به. . طوقه
الأصنام = الآثار	غراره = شكارة
المغرم = الآتاوات. . الضرائب	القادوس = دولاب لجريان الماء
المخزن = الحكومة أو الإدارة	البيبان = جمع باب في اللهجة
فيّاها = نهبها	والفصيح أبواب

النفاق = التمرد

يخسروها = يصرفو عليها

الحيوط = حوائط

سنجق = علم = . . إدارة

رمية المخزن = حملة السلطان أو الدولة

محلة، محال = حملة

عتري = زنوج

تهريس البارود =

عسة = حرس

تتهنى البلاد = تطمئن من الهناء

المرسول = الموفد = المرسل

ربط ـ ربطت = حبس

حسونة الدغيس الطرابلسي

وكتاب: المرآة ـ لكاتب جزائري

هذا كتاب من أهم مصادر تاريخ الجزائر ألفه جزائري.. وقام بترجمته مثقف من طرابلس، كتبه رجل من خيرة رجال عصره.. ومن الذين شغلوا بقضية بلادهم.. وحمل عبئها في داخل الوطن وخارجه وكانت له نظرة فاحصة كإنسان مثقف هو حمدان عثمان خوجه الجزائري.

وكان هناك صديقه، والذي تعاطف معه في نضاله والتعريف بقضايا المغرب.. أيضاً هو رجل من أبرز شخصيات عصره في بلده.. المثقف الدبلوماسي حسونة الدغيس الطرابلسي.

والذي كان من طلائع المثقفين في جيله والذي احتك بالحضارة الأوروبية واتصل بها قبل ـ رفاعة الطهطاوي ـ بمراحل وفترات.. وكتاب المرآة يدخل من باب التاريخ لأنه من وثائق تاريخ الجزائر في فترة الغزو الفرنسي من ناحية، وقد تضمن جوانب من تاريخ الجزائر وقضيتها السياسية والاجتماعية، وبه لمحة تاريخية مدعمة بالإحصائيات والأسلوب العلمي، وكتبه المؤلف حمدان عثمان خوجه باللغة العربية ونقله وترجمه من العربية إلى اللغة الفرنسية صديقه حسونة الدغيس عندما اجتمع الاثنان في مدينة باريس. كلاهما يحمل قضية بلده.. وهموم مجتمعه. فمن هو هذا المؤلف بالعربية؟ ومن هو هذا المترجم إلى

الفرنسية؟ وما هي ظروف هذا اللقاء الذي أثمر عملاً علمياً أكسب المكتبة التاريخية أثراً هاماً. . ومرجعاً مفيداً؟ ولولا ترجمة النص من العربية إلى الفرنسية وطبعه والتعريف به. . لضاع. . فجهد حسونة الدغيس وعلاقته بالكتاب لا يقل أثراً وعلاقة عن جهد المؤلف المناضل ـ حمدان بن عثمان خوجه الجزائري. .

كان ميلاده حوالي 1189هـ ـ 1775م وهو جزائري المولد والنشأة والعاطفة والوجدان وإن كان من أب تركي وأم جزائرية وكان صوت حمدان عثمان خوجه قوياً واضحاً في الدفاع عن حقوق الشعب الجزائري. . عاش طوال حياته مناضلاً وكاشفاً لأساليب الغزو والاستعمار الفرنسي وتوفي عام 1255هـ 1840م بمدينة إسطنبول عاصمة الخلافة آنذاك أيام السلطان عبد المجيد.

والمترجم حسونة الدغيس كان في فترة وزيراً للخارجية لحكومة طرابلس أيام العهد القره مانللي وترك منصبه الدبلوماسي ـ 28 ربيع ثاني 1242هـ 19 نوفمبر 1826م.

أيضاً كان والده من رجالات العهد القره مانللي وشغل أيضاً منصب وزير الخارجية وكان حسونة الدغيس صهراً ليوسف باشا القره مانللي إذ تزوجت أخت حسونة الدغيس أحد أبناء يوسف باشا حاكم طرابلس وأيضاً تزوجت أختاه من شابين من نفس الأسرة القره مانلية.

وقد طاف حسونة الدغيس بين إسطنبول ولندن وباريس وساح بأوروبا ودرس بها. . واحتك بالمجتمع الأوروبي عن قرب وكان موجوداً بإسطنبول عام 1255هـ 1840م وعمل في مجال الكتابة والصحافة. . وكان محرراً بجريدة ـ وقائع ـ تقويم باللغة الفرنسية، ويتضح لنا من تاريخ حياته ونشاطه السياسي والكتابي أنه كان يجيد عدة لغات، العربية ـ والفرنسية ـ والتركية ـ إلى درجة أنه حرر بالفرنسية في الصحافة ونقل أيضاً إلى الفرنسية كتاب المرآة، وقد دل نشاطه في أوروبا وإسطنبول على ميل إلى الكتابة والدفاع عن حقوق الشعب في شمال أفريقية والجزائر بصفة خاصة. . وقضيته هو وصراعه مع قنصل بريطانيا قضية

شهيرة. . وقد كتب كثيراً من العرائض والتظلمات شارحاً قضيته الشخصية. . والقضايا السياسية العامة التي شغل بها.

وقد أكد لنا صاحبه حمدان خوجه. . أنه اطلع على أفكار وآراء هادفة صائبة بواسطة ترجمته لكتب أجنبية وقام بالترجمة والتعريف لهذه النصوص صديقه حسونة الدغيس الطرابلسي.

وقد أثبت الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الكريم الدور الفعال الذي قام به حسونة الدغيس في ترجمة كتاب المرآة من العربية إلى الفرنسية. . وقد درس الأستاذ الدكتور هذا الموضوع دراسة مستوفاة مستقصاة عندما قام هو بدوره بنشر كتاب المرآة بالعربية وعلق عليه ثم عاد الدكتور محمد بن عبد الكريم إلى الموضوع عندما خص حمدان خوجه الجزائري بدراسة خاصة وأكد بلا لبس ولا غموض الجهد العلمي الذي بذله حسونة الدغيس من حفظه لهذا الكتاب والقيام بترجمته من العربية إلى الفرنسية. . في حياة المؤلف وقد ضاع الأصل العربي. . ولم يبق لنا إلا الترجمة الفرنسية وقد ظهر كتاب ـ المرآة ـ ونشر والمؤلف الجزائري كان على درب الحياة فقد كانت طباعته في باريس في صائفة 1833م 1249هـ.

بعد أن أقام عثمان خوجه حوالي خمسة أشهر في باريس وقد دفعه الحس الوطني وما شاهده من تعنت الطغاة الفرنسيين إلى أن يبادر بنشر كتابه هذا موضحاً للرأي العام في أوروبا قضية بلاده وتاريخ الجزائر مدعماً بالوثائق التاريخية والحقائق العلمية والعادات والتقاليد والطبائع والأخلاق وأراد أن ينبه المسؤولين الفرنسيين إلى فظائع ما ترتكبه السلطات الفرنسية العسكرية بالجزائر ويقول المؤلف موضحاً هدفه ومنهجه:

(قد شعرت أثناء إقامتي بباريس بأني ملزم بتأليف كتاب أقصد به إثارة رأي الشعب الأوروبي لا سيما الفرنسيين منه بأنباء خاصة بشأن الجزائر والغرض من ذلك اختصار تاريخ إيالة الجزائر وتوضيح قوانينها. . وعادات أهلها. . وأخلاقها

ثم الإخبار بالحوادث التي وقعت إبان الغزو الذي قام به الجيش الفرنسي بالجزائر. . والغرض من ذلك أيضاً بيان الأعمال الإدارية التي تطبق هناك). اهـ.

وقد تناول الكتاب موضوعات تاريخية وجغرافية ولمس قضايا ومشاكل ذات صبغة اجتماعية وهو كتاب فيه جهد علمي. . وحقائق. . وحس تاريخي وعاطفة وطنية صادقة. واعتمد على منهج علمي وأسلوب موضوعي مما يعده في مضمار الكتاب والمفكرين أصحاب القضايا لا الكتاب المسربلين الإنشائيين. إنه وصاحبه المترجم من رعيل الطلائع المتقدمة فكراً وأسلوباً ومنهاجاً عندما تراعى تلك الظروف والملابسات ومحيط المجتمع الذي عاش فيه هو وصاحبه، عند ذلك يكبر بصدق ما قام به الرجلان. سواء المؤلف المفكر. . أو المترجم والمشجع له.

وقد أثار صدور كتاب المرآة بباريس ـ بطبيعة الحال والأجواء ـ عدة تعليقات وانتقادات من جانب الصحافة الفرنسية ومن الكتاب الذين يسيرون في مخطط الاستعمار الغربي وقد بادر بالرد عليها الكاتب الجزائري سي حمدان خوجه. . وقد سانده بالتأكيد صاحبه والمساند له في مواقفه حسونة الدغيس.

ويبدو أن المؤلف شرع في إعداد كتابه والمخطط له عندما كان في وطنه بالجزائر. . ثم حمله معه وأتمه في مراحله الأخيرة عندما كان في باريس واستعرض القضية والموضوع مع صاحبه حسونة الدغيس.

فقد كانت أواصر الصداقة بينهما قوية تزيدها الأحداث وآلام الغربة وآلام الوطن متانة وصلابة. مسلمان في أوروبا. . يهتمان بقضية الوطن الإسلامي الطامعة فيه أوروبا، وكانت رياح الاستعمار عاتية بأساليبها الجهنمية على الصعيد العسكري أو في مسارب الكتابة والسياسة.

وكتاب المرآة قسمان. . القسم الأول من فصوله:

عادات وأخلاق سكان الجزائر وسكان الصحراء ومدينة الجزائر.

حكومة الأتراك ونظامهم وأصلهم.

الداي وحكومته.

أسباب زوال حكومة الأتراك.

حسين باشا آخر دايات الجزائر.

والقسم الثاني من الكتاب:

الحرب وأسبابها.

وصول الجيش الفرنسي لسيدي فرج.

حوادث مفصلة عن دخول الفرنسيين للجزائر.

الاحتلال العسكري ومظالم الفرنسيين.

إدارة المشير بورمون بالجزائر.

الاحتلال العسكري.

القائد كلوزيا وغزواته.

الأوقاف الإسلامية وعبث الفرنسيين بها.

وثائق وعرائض واحتجاجات ورسائل ذات قيمة تاريخية.

رسالة من سي حمدان إلى مقرر مجلس الدولة الفرنسية.

رسالة إلى مجلس الدولة الفرنسية.

عرائض ونداءات.

ويقول المؤلف حمدان في مقدمة كتابه (إني أريد أن أقوم في هذه الظروف بعمل ذي أهمية كبيرة بالنسبة إلى المؤرخ الحقيقي النزيه، وهذا العمل لم يجرؤ على القيام به أولئك الكتاب الذين اشتغلوا بالكتابة عن إيالة الجزائر، وأريد ألا أخفي شيئاً جديراً بالتنويه في كتابي هذا كما أود ألا أدع كبيرة ولا صغيرة تستوجب الذكر فيه). اهـ.

وهناك إحصائية لما تنتجه الجزائر من الحيوان والثروات المعدنية والزراعية وإحصائية بالسكان وأنواع القاطنين بالبلاد فضلاً عن دراسة هامة للعادات والتقاليد وما يتصل بالحياة الاجتماعية وأنظمة الحكم والإدارة.

ومن صور التعاون واللقاء بين الرجلين المؤرخ الجزائري، والمترجم الطرابلسي. . أنهما عملا أيضاً في حقل التحرير بالصحافة. . في إسطنبول.

فقد عمل حسونة الدغيس محرراً لجريدة تقويم وقائع باللغة الفرنسية. . وكان أيضاً صاحبه حمدان خوجه محرراً في هذه الجريدة باللغة التركية.

وقد برز إلى عالم المطبوعات الفرنسية عام 1833م 1249هـ أي قبل وفاة المؤلف بحوالي ست سنوات وقبل وفاة المترجم حسونة الدغيس بثلاث سنوات إذ كانت وفاة الدغيس 17 ديسمبر 1836م.

هذا وقد عربه أو ترجمه من الفرنسية وقدم له. . وعلق عليه وعرفنا به دراسة منهجية وفهرس له. الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الكريم وطبع في بيروت 1972م.

وهكذا عاد كتاب المرآة إلى لغته العربية بعد طول غياب واعتمد المترجم الناقل على النسخة الفرنسية التي حفظها لنا حسونة الدغيس إذ هي المرجع الوحيد للكتاب الأصلي.

وهناك جوانب من الملامح والمعلومات لا بد أن نشير إليها لمزيد من التعرف على هذه الشخصية المثقفة والدبلوماسية.

ترك حسونة الدغيس الوزارة في بلده طرابلس 28 ربيع ثاني 1242هـ 19 نوفمبر 1826م.

وهو من المؤسسين الأوائل للصحافة الفرنسية بإسطنبول.

قدم تقريراً مفصلاً إلى مجلس العموم البريطاني بشأن قضيته وموضوع نزاعه مع قنصل بريطانيا بطرابلس وارنجتون.

كان قد اتهم هذا القنصل البريطاني حسونة الدغيس في قضية أوراق ووثائق الماجور لاين واتهمه بأن أعطى وثائقه لقنصل فرنسا بعد مصرع السائح المكتشف العسكري المأجور لاين في صيف 1826م وقد وجه التهمة أيضاً إلى القنصل الفرنسي البارون روسو وحسونة.

عندما قامت حركات التمرد والقلاقل بين أفراد الأسرة القره مالية الحاكمة. . . عام 1832م. . والنزاع الدامي بين أولاد الباي وإخوته. . كان حسونة الدغيس في أوروبا وأشارت الوثائق في لندن وباريس إلى هذا.

قالوا إن بعض الغدامسية سلموا وثائق لاين إلى حسونة الدغيس الذي كان بمثابة وزير في تلك الفترة وسلمها إلى قنصل فرنسا. . عندما أشيع هذا وتوعد القنصل البريطاني وأنذر الباي وهدده، لجأ حسونة الدغيس إلى قنصل أمريكا وتسلل إلى الخارج على ظهر باخرة أمريكية.

وبعد:

لقد كان حسونة من أكبر المشجعين لحمدان خوجه وترجم كتابه التاريخي إلى الفرنسية وهذا الدبلوماسي المطارد والمثقف الواعي هل يدخل في زمرة المهتمين بالتاريخ من هذه الزاوية. . . زاوية الترجمة والاهتمام والتعريف بالوطن العربي والإسلامي وقضاياه في أوساط أوروبا؟.

أم تبقى صفة الدبلوماسي والسياسي المناضل تغلب عليه؟ إنه ما زال في حاجة إلى مزيد من الدراسة والاهتمام.

ويشكر اثنان من الدارسين والباحثين الجادين هما. . الأستاذ الدكتور محمد بن عبد الكريم والأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي في كتابه بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، فقد كشفا عن جوانب من شخصية الدبلوماسي المترجم المثقف حسونة الدغيس الطرابلسي والمناضل الواعي حمدان خوجه الجزائري والدكتوران عبد الكريم والتميمي من العاملين في مضمار الدراسات التاريخية بموضوعية ودأب متواصل.



حسن الفقيه حسن

ويوميات أربعين عاماً

وهذا طراز فريد من المؤرخين في ليبيا. . وجيه من وجهاء مدينة طرابلس. . أخذ يرقب أحداث بلده ويرصد وقائع عصره. . ويقوم بتسجيلها يوماً بيوم. . طوال أربعين عاماً أو أكثر. وكان الرجل أميناً في نقله. . صادقاً في تسجيله. . يكتب الوقائع. . ويقيد الحوادث ويسجل المشاهدات والمرويات كما هي. . الخطيرة والعادية. وشؤون السفريات والذهاب والإياب. . براً أو بحراً. . سفناً وقوافل. . جماعات أو أفراداً. . والوقائع الحربية والأسواق والمصارعات على الشط البحري. وفي شؤون التجارة والسلك الإداري. . والمواليد والوفيات. .

وما يراه ويسمعه في مجلس الباشا الوالي وما يشهده في أيام الغزوات البحرية وقراصنة البحر الأبيض وما سمعه مما كان يدور في مجالس العلماء وأخبار التجارة والولاة وشؤون الزراعة وعواصف الطبيعة. . ومنجل عزرائيل وأخبار القلاقل الداخلية. . وثورات شعبية من تحركات غومة. . وسيف النصر. . والأدغم. . والتي كان المؤرخ المسجل معاصراً لها. .

ويسجل أخبار قوافل الصحراء والواحات وتصارع القناصل والتنافس العنيف بين ممثلي أوروبا يوم أن كان للقناصل شنة ورنة وديدبان وبرزان. وعلم يرفع أو ينزل فيخفق له قلب الباشا الحاكم القابع في القلعة.

وقيد وحفظ لنا في يومياته أخباراً لها قيمة وأهمية كل الأهمية. . وأيضاً أخباراً عادية من شؤون جارية. .

ويوميات هذا المؤرخ تكوّن مادة خصبة. وثروة هائلة ذات أهمية لدراسة المجتمع الليبي في القرن الثامن عشر الميلادي وأوائل التاسع عشر.

سجل هذا في شكل يوميات. . كان يكتبها ويسجلها يوماً بيوم. . بخط يده على أوراق سميكة طويلة. . مطوية. . في الغالب أربع طيات للورقة. . من الورق الغليظ الذي كان يستعمله تجار ذلك الزمان في حساباتهم.

سجل اليوميات كأنها أخباراً صحفية طازجة يوماً بيوم أو ساعة بساعة فقد يحمل اليوم الواحد أكثر من خبر. . أو إشارة لحادثة.

كتبها بأسلوب عامي. . ولهجة دارجة مستدرجة ليس بها تكلف. . وهي تصلح منْ جانب آخر لدراسة اللهجة الليبية في تلك العصور.

بعض العبارات والجمل والتراكيب متطورة. . وبعض من قوالبها قد عفى عليه الزمن ونسيته الألسن. . وما عادت تلوكه الأشداق. يحتاج إلى شرح وتوضيح، وإلا ظل مبهم المعنى غامض المقصد. . وبعض المصطلحات لها ميزة خاصة ودلالة معينة وعلى أية حال. وبكل ملابساتها هناك حقيقة أكيدة. . إن يوميات المؤرخ حسن الفقيه حسن ـ الذي كان راصداً ومقيداً لأحداث عصره وبلده ـ تعتبر في كميتها ومجموعها ـ ثروة علمية. . وذخيرة في مكتبة التاريخ الليبي. .

وهي تسجيل وثائقي هام لشاهد عيان لأعاصير الحوادث على شاطئ طرابلس. . وما حوله. بل لها الصلة كل الصلة بتاريخ تلك الحقبة وما يتصل بها من علاقات دبلوماسية. . وتجارية وعسكرية مع تونس والشمال الأفريقي ومع بلدان أوروبا والمشرق. . وأيضاً مع أمريكا التي كانت صلتها بهذا الشاطئ الطرابلسي هو أول احتكاك لها بالعالم العربي والإسلامي وكانت صلتها بهذا البلد حدثاً غريباً. . وهجوماً عنيفاً دامياً. . مما سجله تاريخ البحرية الأمريكية

وما قصة الباخرة «فلادلفيا» بخافية عن أذهان وأقلام المؤرخين والمختصين.

وهذه اليوميات التاريخية من ناحية المواد الدسمة.. ومن ناحية الحقائق.. هامة.. ومن ناحية الدلالة لها صلة بالتاريخ بكل إشاراته وتفريعاته.. لها صلة بالاجتماع.. والاقتصاد والتاريخ السياسي والدبلوماسي.. والعادات والتقاليد.. سجلها معاصر أمين.. ينقل في إيجاز وحرفية بلا تزايد ولا بهارات.. ولا حواشي ولا شروح. وعندما تقرأها تحس كأنك تقرأ صحيفة إخبارية تحكي لك سجل الوقائع اليومية.. وتقص عليك الأخبار.. والحوادث.. كأنها من صفحات الأخبار الداخلية.. سافر.. وعاد.. وتزوج وطلق.. والأسعار في السوق إلخ.

عندما تقرأها الآن تحس كأن رجلاً معاصراً لتلك الفترة السحيقة جاء يقرأ على مسامعنا نشرة الأخبار من ذلك القرن.. أو يبسط أمامك سجل الحوادث اليومية في ذمة وأمانة وبلهجة وأسلوب ذلك العصر بكل صراحة وعفوية وبساطة.. حتى الأشياء التي كانت طريفة.. ولم تعد طريفة أو قد تكون طرافتها في غرابتها الآن. أو الأشياء الغريبة التي تلازمها الغرابة إلى الآن. أو تلك التي نفى عنها تطور الزمان صفة الغرابة.. وبواعث الاندهاش.

وهو مؤرخ أو مسجل مختصر في يومياته قصير النفس لكنه طويل الصبر.. والدأب.. فهو.. ملاحظ.. متتبع. مهتم.. جاد.. مثابر.. ليس به في اليومية أو الواقعة التي يقيدها إطالة مملة.. وقد يلازمه اختصار أو ابتسار لا يكفي نهم القارئ.. ولا يروي غلة العطش المتلهف.. الذي يود مزيداً من المعرفة وإضافات من الحقائق.. وإيضاحاً لملامح من صور تكاد أن تختفي.. أحياناً يأخذ اليوم كله مجرد سطر أو حادثة وأحياناً في اليوم أكثر من خبر حسب سوق الأخبار وتماوج الأحداث وقد عني بها المؤرخ.. كهواية، أو بتعبير علمي أدق. بدافع من الحس التاريخي.. والرغبة الملحة في حفظ تاريخ بلده.. وحب بلده.. اهتم المؤرخ بهذه اليوميات من ناحية التسجيل والموضوع ومن ناحية نوعية الورق وجودته.. وسماكته.. والحبر والمداد الجيد الذي حفظ

السطور وإبانة الكلمات رغم مرور نيف وقرن من الزمن. . ويبدو أنه بادئ ذي بدء سجل يومياته وتقييداته على بطاقات صغيرة. . وجزازات. . ثم قام بنقلها بصبر وأناة. . وأحياناً في سرعة عاجلة على هذه الأوراق المستطيلة على هذا الشكل الذي وصلنا مجتازة قرناً ونيفاً من الزمان. . ويدل هذا على إضافة بعض الأخبار أو كلمات يسيرة إلى بعض الأخبار. . عند المقارنة والموازنة لمجموعة من أوراقه، ومكتوباته. .

وقد أرخ اليوميات وسجل الوقائع بالتاريخ الهجري وأحياناً قليلة بالتاريخ الميلادي. . وإن كان من حق القارئ أن يعرف شيئاً عن مضمون هذه اليوميات التاريخية. والمواضيع التي شغلته ما يقرب من نصف قرن وأخذت بؤرة انتباهه. واستولت على مشاعره. . هذه ـ الهواية ـ التاريخية أو الحس التاريخي ـ فمن حق القارئ أن يعرف ـ ولو شيئاً يسيراً عن الكاتب المؤرخ والمؤلف المسجل الذي قد يكون مغموراً عند بعض الناس. ولكنه مغامر. . ومؤرخ مسجل له قيمة وله في صفوف المؤرخين وزن واعتبار. هذا الذي بذل ما في جهده لخدمة تاريخ بلده وعصره في فترة هامة ذات منعرجات ملتوية. . وتيارات عاصفة. . من هو هذا المؤرخ؟. .

كان ميلاد حسن الفقيه حسن في مدينة طرابلس وهي مقر أسرته وأجداده منذ القرن العاشر الهجري ولد عام 1198هـ ـ 1783م ـ وكالنمط المعهود درس في المكتب القرآني وتلقى قسطاً من عمل الحساب والرياضة. . وعمل في التجارة حيث كانت مهنة والده السيد أحمد الفقيه حسن. . وكان والده من أعيان البلاد أو على حد تعبير عصره «شهبندر التجار».

ونشأ حسن الفقيه مغرماً بالتاريخ. شغوفاً بالتقاط الوقائع وتسجيلها. . وقد ساعده على هذا الميل. . وعمل على تنمية هوايته أو حسه التاريخي ما وجده في مكتبة والده من كتب وكنانيش. . قيد عليها بخط والده وخط جده بعض الأنباء والمواليد والوقائع الخاصة في محيط الأسرة أو محيط البلد أحياناً كما يصنع

عميد الأسرة في ذلك المجتمع. . وكانت في موادها. . وعفويتها نماذج من تاريخ الأسر أو العائلات وبالتالي وقائع وأحداث في المحيط والبلد. .

ومن أمثلة تلك الأنماط على الكواغد والدفاتر أو هوامش الكتب وأغلفتها ولد فلان. . مات فلان. سافر فلان. . قدم فلان. . يوم كذا. . أو ساعة كذا. . واشترينا كذا. . وتعرس زيد وطلق عمرو. . وهكذا. صار البريح في السوق ـ أي الإعلان ـ. . والمنادي المتجول. . زاد السوم. . سكت العملة. . خسف القمر. . سال الوادي. . الخ. . الخ. .

وكانت هذه نقطة انطلاقه. .

فبدأ الشاب الصغير يكتب ما يراه. . ويسجل ما يشاهده ويقيد ما يراه حدثاً ظريفاً. . جديداً في تلك الظروف والملابسات التي كانت مليئة بالأحداث والوقائع في محيط شاطئ طرابلس. وكان هذا المؤرخ الذي سجل وقيد وقائع بلده وعصره يشتغل بشؤون التجارة الداخلية والخارجية وعلى صلة بالحياة الاقتصادية ومعرفة بتطوراتها وكبار رجالها. . وهناك بهذا الحس من ناحية. . وبحكم المهنة والاتصال. . يهتم بالشؤون الاقتصادية في يومياته وتجد في أوراقها رصداً لميزان التجارة والمبيعات. . وحركات الموانئ. والقوافل وهبوط الأسعار وعلوها. . كما قيد وسجل الوقائع السياسية. . والمعارك الحربية والانتفاضات والثورات الشعبية. . والتطورات السياسية لتلك الحقبة. وسيطرة القناصل وتدخلاتهم. . وصراعهم الخفي وصراعهم المكشوف الذي كان له تأثيره في تسيير شؤون البلاد. . بل وشواطئ البحر الأبيض كله.

فترة التدخل الديبلوماسي القنصلي. . وسجل الكاتب المؤرخ شؤون الإدارة وتعيين موظفين وعزلهم. . وجباية الضرائب والأعشار وسك النقود. . وهو في يومياته تجد لديه سجلاً حافلاً بالمواسم والأعياد والتقاليد والعادات والمواليد والزواج والطلاق والوفيات. . ومناشير التنازل وفرمانات السلاطين التي كانت تأتي من وراء البحر ـ من إسطنبول ـ وأوامر الولاة وحركات

الجباة.. ومواكب التعيين.. وحوادث تنطلق من ورائها الزغاريد.. وأخرى تسيل منها نافورات الدماء.. وعداوات وملاحقات.

لقد حوت يوميات المؤرخ المشاهد لتلك الأحداث الوقائع الكثيرة المثيرة لأكثر من أربعين عاماً متواصلة.. متلاحقة..

وقد عاش المؤرخ حسن الفقيه حسن ـ على درب الحياة وعلى شاطئ طرابلس تسعة وثمانين عاماً وعاصر في حياته. يوسف باشا القرماللي.

وابنه علي القرماللي..

وشاهد بعينه ما كان يجري في القلعة والحصار والمدينة والسواحل والدواخل من صراع دموي وحملات عنيفة.. واضطرابات وقلاقل.. سجل كل مشاهداته ومروياته في شكل يوميات. لا سيما في فترة 1248 ـ 1249 ـ 1250هـ = 1832 ـ 1933 ـ 1834م ثلاثة أعوام في أواخر العهد القرماللي كانت صاخبة دامية مليئة بالأحداث.. مترعة بالآلام والثورات وتصدع الأسرة القرماللية الحاكمة..

كان المؤرخ (حسن الفقيه حسن) ـ عضواً في مجلس إدارة ولاية طرابلس.. طيلة عهد حكم يوسف القره مالِلي وابنه علي باشا.

وفي العهد العثماني الثاني إلى عام 1284هـ ـ 1867م وهي سنة توديعه لشاطئ الحياة وانتقاله إلى رحمة الله...

وقد عاصر عهود الولاة العثمانيين.

مصطفى نجيب.

وعلي عشقر

ومحمد الأمين

والحاج أحمد عزت

وعلي باشا الجزائري ـ رحم الله الجميع.

* * *

وضبط مسجلاً وقائع البلاد في يومياته 1235هـ 1275هـ 1819م 1859م طوال أربعين عاماً وهو كل يوم يذهب لأوراقه ويكتب ما يراه ويسمعه قبل أن ينساه الناس ويضيع من رؤاه وذاكرته . . .

وتوقفت أصابعه عن كتابة يويمياته وتسجيل الوقائع بحوالي ثماني سنوات قبل وفاته.

وكان صاحب ذوق فني ومن هواة اقتناء التحف الجميلة والآثار القيمة الأنيقة. . وكان يمتلك مجموعة من النقود القديمة والعملات ذات الوزن التاريخي والقيمة المعتبرة، وكان المؤرخ الكاتب يعتبر في محيطه من الوجهاء وأعيان البلاد المسموعي الكلمة. . وعلى دراية تامة بالأسر وتفرع العائلات في البلاد ـ فهو نسابة بحكم خبرته وصلته وله خبرة بالرياضيات والعمليات الحسابية وطالما فض المنازعات والمشاكل التجارية كما تشير بعض اليوميات. . وكانت تقبل أحكامه ويسمع رأيه.

وتسربت من يومياته المخطوطة أشياء إلى المكتبة الإيطالية عندما نقل الإيطاليون شيئاً وترجموه واعتمد عليها مؤرخ ثقة عالم هو المستشرق (أتوري روسي) في كتابه عن ليبيا. . ونقل منها أيضاً واستفاد المؤرخ الوجيه (إسماعيل كمالي). . وعرف قيمتها وأشار إلى هذا في أمانة علمية. . وعندما تعرضت أسرة الفقيه حسن إلى التفتيش في العهد الإيطالي في العشرينات وفي عهد الإدارة البريطانية في الأربعينات ضاعت من مجموعة الأوراق واليوميات بضع سنوات.

ولكن بقي منها إلى الآن مخطوط ملفوف سنوات عدة وأوراق مكدسة ذات قيمة علمية وتاريخية نرجو أن نقوم بتحقيقها ودراستها وتقديمها للمكتبة العربية. . كمصدر له أهمية في تاريخ البلاد. . وما حولها.



الإرشـاد لمعرفة الأجـداد

محمد بن عبد الكريم القسوس

كان هناك في مجتمع طرابلس أسر وعائلات علمية كان فيها التوارث الثقافي. . والمنصب العلمي. كالقضاء والفتيا والتدريس والخطابة. . والتوثيق والكتابة والتأليف في المجال العلمي، منهم الأب والجد والحفيد والابن والعم. .

وكان من هؤلاء أسرة ـ البهلول ـ والحطاب ـ والشماخي ـ والمكنى ـ وابن غلبون ـ والفطيس ـ وابن عبد الصادق وغيرهم وهذا على سبيل المثال المضروب. . لا الحصر المستقصي. فأسرة البهلول مثلاً في مدينة طرابلس كان منهم العالم الأديب والشاعر والمتصوف والمؤلف وكان منهم الأزهري. والذي نال قسطه الثقافي بطرابلس وأحمد الحسين مثلاً الذي نظم قصيدة أشار فيها إلى أبيه العالم. . وجده العالم. .

وكانت أيضاً أسرة الحطاب وهي غنية عن التعريف، نبغ فيها أكثر من عالم ومؤلف. وأسرة بن مقيل. . والمكنى. . ومن هذه الأسر عائلة النائب المؤرخ الذي سبق أن قدمنا ونشرنا أحد كتبه ـ نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان. . وأيضاً كان أحد المتقدمين من أسرته له غرام بالتاريخ المتصل بسيرة أسرته وأجداده. . حافظ على تواريخ أسلافه وهو محمد بن عبد الكريم النائب. المتوفي عام 1232هـ ـ 1816م.

وهو محمد عبد الكريم بن أحمد بن عبد الرحمٰن أحمد بن عيسى الأندلسي الأصل. . ثم طرابلسي الموطن. . بطرابلس ولد. . وتلقى علومه من أعلام عصره وكان تاجراً ثرياً من وجهاء بلده وتولى النيابة الشرعية بعد ذلك في ثغر طرابلس ويهمنا منه هنا في هذه الصفحات اهتمامه وشغفه بالتاريخ وقد ألف كتاباً قيد فيه تاريخ أسرته. وتاريخ الأسر والعائلات العلمية شيء ذو أهمية، لأنه يعطي صورة عن الحياة العلمية وجوانب من حياة المجتمع. . ولوناً من ألوان التاريخ وأحداثه وتطوراته. . وظروف العصر ومتطلباته. في الواقع هو جانب خصب لدراسة الحياة العلمية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والفكرية رغم ما فيه من النقل والسرد حسب أسلوب الكاتب وتكوين المؤلف.

وأطلق المؤلف محمد عبد الكريم النائب على كتابه اسم ـ الإرشاد لمعرفة الأجداد ـ ذكر فيه أسلافه الكرام وتراجم آله الفضلا على حد تعبير أحمد النائب الذي أشار إليه واعتمد عليه ونقل منه وكانت نسخته موجودة ضمن مكتبته ولعلها كانت بقلم مؤلفها. وأشار إلى هذا الكتاب في المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب. . وأيضاً في كتابه نفحات النسرين والريحان. .

* * *

وآله يعرفون بآل العسوس. . وهو لقب منحوت من عيسى الأوسي الجد الأعلى الذي وفد من بلاد الأندلس إلى مدينة طرابلس في أواخر المائة السابعة الهجرية. عندما تغلب الأسبانيول على ثغور الأندلس. فما هو كتاب الإرشاد؟ وأين هو ـ وما هي معلوماتنا عنه؟

(ألف كتاباً سماه الإرشاد لمعرفة الأجداد ضمنه ذكر أسلافه الكرام وتراجم آله العظام) ص325 المنهل العذب».

* * *

أما في كتاب نفحات النسرين فينقل عن كتاب الإرشاد هذه الترجمات لهؤلاء من أسلافه:

1 ـ عبد العزيز بن محمد الأندلسي الأنصاري.

2 ـ أحمد بن عبد العزيز الأوسي ـ توفي 1123هـ ـ 1614م.

3 ـ عبد الرحمٰن أحمد النائب ـ ت ـ 1130هـ ـ 1717م.

4 ـ أحمد بن عبد الرحمٰن النائب ـ ت ـ 1155هـ ـ 1742م.

5 ـ عبد الكريم أحمد النائب ـ ت ـ 1189هـ 1775م.

6 ـ والسادس الذي ترجم له هو محمد بن عبد الكريم النائب الذي قام بتأليف كتاب الإرشاد..

* * *

ونقل أحمد النائب عن كتاب ـ الإرشاد.. تراجم في كتابه المنهل.. وكتابه ـ نفحات النسرين ـ. لكن أين هذا الكتاب؟

عندما تصدى الشيخ طاهر الزاوي لنشر كتاب التذكار لابن غلبون وهو بالقاهرة عام 1349هـ 1930م واستعار النسخة المصورة من خزانة العالم الوجيه أحمد تيمور باشا أرسل الشيخ طاهر الزاوي خطاباً إلى الأستاذ أحمد الفقيه حسن بطرابلس للبحث والسؤال عن ترجمة أحمد بن عبد الدائم الأنصاري صاحب القصيدة التي شرحها ابن غلبون وكانت ركيزة ومنطلقاً لكتابة تاريخه التذكار، فرد عليه الأستاذ أحمد الفقيه حسن برسالة فيها نبذة تتعلق بأحمد بن عبد الله الدائم الأنصاري، والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى وجود كتاب الإرشاد آنذاك قال (.. في دائرة أوقاف القطر الطرابلسي كتاب مخطوط ليس فيه ما يشعر باسمه سوى أن مؤلفه الشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمٰن الأنصاري ذكر فيه تراجم آبائه وأجداده فهو حري بأن يدعى كتاب الأجداد وقد فرغ من تأليفه في الرابع والعشرين من محرم 1212هـ 1797م).

ومن جملة أجداد المؤلف الذي ترجم لهم في كتابه هذا الشيخ أحمد بن عبد الدايم الأنصاري الطرابلسي وهو الجد الأول لأم المؤلف وقد ترجم له ترجمة أهمل فيها ميلاده ووفاته» اهـ. وهذا يدل على وجود الكتاب في تلك

الفترة 1930م في العهد الإيطالي . . فأين ذهب؟ لا يوجد الآن في مكتبة الأوقاف ولا في مكتبة النائب أو بقايا مكتبة النائب. ولا في أوراق القلعة بالسراي الحمراء . . هل امتدت إليه يد مستشرق أو مستغرب؟ في أغلب الاحتمال والظن لو امتدت إليه يد هؤلاء لكان على الأقل موطن دراسة عندهم واهتمام وصيانة وحفظ . . ولكان على الأقل أشاروا إليه شأنهم في الاهتمام بأمثال هذه المخطوطات.

هل امتدت إليه يد مستعير مهمل كما ضاعت المخطوطة الوحيدة من النسخة الأصلية من كتاب النائب قالوا إنها بخط المؤلف والتي استعارها ـ محمد علي الحداد . . عندما زار طرابلس في العهد الإيطالي كما أكد أحد المعاصرين له!؟ . أم كان ضمن تركة إسماعيل كمالي وضاع. أم سيظهر بعد حين ـ في أحد البلدان أو المناطق ـ تثبت هنا اسم الكتاب ومؤلفه وموضوعه عسى الأيام أن تجود به بعد طول غياب كما جادت بكتاب نفحات النسرين والريحان الذي قمنا بتحقيقه ودراسته .

* * *

ومن الجدير بالذكر أن النائب نقل عن كتاب ـ الإرشاد ـ خمسة تراجم ـ ثم كتب وسجل ثلاثة آخرين من أسرته بعد موت المؤلف صاحب الإرشاد. ولكن لم يثبت ترجمة لأحمد بن عبد الدايم والذي كان له فصلة في كتاب الإرشاد كما أشار من رآه وطالعه وهو الأستاذ أحمد الفقيه حسن مع أن أحمد بن عبد الدايم الأنصاري هن الجد الأول لأم المؤلف محمد بن عبد الكريم الأنصاري أحد أجداد النائب المؤرخ .

الأزهري الزنتاني وَكُنّاشه

هو نوع من التقييدات..

دفتر صغير سجل فيه الشيخ ـ الأزهري الزنتاني.. بعض الحوادث، والوقائع المتعلقة ببلده ومحيطه..

وهي من نماذج التسجيلات التي هي في الأصل مرويات ومشافهات عن جده وأبيه.. سماعاً وحفظاً سمعها وحفظها الرواة.. وقيدها الكاتب في اختصار وبدون تعليق أو إضافة.

وهي تقييدات ـ على ما يبدو ـ كانت في حوزة أبيه وجده.. ثم أضاف إليها الكاتب شيئاً من أخبار معاصريه وهذه الرسالة أو الكراسة تكاد أن تكون مختصة بأخبار وتاريخ قبائل ـ الزنتان ـ وما حولها في القرن التاسع عشر وأواخر القرن الثامن عشر الميلادي..

لقد عاش والده مائة عام. وعمر جده مائة عام. وكان الحفيد الذي شاهدناه أيضاً من المعمرين إذ رأيناه أواخر أيامه نيف على التسعين قوي الذاكرة.. مساهماً في الحديث والنقاش وكان ـ كعادة المثقفين من أبناء البوادي والقبائل يهتمون بالأنساب.. وحوادث البلدان في محيطهم.. يحفظونها ويروونها للناس في مجالسهم وأسمارهم. غير أن ـ الأزهري ـ لم يكتف

بالرواية المشافهة بل سجل هذا في دفتر صغير. أشبه ما يكون بكناش الأقدمين في الدفتر الذي لم يتخذ له عنواناً.

لأنه ما كان يريد طبعه في كتاب وتقديمه للقراء. كان قد سجل ما يتعلق بحروب القبائل وغزواتها ولمحات من أخبار الفوارس أمثال: غومة ـ وسيف النصر ـ وفريعيس ـ وغيرهم، ورغم صغر هذا الدفتر، واختصار مواده وإيجاز محتوياته إلا أنه من الناحية التاريخية ـ مادة وموضوعاً ـ يعتبر من المصادر التاريخية لتلك الحقبة ـ في العهد العثماني الأخير..

كانت نقطة البدء ومنطلقه، بل محور الدفتر كله حول ـ الزنتان ـ وقبائلها وما مرت عليها من حوادث وأمور.

ويشير إلى أن أصل قبائل ـ الزنتان ـ حسب أخبار والده الشيخ محمد الأزهري.. عن والده أحمد، فهذه منابعه ومصادره، لم يعتمد على كتب التاريخ ولم يستند إلى مصادر متقدمة.. فهو فريد في نوعه من باب التاريخ.. المشافهة مصادره.. والمتواتر من الروايات أخباره.. شأن قدماء العرب في اهتمامهم بأخبار قبائلهم وحوادث بلدانهم. والمشافهة المقيدة.. والروايات المسجلة تكون فيما بعد مصدراً للغير.. هو يقول:

(.. حسب أخبار والدي. عن والده أحمد. وكل واحد منهما تجاوز المائة سنة).

* * *

وإن كان الشيخ الأزهري ـ في تسجيلاته لم يعقد فصولاً.. ولم يتخذ عناوين إلا أنه ـ مع هذا ـ يمكن جعل كل موضوع متصلاً بشكل هيئة فصل يمكن تقسيمه وأخذ عناوين من موضوعاته، مثلاً:

فصل عن أهل الزنتان وقبائلها وفروعها، والقبائل التي جاءت من المغرب، وبعض المزارات.

فصل عن إتيان الأتراك إلى ولاية طرابلس، أوائل عام 1254هـ ـ 1838م وخروج عبد الجليل عن طاعة يوسف باشا.

عام 1246هـ ـ 1830م انشقاق أولاد يوسف باشا.

عام 1245هـ ـ 1829م دخول عبد الجليل ـ مرزق وإشارته إلى ـ حسن البلعزي ـ وموقعة ـ البغلة ـ.

* * *

ولا بد أن نضع بين يدي القارئ بضعة نصوص من دفتر الشيخ الأزهري الزنتاني حتى نعطي فكرة عن أسلوبه ومنهجه في التقييدات التاريخية.. وهي تصور لنا مدى اهتمامه بأصل القبائل وتفريعاتها هذا الأصل الذي يحرص عليه المؤرخون والرواة في مجالسهم وأسمارهم.. وفي مطالعاتهم ودراساتهم التاريخية..

فهو لا يعود إلى مرجع من كتاب.. بل إلى رواية أبيه عن جده.. مشافهة ومسامعة.

(.. وأصل قبائل الزنتان حسب أخبار والدي الشيخ. محمد الأزهري ـ عن والده أحمد وكل واحد منهما تجاوز المائة سنة ـ أن أصل الزنتان الذي تسمى به عموم الزنتان باسمه رجل من الحجاز من عرب هناك تسمى ـ الزنتان ـ وهو من بيت حكومة، رجل اسمه ـ حسن بن الحسن النجدي. قدم هذا القطر ونزل ببلد ـ تاغرمين ـ بالجبل الغربي بعد أن أجلى أهلها والعرب الذين كانوا حاكمين عليها ويسمون ـ السعدة..) اهـ ولم يذكر لنا السنة التي قدم فيها جدهم ـ حسن النجدي.. إلى ليبيا ترى هل هي أيام (بني هلال وسليم).؟

كان كل همه أن يؤكد عروبة أصله وقدم منبته ـ وفاته أن يذكر العصر الذي قدم فيه الجد ليسكن الجبل الغربي أولاً ثم يقطن ناحية الزنتان ثانياً وأخيراً.

هذا الرجل الفارس بمفهوم زمنه الذي كان له من القوة والسيطرة ما استطاع بها أن يركز نفسه في ناحية تاغرمين. ترى هل كان فرداً واحداً أم كان

معه مجموعة عندما قدم مهاجراً من أرض الحجاز وأنحاء نجد؟ أم جاء ضمن موجة من موجات الهجرة العربية التي كانت لها آثارها ومؤثراتها في المحيط الاجتماعي بالبلاد وصداها القوي في تطور اللهجات والعادات والتقاليد؟ ويشير ـ الأزهري ـ إلى تفرعات هذا الأصل.. مما يدل على أن هجرته قديمة ترتبط بتفرعات قبلية في هذه البلاد.

«.. ثم خلف هذا الرجل أربعة أولاد، أكبرهم يسمى أبو الهول.. وعنه تفرعت قبيلة ـ أولاد أبي الهول...

ثاني أولاده يسمى ـ أبو القاسم.. وعنه تفرعت قبيلة القواسم.

ثالث أولاده يسمى ـ سليمان . وقد خلف ـ سليمان ولدين. أحدهما الغناي ـ والمغناوي.

والرابع يسمى محمد ـ وقد خلف ولدين ـ أحدهما ـ الشيباني.. ومنه تفرعت ـ الشباب. والثالث محمد ومنه تفرعت قبيلة ـ أولاد محمد ـ ثم أن هذه القبائل الأربعة تبلغ نصف الزنتان وتزيد.» اهـ.

* * *

وهكذا أصبح إطلاق كلمة ـ الزنتان ـ يشمل الموقع والبلاد لا القبيلة وحدها.. شأن التسميات لأكثر البلدان.. كانت في الأصل اسماً لقبيلة بربرية امازغية أو عربية ثم يغدو اسماً للبلد أو الموقع ويقول الأزهري: (أما النصف الثاني فغلب عليهم اسم الزنتان بالأغلبية).

ثم يذكر باهتمام وتدقيق تفرع قبيلة ـ أبو الهول.. إلى ثلاثة شعب وتفرع القبائل الأخرى.. وتكاثرهم وتداخلهم على أسلوب الحفاظ والرواة. ومنهج النسابة...

ودوماً ـ عند هؤلاء المهتمين بمثل هذه الأمور ـ يختلط علم الأنساب بعموم التاريخ.. بل كان منهج الأقدمين المؤرخ عندهم هو النسابة. ومن لا قدم له ولا باع لديه في علم الأنساب فلا يعد لديهم مؤرخاً.. بل ولا يحسب في

عداد المثقفين. والاهتمام بالأنساب والتفرعات القبلية يدفعه بطبيعة الحال ـ إلى الكلام عن الصراع بين القبائل وهجراتها.. وهجماتها.. والمناخ الاجتماعي الذي كانت تعيش فيه.. وتفكر به..

وكانت الأوضاع القبلية.. صفوفاً وجبهات تشكل حوادث لتلك الفترة. سواء كانت في صورة صراع مع الأتراك والولاة العثمانيين أو صورة صراع مع قبائل خارج حدود منطقتها ودائرة نفوذها.. ومراح مراعيها وزراعتها خارج حدود المنطقة القبلية أو داخلها. والذي يهم الدارس الاجتماعي من تلك المصارعات وتطاحن الفرسان.. ومناوشات القبائل هي تلك المؤثرات والعوامل ثم بالتالي النتائج المترتبة عليها. سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو المناخ الفكري لتلك المصارعات التي طوى الزمن صفحتها. وتفاصيل وحكاية تلك المصارعات ليس أمراً ذا بال هنا.. لا يهمنا التفصيل.. فهي أمور تحكي صورة من التخلف العقلي والتردي في هوة الآفاق الضيقة..

ولا شك أن التطور الثقافي.. واتساع مفهوم الوطنية وتبلور القومية والشعور الديني المرتفع أزال من ساحة الوطن تلك الصراعات التي خلفت بصمات من التخلف.

ولكن مع كل هذا التطور والتقدم تدرس تلك الجوانب من ناحية النمو الاجتماعي.. أو من ناحية أسلوب المنهج التاريخي فيها.. كيف كانت تلك الأمور والأحوال في نطاقها الاجتماعي.. ولكن بحذر كل الحذر..

وفي نطاق الموضوعية بعيداً عن إثارة الحساسيات والنعرات وعوامل التعصب والتأقلم والقبلية.. لأن كل هذا من مؤثرات التعصب والتخلف الذي اجتازه الزمن.. أو يجب أن يجتازه الزمن..

* * *

ويسجل الشيخ الأزهري أخباراً عن ـ المقارحة ـ و ـ المرابطين ـ ورحيلهم إلى: وادي زمزم ـ بمحل يسمى الأبيض ـ في أيام الصيف وحوادث عبد الجليل..

وكان الزنتان يقفون في صف المقارحة والمرابطين. . وكان من بين الذين عاصروا وشاهدوا هذه المصاولات مسجل الحوادث وراوي التقييدات ـ محمد الأزهري عندما انتقل عبد الجليل إلى أراضي فزان. وأشار المؤرخ في ملاحظة عاجلة وإشارة خاطفة إلى الأزمات التي كانت تعانيها البلاد وتقاسيها القبائل وشظف العيش وبؤس الحياة. وهي عوامل كانت من الدوافع الرئيسية إلى كثير من الصراع الدامي المرير. . وكاد أن يضع يده على الأسباب والمؤثرات، ولو سلط الضوء على العوامل والأسباب لكان أقرب إلى المنهجية والعلمية في أسلوب تسجيلاته ـ فهو هنا يقول في سطر يختفي في زحام الأسطر:

(. . . وألجأت الضرورة المرابطين ومن معهم من جهة عدم القوت، وغلاء الأسعار وتعطيل الأسواق قبل مجيء الترك إلى هذه البلاد فانتقل المرابطون والمقارحة إلى فزان).

ثم يسجل لوناً من الصراع القبائلي. . ويشير إلى عام اشتهر بين مؤرخي تلك الحوادث بـ ـ عام فزان ـ.

* * *

وأشار إلى عودة الحكم العثماني إلى ليبيا.

ومن المعروف أن عودتهم في الواقع نتيجة اضطرابات داخلية وانهيار في الأسرة التي كانت تحكم البلاد وهي فترة عاشها الذي سجل هذه التقييدات وإن كانت تسجيلاته مجرد إشارة ليس بها شيء من التحليل أو التعليق. . أو الإفاضة التي هي أشياء يحتاجها تاريخ تلك المرحلة وهو يشير قائلاً:

(. . وبعد ذلك دخل الترك ولاية طرابلس ومجيء ـ عبد الجليل ـ للأبيض أوائل ربيع أول سنة 1254هـ ـ 1838م).

ويذكر في اقتضاب أحداثاً في عصر القره مانلي أو انهيار الأسرة واضطراب شؤون البلاد والصراع الدامي بين الإخوة. . وما يطلق عليهم إطلاقاً صحيحاً. . الإخوة الأعداء. . وكان حصاده الشعب الذي تمزق لشهوة الحكم

والثأر المفزع. . فعند الكلام على ـ عبد الجليل ـ ينتقل إلى الإشارة إلى الخلاف في الأسرة الحاكمة وتردي البلاد في هاوية سحيقة. .

(وعبد الجليل هذا هو سيف النصر ـ خرج عن طاعة يوسف باشا القره مانلي في شهر ذي القعدة 1246هـ ـ 1830م وذلك بسبب الاضطراب الذي حصل في الولاية في أواخر عهد القره مانلية. فانتهز الفرصة وانضم إلى قبائل ـ ورفله ـ وأولاد سليمان ـ فخرج لقتالهم ـ علي باشا بن يوسف القره مانلي. .)

ويمضي في إشارته إلى تلك الأحداث الدامية في إيجاز غير كاف لتسليط الأضواء وتوضيح الجوانب وعندما كان يقيد هذه السطور أو الرواية وهو شاهد عيان كان هناك في تلك الفترة في العاصمة طرابلس من يقوم بتسجيل قيودات ويوميات. . هو مؤرخ معاصر آخر كان في قلب المدينة وقريباً من قصر الحاكم. هو المؤرخ الفقية حسن الفقيه.

غير أن هذا الأخير كان أطول في سرد أحداثه وتقييدات يومياته. . إذ ظل زهاء أربعين عاماً ونيفاً عاكفاً على تقييدات يوميات شاطىء طرابلس. وقد عقدنا فصلاً عن هذا المؤرخ ويومياته في صفحات قبل هذا الفصل.

والأزهري، في كناشه، يلاحظ الصراع الدموي على هذا الشاطىء في مدينة طرابلس قائلاً:

(. . ثم وقع القتال بين أولاد ـ محمد بك بن يوسف باشا ـ محمد وأحمد وبين جدهم يوسف باشا وأولاده الصغار يوم 24 صفر 1248هـ ـ والمقاتلون مع الأولين. الساحل والمنشية ـ ومع الثاني أهل المدينة).

ويشير أيضاً إلى هجرة ـ أولاد بوسيف إلى فزان قائلاً:

(وانتقل أولاد بوسيف بفزان الذي ذكرته سابقاً في عام 1257هـ) ومن الحوادث التي سجل تاريخها بشيء من التفصيل نوعاً. . ما. . مصرع ـ عبد الجليل ـ .

(.. قتل عبد الجليل بن غيث بن سيف النصر.. وذلك بموقع يسمى.. البغلة.. بناحية وديان ورفلة.. في أواخر ربيع الثاني 1258هـ 1842م.

أتى عبد الجليل وتابعيه ـ فلقيهم عسكر ـ علي باشا التركي وفي ذلك العسكر سيدي ـ عبد الرحمن حمر لحية وقائد حملة الترك ـ الحسن البلعزي. فالتقى الجمعان بذلك الموضع الذي يسمى بـ البغلة.. وبقي القتال نحو شهر ـ ثم أتي بـ ـ المريض.. الترهوني وولديه.. وولد لآغا عثمان الكرغلي وقتلهم السلطان بباب مدينة طرابلس).

* * *

وهي فترة ماجت بالأحداث الداخلية واضطراب الشواطىء والنفوس.

تزاحم الولاة.. وتكاثر الجباة.. وكان الناس يريدون من الانتقال من أسرة القره مانلي إلى حظيرة السلطان شيئاً من الراحة والأمان.. والاطمئنان ولكن كثر الولاة.. وكانت أيضاً حقبة مليئة بالتغييرات والتولية والعزل والإطاحة والفصل والعنف في المطاردة والقسوة والمشاغبة. ويسجل الأزهري أسماء حوالي ثمانية تولوا في فترة متقاربة قصيرة. ومن الطريف أنه سجل انتقال الحكم من ذرية يوسف باشا إلى الأتراك باليوم.. ويقول..

(.. انتقل الحكم من ذرية ـ يوسف باشا للترك يوم 27 محرم 1251هـ والذي تولى من الترك أولاً هو ـ مصطفى نجيب باشا.. ولم يطل ثم محمد رفيق باشا ولم يطل.. ثم الحسن باشا ولم يطل.. ثم أشقر علي باشا وهو الذي صار موت عبد الجليل المذكور بجيشه الذي أرسله له.. ثم محمد أمين باشا مشير.. وهو الذي استولى على الجبل ومسك غومة المحمودي وبعثه إلى السلطان وغومة المذكور أتاه في طرابلس.

ثم محمد نجيب باشا 1263هـ ثم أحمد عزت باشا 1265هـ).

ويشير في لمحة خاطفة عند الكلام على بعض القلاقل بين أهل البلاد قائلاً:

(. . ومات الحاج محمد بن القاسم بن خليفة المروري ليلة الخميس في 15 ربيع ثاني 1247هـ 1831م وبعض من القبائل عصبوا من عربه 1300 بعير ويقال بإغراء يوسف باشا للسبعة على هذا الأمر وكان يشغل بعض العرب ببعض كلما كثر عليه الخارجون من طاعته).

* * *

مثل هذه الإشارات كان يمكن أن تكون طريقاً للبحث عن الأسباب والعوامل ودراسة لبعض الظواهر الموجودة على مسرح الأحداث آنذاك.

إن بعض الحكام يشغل المواطنين بعضهم ببعض ويسلط قوماً على قوم. إعتقاداً منه أن هذا المسلك من دهاء السياسة ومن أسلوب العلاج. . ولكن الخرق اتسع عليه حتى أن إخوته وأولاده تألبوا عليه وانهار عليه البيت من جداره. . وسقفه. . ونوافذه. .

وهل يصلح للحاكم أن يؤلب أبناء شعبه على بعض؟

أين يجد الأرضية التي يقيم عليها دعائم حكمه؟ وضع الأزهري هنا نقطة هامة كانت جديرة بالتحليل والوقفة الأطول. . ولكنه موجز. . ملفلف القول سريع الإشارة. كانت إشارته مجرد كلمة مطوية في ثنايا سطور الأسماء والأحداث. . فهو يهتم كثيراً بالأسماء والتفريعات والأنساب دون الدراسة والتحليل. .

وعلى كل هي ـ شأن ما يسجله أمثاله من أصحاب الهوايات التاريخية ـ مواد قد يستفيد منها الدارسون فيما بعد على أسس منهجية تحليلية.

ولم يكن الرجل منسقاً لتقيداته. فهو ينتقل من موضوع إلى آخر، لأنها كانت على ما يظهر في بدئها عندما نقل منها مجرد قيودات في دفاتر وسطور متناثرة. . أوراق متناثرة ضمها.

وهناك كثير من الأسر العلمية في البلاد كان لديها دفاتر وأوراق متناثرة. . بها قيودات ونبذ من الأخبار والحوادث ومجاريات الأحوال في عصرها.

* * *

وهو يذكر غومة في أكثر من صفحة.. ويعود إليه أكثر من مرة، وكذلك، عبد الجليل.. والولاة.. ويوسف باشا. ويذكر بشيء من الإيضاح قصة غومة ومصرعه الدامي في يومه الأخير..

(من أخبار غومة ـ

غومة بن خليفة بعثه والي طرابلس محمد أفندي إلى السلطان هو والمرموري بن علي الصولي 1258هـ.

ثم إن غومة المذكور انفلت من السجن من إسطنبول سنة 1271هـ وأتى من الجبل من طرف الغرب وإتيانه إلى الجبل في أواخر رمضان 1271هـ وبلغ الزنتان يوم 7 شوال ووجد غومة ـ ككله ـ وخروجهم عن طاعة الترك وقتل ـ أحمد فاندي ـ حاكم يفرن.

مات أحمد فاندي المذكور أواخر ليلة الجمعة نحو ساعتين بقيتا منها 18 ذي الحجة 1262هـ والذين قتلوه رجال ككله.. ومات بـ ـ السوادنة ـ رحمه الله).

* * *

ويبدو واضحاً من السطور التي كتبها عن مصرع أحمد فاندي أو أحمد أفندي التركي أنه يراه مظلوماً ضحية ويدافع عنه فهو يؤكد:

(وبموته نشر النفاق واستبان، وقبله كان مستوراً يتحدث به خفية وحين موته كان معه بعض من الزنتان ـ والرجبان ـ والرياينة ـ وسار بهم ـ أحمد فاندي المذكور لتلك البلدة، مراده أن يبعث لمشايخ ككلة بـ ـ السوادنة.. والذي معه مسكتهم جميع ككلة ـ بخيلهم فطلقوا ـ أطلقوا ـ الزنتان ومن معهم.. ومسكوا الخيل وكان مراده ـ أحمد فاندي ـ يناظر مشايخ ككلة ويخمد نار الفتنة ـ ثم مر على الأصابعة، كذلك فوقع له ما وقع بـ ـ السوادنة. ومكث ـ أحمد فاندي ـ أربعة أيام من غير دفن ثم بعث له كبير يفرن رجالاً خفية أتوا به هو ووزيره.. ودفنا معاً قرب القصر.. ولم يتغير أحمد فاندي المذكور). اهـ.

* * *

ويشير إلى معركة ـ الطاحونة ـ بنواحي ككلة. . التي يذكرها رواة الأدب الشعبي. . والتي كانت من أدمى المصاولات في تلك الحقبة. . ويقول:

(ثم في يوم الأربعاء 20 محرم 1262هـ أتى أبو بكر التركي باشا بحملة عظيمة لأولئك المخالفين ونزك بجامع ككلة. . فوجد رجال ككلة ببقعة من الجبل تسمى الطاحونة ـ وبها أموالهم وبقوا أياماً.

يوم الأربعاء 15 صفر 1264هـ هربت ككلة من ذلك الموقع واستولى أبو بكر باشا على عموم ككلة).

وكما يثبت الشيخ الأزهري في دفتره حوادث غومة يشير إلى معاصر له أو حليف له. . . من رجالات المقاومة هو. . ميلود. . الذي شغل الجبل وجيله بصراع دام مع الولاة الأتراك.

(قامت يفرن. . ومن حولها على مدير القصر 29 رجب 1260هـ سببها ميلود بن الحاج سعيد الشقرون. . وكان منفياً بإسطنبول. . ثم أتى وعمل ما عمل بسببه أتى أحمد باشا بحملة عظيمة يوم الجمعة 8 شعبان 1260هـ ـ 1844م).

* * *

وفي حديثه أو نقولاته عن حوادث الزنتان وما حولها وتهديم قصور ومباني تلك المنطقة في المصاولات بين الحكام الأتراك والشعب يشير إلى أن أحد القصور ـ وهي مبان حكومية ـ وجد تاريخ إنشائه بخط جده ـ محمد الجريو ـ.

وهل هذا الجد لصاحب الدفتر كتب تاريخ إنشاء هذا القصر فقط ـ أم تراه أيضاً سجل وكان يسجل كثيراً من أحداث عصره ومنطقته. .

بلا شك أن جده هذا ليس من المستبعد أن يكون كتب وسجل أشياء أخرى لعلها ضاعت. . أو لعله استفاد منها في تقيداته هذه. . أو لعل الزمن يكشف لنا شيئاً منها مطموراً في أوراق تائهة. . وهي دلالة على اهتمام أولئك الناس بتقييد تواريخ الحوادث والمنشئات الهامة في عصرهم بشكل ما.

(يوم الأربعاء 3 شوال بعث أحمد باشا عمالاً لتخريب القصور بالرياينة والزنتان ـ والرجبان ـ وخربت بالفعل. من أعظمها قصر ـ أولاد بن القاسم ـ الذي أنشيء سنة 1101هـ ـ 1689م وجدنا تاريخه بخط جدنا محمد الجريو) اهـ.

وكما تشير التقيدات إلى حوادث الجبل الغربي ومناطق الزنتان وما حولها.. أيضاً تسجل الأوراق شيئاً عن حوادث غدامس.. التي لم تسلم من حملات العهد القره مانلي في أيام يوسف باشا ولم تسلم من حملات العهد العثماني.. تلك الواحة البعيدة في أطراف البلاد ـ ولكن الحملات العنيفة تسير إليها. كانت هذه الواحة في أيامها السعيدة.. شرياناً من شرايين الاقتصاد والصلات الحضارية عندما كانت محط القوافل التجارية. وسوقاً من أسواق الواحات في إفريقيا.. ومن هذه الحملات المسلحة ما أشار إليه الأزهري:

(قتل أيضاً حسن التركي المملوك في أوائل صفر 1259هـ ـ 1843م ببئرالكلاب، والذي قتله، محمد السباعي.. وذلك أن حسن المذكور وجه معه الوالي محمد أمين باشا لغدامس لجمع المال وليبني فلم يبلغ مراده). اهـ.

وهذه قضية كانت من عوامل الاضطرابات..

جمع المال من أفراد الشعب بقوة السلاح.

وفرض الضرائب من غير مقياس.

والصلة المتوترة بين الحاكم والمحكوم في ذلك العهد ليس هناك جسر من التفاهم.. بل اللسان مقطوع والسوط مرفوع.. والهوة سحيقة عميقة متزايدة سحقاً وعمقاً... ولنرى في سطور موجزات لوناً من هذا الاضطراب الدامي الذي لم تسلم منه حتى الواحات.. والأطراف البعيدة.. يحكي الأزهري في دفتره..

(.. في أوائل رمضان 1259هـ بلغ القائد عبد الرحمن أبو قبة.. فبلغ غدامس لأخذ المال وغيره وعمل عمالاً بدرج وهو أول والٍ عامل تركي نزل بتلك النواحي ومات بغدامس في أواسط ذي الحجة 1259هـ)..

وبعد أن يسجل الشيخ الأزهري الزنتاني بعض الحوادث المتعلقة بأعوام 1259هـ وهي كلها حوادث ووقائع ذات صبغة محلية في إطار ودوافع القلاقل والاضطرابات يعقد ما يشبه الفصل الخاص عن حوادث حركة غومة الفارس الثائر الذي يرجع إليه مرة أخرى بعد أن تكررت الإشارة إلى حوادثه ومعاركه ويقول هكذا:

(رجعنا لحوادث الشيخ غومة).

وكلمة ـ شيخ ـ التي يطلقها عليه دلالة التجلة والاحترام بينما كانت تقارير ونعوت الأتراك الحكام. . تنعته وتطلق عليه ـ المتمرد ـ الشقي ـ.

وفي الحقيقة أن هذا الفارس ما كان شقياً. . بل كان فارساً ثائراً يحمل قضية ويسعى لهدف. ولسنا هنا بصدد تفصيل حركته الثورية ـ فقد أفردنا له كتاباً خاصاً منذ سنوات. . ثم عرف طريقه إلى المسرح المعاصر وقد عرف الناس من هو غومة:

إنما نحن هنا بصدد موضوع في حيز خاص وهو ما يتعلق بتقيدات الأزهري وتسجيلاته التاريخية عن حوادث غومة ـ ومن هذه الزاوية نرى بعض الملامح من صورة غومة وتنقلاته وصدامه مع الولاة بقلم مؤرخ معاصر لفترته ومواطن من أبناء شعبه وهذه تكسبها قيمة وأهمية. يقول الأزهري:

(يتقدم في بعثة للسلطان فحبسه هناك. . ثم أفلت من السجن، بعد لبثه فيه أعواماً أتى غومة إلى ناحية بني يزيد ـ ومطماطه ـ أثناء واحد وسبعين ومائتين وألف 1271هـ ـ 1854م).

وهنا يشعر صاحب التقيدات أنه سبق له أن شار إلى هذا فتلافى ذلك فيقول: (تفصيله مر ذكره).

ويقدم لنا صورة من الصدام بين غومة والوالي التركي. . فيها معلومات وثائقية عن هذه الجولات في تاريخ الشعب ويكتبها بلهجة فيها عبارات ليبية مثل:

ولى بمعنى رجع.

طاح ـ بمعنى أطاح.

ظهر ـ طلع ـ خرج.

رقريق ـ إغريق يونان.

ويضبط الواقعة باليوم والتاريخ بالشهر الهجري. . طبعاً.

(. . . في يوم الأربعاء الثاني من أول الجمادين 1272هـ ظهر عثمان باشا وهو والي طرابلس بنفسه على طريق غريان ـ وظهر معه ـ صدقي الكاهية. . ومعه أيضاً ـ أحمد باشا الأرناؤوطي ـ وعبد الله باشا التركي ـ مع الرجال الذين معهم الحل والعقد. . ونزل بـ ـ شكردين. . بمحلة عظيمة وعسكر منظم ـ وغومة ومن معه بالجبل ووقع القتال بينهم صبيحة يوم السبت الموالي ـ وكان القتال بالمتاريس التي ـ بـ ـ أم الجرسان ـ وتكسرت ناس غومة ـ واستولى الوالي على الجبل ـ ثم في يوم السبت السابع عشرمن ثاني الجمادين 1272هـ وقع الصلح وولي السيد عثمان باشا بطرابلس ـ وطاع من كان خارجاً وفرمن فر ـ) اهـ.

وتقيدات الشيخ الأزهري الزنتاني كلها تدور حول بلده وما حولها من مناطق قريبة ـ يكاد أن يكون مختصاً بفترة معاصرة له من فترات القلاقل والاضطرابات. . غير أنه في مرة أو مرتين يخرج عن هذه الدائرة إلى تسجيل حادث من وراء الحدود. . من وراء البحار. . من أقاصي آسيا. . أو ما يتعلق بالدولة العلية المرتبطة بها البلاد. فالحرب بين الروس والقياصرة وبين الأتراك العثمانيين والحرب بين الأتراك واليونان ـ وهما حربان أو حروب تعتبر من الحوادث العالمية العامة والجديرة لدى الشيخ الأزهري وهو في بيته البدوي بالزنتان، جديرة بأن يسجلها وأن تأخذ سطراً في كناشه وتقيداته بين حوادث الصلح مع غومه. . وحوادث منازعات القبائل.

وها هو يخرج من الدائرة المحدودة. . إلى ما وراء الحدود البعيدة ويسجل تاريخ حرب كبيرة. .

(وقعت الحرب بين «الموسك» . . والسلطان عبد العزيز في أواخر 1269هـ ـ 1853م) .

* * *

لم تصله صحيفة يسجل منها . . ولا وكالة أنباء . . ولا مذياع . . إن ماركوني . . لم يولد بعد بل سماعاً من الضباط . . والجنود الذين أسهموا فيها . وشاهدوها . . وكان وفرة من أبناء ليبيا في تلك الحروب والمصادمات ومن أفواه الرواة المتناقلين لأحداث الحروب بين الترك واليونان ـ والترك والروس ـ أو المسكوف كما يقولون وكانت قلوب الناس وعواطفهم مع العثمانيين والسلطان خليفة المسلمين باعتبار الرابطة الإسلامية . . رغم إساءة الحكام وجبروت واستبداد الولاة أو أكثر الجباة .

لقد دامت الحرب مع الروس زهاء ثلاث سنوات ويسجل الأزهري الصلح قائلاً :

(ووقع الصلح بينهما في رجب 1272هـ) .

ويهتم بحرب اليونان التي يطلق عليها في لهجة ليبيا ـ رقريق ـ أي إغريق ـ ويقول :

(وقامت رقريق على السلطان سنة 1272هـ في أوائل رجب من السنة المذكورة) .

والحرب بين الدولتين دامت ثلاث سنوات وأكثر ولم تستغرق منه إلا ثلاثة أسطر . . وكلمات موجزات . بينما أحداث محلية يراها ويسمعها وينقل أخبارها طازجة تستغرق منه كل التقيدات لأن تلك حروب المسكوف واليونان مع الأتراك ـ تصله أنباؤها سماعاً ونقلاً من بعيد . . أو من لسان من شاهدها ـ بدأت الحرب انتهت الحرب . . انتصر السلطان انهزم السلطان . لكن هنا . . في بلاده حملات على وادي وجبل ومئذنة وفي السوق يشاهد جريحاً . . أو في سمر يتدفق الحديث وفي الأشعار الشعبية المتداولة سجل ومراح لهذا ، كل هذا يجعله أكثر

اهتماماً من حرب السلطان والمسكوف والسلطان واليونان وإن كانت كل المشاعر مع السلطان رغم ولاته القساة. . وحملاتهم العنيفة الدامية التي هي مواسم دامية تقطف الرؤوس اليانعة وغير اليانعة هي ظواهر يجد فيها الدارسون صور الهزات والتوترات. .

* * *

وبعد أن يقدم سطوراً من تلك الحروب على البحر الأبيض والبحر الأسود يعود إلى رؤوس الجبال والوديان إلى الفارس الذي شغل الناس والثائر الذي ملأ الدنيا أو ملأ دنياهم. . غومة. وكم كان يحلو له التقيد عنه لا يتركه حتى يعود إليه مرة أخرى. . لقد شغل ذهن الأب والابن والحفيد ـ في رواياتهم وأسمارهم وسطور تقيداتهم. لقد شغل الشعب. . والدولة. . كثيراً وطويلاً وأخذ من التاريخ ساحة عريضة.

* * *

(مات غومه المذكور في أواسط شعبان 1274هـ ـ 1857م بوادي ـ وان ـ بنواحي ـ درج ـ بالذكور ـ أتى من عمالة تونس بعد هربه سمع به أولو الأمر ـ فخرج إليهم الكاهية بجند عظيم على غرة فركب إليهم وحده وجنده وغزيه ورجاله غائبون فرد الجيش عن حريمه خمس مرات. ثم قتل، وإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده) اهـ.

* * *

ويلاحظ الشيخ الأزهري في تقيداته. . وسطور كناشه ملاحظات هامة. . يقدم معلومات قد لا تجدها في مصدر آخر فهو يهتم بتاريخ الفرسان من الرجال المغمورين والمجهولين لدى كثير من الناس. . أولئك. . المغاوير الذين قاموا بدور في محيط الحياة القبلية ـ أيام أن كانت القبيلة تقوم بدور هام في الحياة الاجتماعية. منهم الفارس الذي لعلنا نسمع باسمه لأول مرة هنا: ـ فريعيس ـ ويصفه بشكل مثير يدفع إلى إعجاب أهل البلد به. . هو من حماة الفرسان.

والمراقب الذي يحذر من هجمات الخصوم. كان قوي الإرادة.. حاد النظر. كان يقوم مقام شبكة ـ الرادار ـ يضبط أي قادم من بعيد. جهاز رصد.. لكنه جهاز متحرك فعال صوال جوال ويراه الأزهري في كناشه رجلاً جديراً بأن يؤرخ له وتؤرخ حياته ـ وهو على حق في هذه الرؤية وهذا الاهتمام والتقيد فيقول:

(... من الرجال الذين يحق لهم أن يؤرخوا ـ فريعيس ـ الجابري.. الرجباني ـ وهو رجل ذو حزم وشجاعة جامع لأوصاف الرجولة. وهو رقيب لأناس بلده ـ فلم يظفر بهم عدو البتة ولم يقصدهم عدو إلا ونصرهم الله عليه.. حتى ترك العدو قصدهم، والإغارة عليهم وعلى بلده ونواحيها مدة حياته، وفي ابتداء رقوبه وهيجان الفتن أتى لظهرة[1] وهي ظهرة عالية قبلى بلد الرجبان ونصب برأس الظهرة خشبتين طويلتين وعمل بين الخشبتين برأسهما سرير، فيأتي هو من بلده، ويجري فرسه يميناً وشمالاً ويصيح بالعدو ـ فإن كان هناك عدو يظهر له بسبب صياحه فيقرع له ويأخذه وإن لم يكن عدو يربط فرسه تحته بلجامها ويصعد على ذلك السرير الذي بأعلى الخشبتين ومعه شيء من التراب فإذا رأى العدو من بعيد يعلى التراب بيده للرعاة.. وهم ينظرون إليه باصطلاح بينهم ـ فإذا رأوا التراب هربوا بالغنم وغيرها وتحصنوا.. ويمكث هو على سريره.. ثم يتركه ويركب فرسه ويتبين للعدو، فيرجع العدو منهزماً ولذلك سميت تلك الظهرة بـ ـ الراقوب ـ إلى الآن وهو رجل من صحة النظر والحذر والشجاعة فوق العادة، ولا يركب من الخيل إلا السابق التي لا تلحق ويلغ صيته إلى مصر، بحيث رجل جلب فرساً لسوق مصر مليحة، فساومه رجل منهم فقال:

ـ لست من أهلها.. إنما صاحبها رجل بطرابلس يقال له: ـ فريعيس من صفته كذا ونعته كذا إلى آخر أوصاف فريعيس ـ فذلك الذي يستحقها.

مات يوم الخميس 20 جماد ثاني 1248هـ ـ 1832م مقتولاً بخيانة أحد أصحابه) اهـ.

---

(1) الظهرة أو الضهرة هي الكدوة والمرتفع من الأرض.

وبعد أن يكتب المؤرخ الأزهري الزنتاني صفحة عن الفارس فريعيس صور فيها جانباً من حياة أولئك الناس ومآثرهم وتقاليدهم في الصراع . . يؤرخ لبعض المنشئات في بلده فقد كان إنشاء سوق . . أو حفر بئر . . أو تشييد مبنى حكومي يرونه شيئاً جديراً بالتسجيل لدى الشعراء أو لدى كتاب التاريخ في ذلك المحيط. وها هو يسجل نشأة السوق ببلده الزنتان. وتاريخ بناء الأسواق فيه بجانب الطرافة تسجيل لجوانب من الحياة الاجتماعية والعمرانية يقول الأزهري:

(. . نشأ السوق بالزنتان قرب سيدي زايد بينه وبين الجامع ـ يوم الخميس 6 من صفر 1248هـ).

وكانت موجة الوباء عارمة أكلت الأخضر واليابس وحرقت كثيراً من الأرواح.

وكما أرخ وسجل في تقيداته لهذه الحوادث الفقيه حسن كذلك يؤرخ الزنتاني لهذا قائلاً:

(. . . نشأ الوباء أعاذنا الله الكريم منه بطرابلس والجبل ومزده 1252هـ ـ 1836م. مات بسببه خلق كثير).

* * *

وقد كان موت العالم في ذلك المحيط يعتبر حدثاً جديراً بالتسجيل وها هو يشير:

(فقد مات منه الإمام العلامة سيدي أحمد الخازمي الورفلي شيخ الوالد. وسيدي أحمد أبي طبل . . ونجله كذلك وغيرهم).

* * *

وكما يؤرخ الأزهري الزنتاني في دفتره للوباء والحوادث والفتن والصراع بين الناس يؤرخ ـ لسيول الأودية ـ وهي أحداث هامة ترتبط بأذهان الناس وناهيك بسيلان وادي المجينين وأثره في طرابلس. . . وقد أثرت سيول الأودية

في عالم الأمثال الدارجة والأشعار الشعبية. . . وأوجدت صوراً من التشبيهات والحكايات. . باعتبارها حوادث هامة خطيرة. وقد تسمع الآن في نشرات الأخبار والإذاعات بل وترى صور ذلك في الإذاعات المرئية والجرائد المصورة الناطقة ترى وتسمع تدفق السيول الكثيرة في أفريقيا وآسيا وأوروبا وانهيار السدود وجرفان عشرات الآلاف في الكوارث والعواصف. . المجتاحة للمحيطات. . يمر كل هذا في ومضة خاطفة أو عبارة عابرة في لحظات الأخبار. . ولن تكون مادة تاريخية مع أنها تسحق الآلاف وتجرف قرى ومدناً كاملة أحياناً، أما قديماً. . في قرية نائية. . في البادية في القرن الثامن عشر أو التاسع عشر. . فقد كان تدفق سيل وجريان واد. . يعتبر حدثاً خطيراً. . يسجل حادثة. . وتحكى وقائعه ويؤرخ بيومه. .

يجد فيه المؤرخ مادة وقد يرتبط بميلاد أو وفاة أو عرس، مات عام الوادي، ولد عام الوادي سافر عام السيل بل إن سيلان وادي المجينين ـ على سبيل المثال ـ كان موضوع قصيدة طويلة أطول من معلقة. . نظمها شاعر من طرابلس كان بالأزهر. . وطبعها فصلة خاصة قبل هجوم الطليان. . هو محمد المكي العربي الطرابلسي وهي قصيدة نادرة طبعها الطالب في رواق المغاربه على حسابه. وها هو الشيخ الزنتاني كما يؤرخ لنشأة وبنيان السوق من بلده. . يؤرخ لسيل عارم جاء مهدداً من وادي ـ جليلة ـ.

(وفي ليلة رجب 1252هـ ـ 1836م ساق وادي جليلة و ـ مرسيط ـ كثيراً من الزنتان ـ ومعظم أولاد أبي القاسم وأولاد شلوف).

* * *

ويهتم في تسجيلاته بتاريخ الوفيات للمثقفين في بلده وأنحاء الوطن وطائفة أخرى من الموثقين وهذه نماذج من تواريخه.

(توفي الولي الصالح سيدي أبي سبيحه أبي سعيد أبي سبيحة الورتري).

ويشير إلى أن هذه النسبة مكتسبة بالمجاورة: قائلاً:

(لمجاورته. . وإلا فهو الأصل مغربي ضحى يوم 26 رمضان 1255هـ ـ

1839م ومات بـــ الكليبية ـ من قرى غريان ودفن بقرية سيدي عبد الله الحسين).

* * *

(.. توفي سيدي منيع أحد مشايخ الوالد رحمة الله ـ 1280هـ ـ 1863م).

(توفي سيدي عمر الطاهر الكميشي الوزيري ليلة 22 محرم 1267هـ ـ 1850م والأقرب أنه مات مسموماً وهو من أجلة العلماء رحمه الله تعالى رحمة واسعة).

(توفي سيدي علي العالم صاحب زاوية الباقولي: أوائل ربيع أول 1258هـ ـ 1842م).

(توفي سيدي علي بن ميلاد أحد موثقي الزنتان سنة 1250هـ ـ 1834م).

(وسيدي مفتاح بن عبد الله بن عون أحد موثقي الزنتان 1258هـ ـ 1842م).

(توفي أيضاً عمنا ـ صالح بن منصور ـ في شهر رجب 1258هـ وهو رجل مفرد في عموم الزنتان).

* * *

وهو رجل منصف يذكر حوادث هجومات الأعراب على بعضهم حتى هزائم قومه.

(.. يوم 23 من ثاني الجمادين 1273هـ غارت ناس من الزنتان ومن معهم على عربان تونس وصارت الهزيمة على الزنتان ومن معهم ومات خلق كثير).

ويذكر مناطق الحدود المتعارف عليها أوان ذاك: ويشير إلى أولاد ـ بوسيف ـ قائلاً:

(... أولاد بوسيف كانوا لا يدخلون الفتنة وتحترمهم الناس لبركة أوائلهم وتمسكهم بالشريعة الغراء).

* * *

ويعني بالفتن تلك الصراعات الدامية والمشاجرات المتوارثة التي كان

يموج بها مجتمع القبائل فكان هؤلاء لا يسهمون في الخصومات. . إنما كان وضعهم ـ حيادي ـ يجنح للمصالحات ـ وهو دور هام في ذلك المحيط وفي تلك الأزمنة. . ولا يخلو المؤرخ في دفتره من زهو واعتزاز ببلده وبني قومه ويسجل هذا قائلاً:

(. . . والزنتان يسمى قديماً ـ أم الصف ـ اسم لا ينكره عدو ولا صديق. . لكونها تحمي من انتسب إليها وتحمل سقطات صفها، وترقع ما يقع فيه أي الصف من الخلل).

ويصل في تسجيله وإشارته المقتضبة لبعض الحوادث القبلية حتى عام 1309هـ 1891م ومن حركات الغزو والإغارات والهجومات التي هزت كثيراً من كيان المجتمع والت طويت صفحاتها إلى غير رجعة.

(وتسمى أم صويغ). . ويؤرخ الزنتاني للمجاعة ـ وكم قاسى الشعب في عصور التأخر ـ من ألوانها:

(عام 1247هـ 1831م أصابت الناس مسغبة عظيمة وانعدم القوت وأخرجت الناس زكاة الفطر لبناً).

* * *

وهو يشير إلى قضية فقهية ـ إخراج زكاة الفطر من اللبن وهذا يدل على أنه القوت السائد في هذه الآونة بدل القمح والشعير وألوان الدقيق والتمر إذ أن زكاة الفطر يخرجها المزكون من غالب قوت البلد. . تمراً ـ أو قمحاً ـ أو شعيراً ـ وإخراج اللبن يدل على ما وصلت إليه الحالة الاقتصادية في تلك الأزمنة ـ ويتحدث الشيخ الزنتاني عن تقسيمات قبائل تلك المناطق أيام زمن يوسف باشا ـ يتحدث عن المحاميد ـ والنوايل ـ والرياينة ـ وأم الجرسان ـ وتاغمة ـ والشقارنة ـ والقواطيش ـ والقنانيد ـ وأولاد شبل والحرابة وأولاد محمد ـ من ناحية التقسيمات المتعارف عليها أو المتنازع عليها وهي منازعات من أجل الحراثة أو الثأر التقليدي تلك التي انكمشت في عصرنا بدافع الوعي ونضج

الإدراك.. وامتداد الثقافة.. والمفاهيم الحضارية ويشير إلى صلح وقع بين القبائل في تلك المناطق عام 1320هـ ـ 1902م وكان بحضور أبي بكر البصير ـ وأن كل واحد من المرابطين والزنتان يحرث فيما كان يحرث الخ.

* * *

(وأصل المرابطين المذكورين جدهم سيدي عبد النبي الأصفر المدفون بزاوية أبي ماضي.. وهو المؤسس لها أتى من الغرب من صنهاجه.. وبقي بـ ـ تيجي ـ ثم انتقل لأبي ماضي. ثم هو رجل صالح ذو كرامات.. ولا يكنى بأبي سيف).

* * *

هذه لمحة عن دفتر أو كناش الشيخ الأزهري الزنتاني.

فيه دلالة على الحس التاريخي.

ويعد مصدراً من مصادر تلك المرحلة.

* * *

القصور والطرق في الجبل

إبراهيم سليمان الشماخي

هذا كتاب يدخل في المكتبة التاريخية والجغرافية وأيضاً له صلة بالدراسات الاجتماعية في ليبيا مؤلفه ـ إبراهيم بن سليمان الشماخي أحد المثقفين الدارسين من أبناء هذا الوطن، ولم نعثر له على ترجمة تعطينا فكرة عن أطوار حياته سوى إشارة يسيرة وردت في كتابه أدركنا منها أنه كان من طلبة العلم من بلدة يفرن، وكان أثناء تأليفه للكتاب هناك طالباً يدرس علوم الفقه والتشريع في ميزاب بالجزائر وأنه فرغ من تأليفه يوم العيد . . عيد الفطر عام 1310هـ 1892م وهذه الإشارة تفيد أنه كان من أبناء أواخر القرن التاسع عشر وعاش هناك قبل الغزو الإيطالي لبلاده بتسعة عشر عاماً أي في أواخر العهد العثماني . . وكان أسبق من سليمان الباروني في دراسته بالجزائر . . ولعله كان معاصراً وزميلاً لوالده عبد الله الباروني . . وقد اهتم هؤلاء جميعاً بدراسة تاريخ هذه المنطقة من البلاد وتراثها الثقافي، وهل ألف إبراهيم سليمان الشماخي شيئاً آخر غير كتابه هذا؟ ومتى عاد إلى طرابلس وما هو نشاطه العلمي الآخر . . ؟!

أسئلة قد تجيب عنها بعض الدراسات في المستقبل وهنا نقصر حديثنا على كتابه هذا الذي اهتم فيه بجغرافية الجبل الغربي وتاريخه وجانب من العادات والتقاليد وقد كتب كتابه هذا باللغة البربرية الأمازغية وعنوانه : (ليفا سرا والبريدن وين آدرارن أنفوسن) قصور وطرق جبل نفوسه .

والكتاب من الناحية التاريخية له أهميته وقيمته العلمية إذ هو يتكلم عن العمران والمباني والإدارات والمسالك والدروب التي يسلكها الذاهب إلى جبل نفوسه من ناحية قرقارش حتى يصل إلى يفرن وما حولها.

ونهج إبراهيم سليمان الشماخي في كتابه منهج القدامى في التعريف بالمسالك والطرق والدروب ويتحدث عن القرى والآثار والمباني والأطلال والآبار.. والمرتفعات والمنخفضات والوديان ومناطق الخصب والمناطق الجدب.. ومناطق الازدحام والكثافة ومناطق خالية غير آهلة.. وهناك آثار ومبان لا زالت موجودة وهناك قرى ومبان عفى عليها الزمن وأصبحت مجرد سطور في كتاب لولا ذكرها لضاع حتى اسمها.

كتبه باللغة البربرية الأمازيغية بلهجة أهل فساطو.. واستعان بكلمات بربرية جزائرية خاصة لهجة بني ميزاب والقبائل.. وزوارة عندما لا تسعفه كلمات لهجة فساطو.. وكتب الأعداد بلهجة ورسم (الهجار) من الطوارق وكما أشرنا فرغ منه يوم عيد الفطر أي أنه كان طالب علم مجتهد مهتم بلذة الدراسة حتى أنه كان يشتغل في أيام رمضان والعيد.

فهو على بعد المسافة وتباعد الديار يحن إلى بلده ويفكر فيها جادا بتأليف كتاب عن الطرق والمسالك والدور والمباني، والعادات والتقاليد وألوان من التواريخ وفصول الكتاب كما يلي:

المقدمة ـ الطريق لمن يريد جبل نفوسه من طرابلس.

باب في مديرية يفرن

فصل بلدة الغزاز

فصل بلدة الرومية

فصل بلدة الخلافية

فصل بلدة الرياينة

فصل مديرية فساطو

فصل بلدة الزنتان

فصل بلدة الرجبان

منطقة فساطو

بلدة الرحيبات

باب مديرية نالوت

فصل بلدة الحرابة

فصل بلدة الحوامد

فصل في ولاة جبل نفوسة

فصل في طريق الميري عند أهل الجبل

فصل في طريق المعيشة عند أهل الجبل

فصل في طريق السكني عند أهل الجبل

فصل في من سكن جبل نفوسه.

وهكذا قسم كتابه إلى بابين، كل باب شمل عدة فصول، ومن عناوين هذه الفصول ندرك المناطق والبلدان التي سلكها وتحدث عنها باهتمام وتفصيل.. متحدثاً عن المباني والمسافات والمزارع والسكان والآبار والعيون ومزيجاً من التاريخ والاجتماع والجغرافية.

نماذج من أسلوبه ووصفه

جاء في الفصل الأول أو في مقام بمثابة مقدمة (قال صاحب الكلام إبراهيم سليمان الشماخي.

إذا أردت أن تقصد جبل نفوسه من طرابلس خذ طريق الحماجي بينه وبين المدينة (طرابلس) مسافة ربع ساعة.. من هناك خذ طريق قرقارش حتى تصل جنزوراً بينها وبين طرابلس نصف يوم من هناك الطريق مقسوم على اثنين: واحد يمر بيفرن والآخر يمر بقعر العين ويلتقيان في مكان يقال له ـ الماس جيدي ـ

املال ـ وسط التراب الأبيض ـ وهناك ساقية موازية بالطريق حتى نهاية التراب الأبيض.

يوجد هناك بئر جديدة. . ومن هناك تأتي إلى (ترينا) فينتهي اليوم.

أخرج من هناك فجراً خذ الطريق حتى تأتي إلى بلدة ورشفانة اذهب من هناك فتصل إلى (معمورة) من تحتها بئر بالقمودي بينهما وبين ترينا نصف يوم من هناك تأتي إلى مكان يقال له السايخة توجد فيه أشواك كثيرة. . زد في الطريق فتدخل إلى قطيس بلد الحرث فينتهي اليوم الآخر.

واصل السير باكراً فتأتي إلى سفح الجبل يوجد هناك عين ماء يقال لها عين (تجارفا) يحيط بها تلال كبيرة ومرتفعة إلى فوق. . تواصل السير قليلاً فتصل إلى قعر (الخمسة) وهي منطقة وعرة جداً. . تمشي وتلف حتى تنتهي يوجد هناك قصر الأوائل يقال له ماجر من هناك تصل إلى ـ تندوغما ـ يوجد هناك أشجار تين وعنب وأمامها بئر الهلالي في بطن سوف أومتار (وادي أمتار). من هناك تدخل إلى مديرية يفرن.

* * *

ولم يكتف الرجل في رحلته الطريفة بمجرد ذكر الأماكن ورسم الخريطة للمسافر بل هو يصف الأماكن وتعداد السكان وأحياناً تعداد النخيل والأشجار وهذا يدل على المشاهدة والدقة.

ويمضي إبراهيم بن سليمان الشماخي واصفاً الطريق وما به (. . اصعد على وادي أمتار تأتي إلى قصر أغرم وهي أباضية يوجد فوق منحدر الوادي جنوباً والمنحدر الشمالي يوجد به عين يقال لها قوشنا يوجد به حوالى ـ 400 ـ أربعمائة نخلة يزرعون فيها (العامين) كثيرة. . وفوقها قصر القلعة وهو كبير جداً ويوجد به حوالى 1100 بيت وبه ثلاثة مساجد واحد يقال له ـ تدويث والآخر جامع ـ الحومه ـ والثالث يقال له مسجد ـ أرنون).

إن كتاب المؤلف إبراهيم سليمان الشماخي لم يكن قاصراً على وصف المسالك والطرق والآبار والعيون ولم يكن قاصراً على وصف المراحل التاريخية

وتطور الأجيال بل هو يقدم لدارسي حياة المجتمع الليبي وثيقة من عاداته في الأفراح والأعراس فيها الطريف وفيها صور من حياة تضافر المجتمع وحياة المرح والموسيقى والفن جديرة بالدراسة والاهتمام. .

ويتحدث أيضاً عن (الميري) الضرائب والإتاوات والمكوس التي كانت تفرضها الإدارة العثمانية أحياناً بالنفوذ والسوط. . والتي كانت مثار قلاقل واضطرابات حكاها تاريخ تلك المرحلة.

ويتحدث أيضاً إبراهيم سليمان الشماخي عن طريقة البناء والمعمار الهندسي في البيوت والمنازل وطريقة السكن وأصل السكان. . وتاريخهم القديم والحديث وهو كتاب زاخر بصور من حياة المجتمع وأسلوب الحياة، وفي سطور مقتضبات لا يمكن تلخيص أو تقديم صورة وافية عن هذا الكتاب وحيويته وقيمته العلمية، إنما نقدم لمحة من حديثه وتصويره لحفلة العرس. . فهو يحدثنا قائلاً عن مائدة العرس (وحفلة يوم الخميس يذهب الرجال بالجمال لكي يأتوا بالحطب. وتأتي النساء إلى بيت العرس بسويق (طمينه) نوع من البسيسة الخضراء بالزيت ودقيق البازين وينهض بعضهن لكي يغربلن والبعض الآخر يضعن القدور على النار. . ثم يأتي جالبو الحطب فيجدوا الغداء جاهزاً يأكل الرجال أولاً. . ثم تأكل النساء في المساء يأتي كبار القوم في الحي يدخلون إلى دار العرس ويأتون بذلك السويق والزيت. . والأطباق والقصاع ويعجنون ويخلطون طمينه ثم يضعونها على (دوسكان)[1]. . ثم ينادون أهل القصر ـ المنطقة ـ فيأكلون حتى مغرب الشمس حين إذ ينادون على العبيد لكي يدبدبوا على الطبول وينفخوا في المزامير. . ويأتي إليهم شباب المنطقة أينما وجدوا والذين يتخذون من بينهم وزيراً واحداً ويعطون له (أقطوم) سيفا يمتشقه بيده ومن هناك يبدأ في إطعام العسان[2] لا يأتي إليهم مخلوق حتى يوم الاثنين.

---

(1) دوسكان بالبربرية: مائدة العرس.

(2) العسان: الشباب المحتفلون بالعرس.

وفي يوم الاثنين تخرج الصبايا والفتيات والعروسة في وسطهن إلى عين الماء حيث يغسلن الملابس والأشياء حتى منتصف النهار وهناك يلحقهن الناس فوق الخيول مع العبيد بآلاتهم الموسيقية مع حركات الرقص والغناء.

وهناك في ساحة يفرن يمتطي الشباب الخيول في ميز حيث يكثر الزحام ولا تجد مكاناً تقف فيه منذ تلك اللحظة يدخلون العروس بيت العريس.

ويمضي المؤلف في سرد تقاليد الأعراس وحفلات الزفاف بالجبل.. (يأتي أهل العريس بوجبة العشاء في الغابة ليلة الجمعة. ويوم الجمعة منذ شروق الشمس حتى منتصف النهار وهم يطعمون البازين[1] ويأتي الأمازيغ والبياتون والبيض والسود إلى وقت العصر.

ويأتون بجمل يضعون فوقه (سمورة) قاعدة للهودج ويغلفونها جيداً بالقماش ثم يدخلون فيها العروس ومعها طفل صغير وقصعة بازين.. ثم ينهضون الجمل ويأتي أهل الفرح صغاراً أو رجالاً لكي يوصلوا العروس إلى رجلها.. فيصلون عند مغرب الشمس فيدخلون العروس ورجلها إلى دارهم ويتبعهما الفرسان وحينئذ يأكلون البازين وبعد أن يأكلوا يقفون في صفوف ممتشقين بنادقهم ويطلقوا أعيرة البارود منذ اللحظة التي يدخل فيها العريس على العروس.. في تلك اللحظة يأتي العبيد لكي يرقصوا ويدبدبوا دبدبة العرس ومن التقاليد التبرع بالجلد والكبد وتعليق المرارة على باب البيت ويبقى العريس مع عروسه حتى يفض بكارتها حيث يأتي وزيره كي يخرجه ـ في تلك الليلة أي ليلة السبت ـ وفي يوم السبت تأتي النسوة بلحم ذلك الخروف ويضعن عليه (شرشي).. إلى حين وقت العصر فيدخل عليه المحتفلون بالعرس.. في بيت العروس ويأكلون ويمارسون ألعاب المرح والمصارعة حتى يغلب أحد منهم الآخر بالأخذ والمصارعة والقفز.. بعدئذ يخرجون إلى الغابة ويقسمون أنفسهم على طائفتين فالذين في أيديهم الحنة يصبحون من العرسان (أي أهل الفرح)

---

(1) البازين: أكلة شعبية دسمة معروفة والكلمة بربرية.

والذين لا توجد في أيديهم الحنة يبقون على حده وجانب ويظلون في لعب وصراع حتى يحل الليل ومن هناك يذهبون لكي يطلبوا العشاء من أهل العرس ومن هناك.. يتناولون لقمة أو لقمتين من اللحم ويصبحون هم أيضاً من أهل العرس.. وهناك تنتهي الحفلة للعرس بين غناء ومرح وإطلاق البارود.. حتى يأتي شاب آخر يطلب الزواج فيقع اختياره على فتاة.. فإذا رفض أهل البنت حينئذ تهرب مع حبيبها.. ويتدخل أهل الخير فيقضون الحاجة).

ويعقد إبراهيم بن سليمان الشماخي في كتابه هذا فصلاً في ولاة جبل نفوسه.. أو النظام الإداري الذي كان متبعاً في أواخر العهد العثماني.

وهي لمحات ومعلومات ذات أهمية لدارسي التاريخ الإداري ونظم الولاية العثمانية آنذاك فكتب: كان بعض المواطنين يأتون من اسطنبول وبعضهم من طرابلس والآخر من نفس منطقة الجبل يقول: (هؤلاء الذين يخصون يفرن وهم الباشا، والقاضي وموظف المراسم (المراسمجي) يأتون من اسطنبول. أما الكاتب وأمين الصندوق فيبعثون من يفرن وكذلك الأعضاء. من فساطو المدير يأتي من طرابلس والكاتب يأتي من يفرن. أما الأعضاء فمن أهل فساطو، والقاضي تركي يأتي من طرابلس، أما المفتي وأعضاء السلك القضائي فمن فساطو في لالوت والمدير والقاضي يأتي من طرابلس. الكاتب يأتي من يفرن أما بقية الأعضاء فمن لالوت).

ويهتم المؤلف بموضوع الجباية والضرائب وما يعرف آنذاك بالميري.. وقد عاشت ليبيا في العهد العثماني أشكالاً وأنواعاً من الجبايات والمكوس والضرائب التي كانت كثيراً ما تكون من عوامل الاضطرابات وعدم الاستقرار، ويقدم إبراهيم سليمان الشماخي في كتابه نموذجاً من أنواع الجبايات وطرق ونظام فرضها والنقل.. عنوانه (في طريقة جباية الميري من أهل نفوسه) (يأتون إلى القرى التي تتكون من خمسمائة رأس بعد ذلك يأتي أهل القرية ويحسبون الرجال والجمال رأساً رأساً. والبقر اثنين برأس والنعاج عشرة برأس والماعز عشرين برأس والزيتون عشرين برأس والنخل ثلاثين برأس والتين مائتين برأس والآن يجمعون الرؤوس

ويقسمون 500 خمسمائة محبوب على الرؤوس ونتيجة الإحصائية هذه يقدم منها أصحاب رؤوس الأموال الجباية المفروضة إلى أمين الصندوق).

وهكذا يهتم المؤلف بالناحية الاقتصادية. يتحدث عن أنواع الضرائب والجبايات ويهتم بالناحية الاجتماعية فيتحدث عن الأعراس والعادات والتقاليد.

ويهتم بالناحية الجغرافية فيتحدث عن الطرق والمسالك والدروب وبطبيعة الحال ومضامين الدراسة أو الاستطلاع هو يتحدث عن جوانب من التاريخ لهذه المناطق فهناك فصل بعنوان (فصل من سكن جبل نفوسه) هم على اثنين أمازيغ.. ومنهم من جاء من مكان آخر بالذين هم أمازيغ فيمتدون من الباقول إلى لالوت ـ ويقال لهم إلى حد الآن ـ أمازيغن ـ وهم أناس ذو طبائع هادئة كثيراً.. يصمتون عندما يحدث شيء ما.. ويبقون إلى الخلف. أما هؤلاء الذين جاؤوا من مكان آخر.. فهم فساطو ويفرن ـ وأصل هؤلاء من آت مستاوا الذين تحاربوا هم وآت غزا.

فغلبهم آت غزا وجاؤوا ليخرجوهم من ديارهم فجاء أهل الغرب يناصرونهم.. وحدث بينهم صدام كبير في مكان يقال له ـ تيغدو، وهو تيغدو وهو بين سيدي عامر ـ ورستطفا وهناك ملك آت غزا..

ومنذ تلك اللحظة انقلبت مستاوا إلى إباضية نصف يفرن تتكون من آت سلام أما النصف الآخر فمن آت ورسفطا.

وقد جاؤوا جديداً ـ أما آت فساطو فقد جاؤوا من الغرب ومنهم آت عومر.. وآت سلطان. وهؤلاء أناس شديدو المراس جداً. وهم تحت آت يفرن إدارياً.. لأن يفرن هي كبرى مناطق الجبل).

ويشير باقتضاب إلى الصراع مع الإدارة العثمانية وهو صراع كان مريراً وناضل الشعب من أجل مطالبه..

وكان بودنا لو أطال الحديث عن مقاومة الشعب لفساد الإدارة التركية آنذاك ولكنه لخص باقتضاب بعض الحوادث على الإدارة التركية قائلاً: (وأهل

الجبل رؤوسهم يابسة فعندما جاء التركي إلى طرابلس بقي هناك قليلاً ثم قال أريد أن أخرج إلى البياتين (يقصد الرجل) فجاؤوا إلى عنده بمحض إرادتهم ودخلوا تحت حمايته. . ثم رجع إلى غريان وحدث هناك صدام قليل. . ثم تغلب عليهم ومن هنام غرب إلى لالوت فسيطر عليها ثم دخل إلى فزان فتغلب عليها ـ وللآن بقيت يفرن وفساطو ـ وفي عام المصابيح جهز التركي الخيل. من الجند الترك والبدو ولكن أهل يفرن وفساطو لم يخشوه وفروا. . ثم جاء أحمد باشا فسيطر على يفرن وقتل كبراءها وبنى الحصن التحتاني وأمسك بغومه كبير الحرب في الجبل وأخذه إلى البلاد الكبيرة (يقصد نفاه إلى اسطنبول).

بقي هناك قليلاً. . ثم فر ورجع إلى يفرن وأحدث هناك حرباً. . واستولى عليه. . ومن تلك اللحظة فر أناس غومه واليوم خبت نارهم. .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذا الكتاب قام المسيو موتيلينسكي الفرنسي. . والذي كان مترجماً عسكرياً في بلاد الميزاب بالجزائر. . بتكليف المؤلف إبراهيم سليمان الشماخي بكتابة هذا الكتاب. فكتبه تلبية لطلبه. . وحرره بالبربرية الأمازيغية عندما كان طالباً بالجزائر. . وقام الخواجة موتيلينسكي بترجمة الكتاب حرفياً إلى الفرنسية.

وكتاب القصور والطرق في جبل نفوسه طبع سنة 1330هـ 1885م باللغة البربرية الأمازيغية ذات الأحرف العربية في مدينة الجزائر وطبع بمطبعة «بردان» الفرنسي. . وكان الناشر له هو موتيلينسكي الذي كان يشغل منصب الحاكم العسكري في وادي ميزاب أي بعد عشرين عاماً من الفراغ من تأليفه.



محمد البشير ظافر المدني

وطبقات المالكية

من مدينة مصراتة ينتمي إلى عائلة المدني اشتهر منها مؤسس الطريقة المدنية جده الشيخ محمد حسن ظافر المدني ـ وأما عم المؤلف فهو محمد ظافر المدني الذي كان في إسطنبول.

وصاحبنا هذا كان أزهري الثقافة.. له جولات ورحلات في البلاد العربية والإسلامية.

وقد أمدنا محمد بشير ظافر المصراتي بكتاب في فنون الطبقات والسير.. ترجم فيه لعدد من علماء المذهب المالكي.

وأراد المؤلف بكتابه أن يجعله مسلسلاً في أجزاء وكان يود أن يواصل تقديمه في حلقات متواليات ولكن وقف به حيز التنفيذ عند الجزء الأول فقط ولم يصل إلى أيدي الناس غير هذا الجزء الوحيد، وقد يكون المؤلف أعد بقية الأجزاء ولكن لسبب أو أكثر لم تر بقية ما أعد نور الطباعة.

ولهذا لا نستطيع أن نكمل الصورة كما رسمها هو لتلك البقية التي لم تظهر.

ولكن هذا لا يمنع من إعطاء فكرة عن اتجاهه ومنهجه ـ فعلى منوال هذا

الجزء كان حتماً ستكون بقية الأجزاء والحلقات الأخرى لو أتيح لها الوصول إلى أيدي الناس.

يقع هذا الجزء في مائتين وواحد وستين صفحة (261) طبع عام (1906م) في أواخر العهد العثماني وقبيل الغزو الإيطالي وكانت خطة السير في الكتاب على منوال ما صنع ابن فرحون ـ صاحب كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب.

وقد أراد المؤلف أن يكون كتابه ذيلاً.. أو تكملة.. لكتاب نيل الابتهاج لما ليس في الديباج لأحمد بابا التمبكتي ـ الذي كان من علماء القرن الحادي عشر الهجري ـ ت 1036هـ.

وهذا التمبكتي هو أيضاً كان كتابه هذا تكملة وحلقة موصولة لكتاب آخر في تراجم وتواريخ طبقات المالكية ـ هو الديباج المذهب الذي قام بتأليفه ابن فرحون الأندلسي.. وأيضاً كتاب ابن فرحون الأندلسي ملخص وبه امتداد ومستند إلى كتاب يعد عمدة في تراجم طبقات المالكية ـ ترتيب المدارك للقاضي الفقيه الكبير والمؤرخ العالم عياض الأندلسي 476هـ 544هـ ـ 1083م 1149م.

فخطة السير أو الرسم البياني في كتابه وتاريخ وسير الطبقات المالكية.. وتراجم رجال المذهب هكذا.. لاحق يأخذ من سابق يستند إليه ويأخذ منه الخيط ثم يضيف ويكمل. واشترك في تكملة هذه الحلقات في رحاب التراجم وفن الطبقات القاضي عياض ـ من الأندلس... ابن فرحون ـ من الأندلس والمغرب... أحمد بابا التمبكتي ـ من إفريقيا ـ مالي ثم في طرابلس من مصراته يمسك الخيط.. خيط التاريخ والتراجم وطبقات رجال المذهب المالكي هو صاحبنا الذي عقدنا له هذا الفصل هنا بشير ظافر. وهم.. من هنا.. وهناك.. ورغم اختلاف درجاتهم ومستويات قيمتهم العلمية.. يدورون في دائرة نقل المعلومات.. وسرد التراجم وإعطاء الصورة العامة.. والاهتمام بالأسانيد.. والأساتذة الذين أفادوا الشخصية التي يؤرخون لها أو التلامذة الذين

أخذوا عنهم. . أو المؤلفات التي كتبوها. . وركيزة الاهتمام لدى كل هؤلاء المولد. . والوفاة وغالباً ما تكتب هذه المعلومات أو تسرد بصورة عامة بأسلوب السرد والنقل.

ولكن جوانب أخرى قد تهم فن الدراسة التاريخية مثل موضوع ـ الاتجاه الفكري ـ والنمط الثقافي والجو السياسي ـ والمناخ الاجتماعي ـ وعوامل متنوعة للتأثير والمؤثرات ـ والملمح المميز للشخصية أو للنموذج الذي أرخوا له. .

هذه أمور قد يشيرون إليها من غير قصد أو أحياناً بقصد ليس فيه تعمق يشفي غلة الباحث وهي ـ رغماً عن كل الفجوات والمتطلبات ـ هي تراجم وحقائق ذات قيمة علمية في رحاب التاريخ العلمي وتوضح في سطورها ونبض حيويتها جهد العلماء في مجالات الفقه وتاريخ التشريع وقد تعطي فكرة أو تعين على إعطاء الفكرة ـ عن تطور المذاهب الفقهية والمصارعات الفقهية بشكل من الأشكال.

وهي خواطر تنساب منها عندما ترى ما صنعه القاضي عياض في مداركه وابن فرحون في ديباجه والتمبكتي في نيله. ثم الخيط الذي أمسكه منه بعد ذلك بشير ظافر في كتابه «اليواقيت الثمينة».

ثم يمسك الخيط عالم من تونس هو ـ ابن مخلوف ـ التونسي ـ يستفيد من هؤلاء جميعاً ويأخذ منهم ثم يضيف إلى معلوماته عن طريق النقل والسرد العلومات ونماذج من الشخصيات في كتاب ضخم أطلق عليه (شجرة النور الزكية) واستفاد في كتابه هذا من معاصره المؤرخ الليبي الشيخ محمد بشير ظافر. .

وكان عنوان كتاب المؤرخ الليبي فقرتان من السجع شأن أسلوب ذلك العصر وما قبله.

(اليواقيت الثمينة، في أعيان مذهب عالم المدينة) ولا ندعي هنا أن

صاحب الكتاب المؤرخ كان في صفحاته صاحب رأي. . . أو منهج استنباطي أو هو من الرعيل الذي يجنح إلى التحليل والمقايسة بل هو كمؤرخ يلتصق بالنقل. . ويعتمد على السرد. . لم يكن صاحب منهج جديد ولا يدعيه هو. . بل كان شأن التأليف في عصره ونتيجة لتأثره بمن سبقه في كتاب السير والتراجم كان يعتمد كل الاعتماد على المصادر والنقولات وهذا في حد ذاته وبالنسبة إلى محيطه ومناخه الثقافي ومنهاج عصره يعتبر جهداً خيراً واتجاهاً فيه روح حلقات العلم والتعليم التي كانت سائدة ومتداولة.

فالشيخ محمد بشير ظافر ـ ومن على شاكلته من كتاب التاريخ والسير. . وضروب المتاهات المنقبية. . وفهارس التراجم هم ـ تلامذة مقلدون. . أو متأثرون. . بمدرسة.

«الجمع» ـ و«النقل» و«السرد». . وتقديم ما نستطيع أن نطلق عليه.

«بطاقات التعريف».

وهو نفسه يشير إلى هذا في لمحة. . من سطر. . في كلمة. . جاءت في المقدمة من كتابه عندما قال:

«شمرت عن ساعد الجد وعزمت أن أجمع كتاباً يكون ذيلاً لهذا الكتاب» يقصد به. . نيل الابتهاج. . لأحمد بابا التمبكتي فكان قصده شيئين.

الجمع. . والنقل لما يعثر عليه من تاريخ وتراجم.

وأن يكون عناصر المضاف أو المجموع. حلقة مكملة لما سبقه يتناول دائرة زمنية من حيث وقف أو انتهى من سبقه.

ويشير قائلاً: «أذكر فيه من أعقلهم». . .

ويقصد بعبارة (أعقلهم) أي عاصرهم وأدركهم وهو في دور البلوغ والنضج العقلي.

وقد وصل الكاتب المؤرخ إلى عصره في تاريخ الفقهاء من الطبقات المالكية.

وحقيقة. . أن النماذج ـ ومن أرخ لهم من معاصريه هو ما يميز تراجمه وشخصياته عن المنقولات الأخرى.

فقد اعتمد في غيرها على بطون. . أو ظهور الكتب باحثاً عن الشوارد والأوابد. . أو غير الأوابد من المرويات.

ومن لا يعرف المؤلف تاريخ وفاته بالتحديد ـ عندما يتصدى له يكتفي بالإشارة إلى العصر الذي عاش.

ومن المصادر التي اعتمد عليها بشير ظافر هناك مصادر ليبية منها الموجود المتداول، ومنها النادر المفقود. . منها المطبوع ومنها المخطوط.

التذكار لابن غلبون المصراتي ـ وهو كتاب موجود في المتناول كثير التداول.

وهناك كتاب ألفه عمه الشيخ محمد ظافر المدني[1] الذي كان شيخاً لزاوية الشاذلية بإسطنبول والذي كان مقرباً من السلطان عبد الحميد وكان في صراع وتنافس مع أبي الهدى الصيادي الشامي ذلك الكتاب هو. . الرحلة الظافرية.

وكما كان مصدراً فيما بعد لابن أخيه كان أيضاً مصدراً لمؤرخ ليبي آخر من عصره وجيله هو المؤرخ: أحمد النائب. . ويبدو أن كلا المؤرخين قد استفادا من مخطوطة الرحلة الظافرية في إسطنبول وهي رحلة بها كثير من التراجم والسير ـ وتعد من مصادر تلك الحقبة حوت نماذج وأنماطاً ـ ولا تزال هذه الرحلة أو هذه النسخة النادرة مطمورة في أحد أقبية بلاد الأتراك على أغلب الظن.

فقد شاهدها هناك الشيخ عبد الرحمن الزقلعي الطرابلسي. . . وحدثني

---

(1) يلاحظ عن أسرة ظافر المدني ما يلي:
محمد حسن ظافر المدني توفى 1263 هـ 1846ف بزاويته بمدينة مصراته، ومحمد ظافر المدني عم المؤلف اليواقيت توفى باسطنبول 1903ف.

عنها منذ سنوات بعيدة ولم أعثر لها على ظل. . وإن وردت الإشارة إليها في أكثر من كتاب.

وهناك ـ المنهل الرائق في أسانيد العلوم والطرائق. . لمحمد بن علي السنوسي.

ومن الكتب التي ألفت في ليبيا كتاب له صلة بتلك الفترة المعاصرة هو:

الدر الفريد الوهاج في الرحلة من الجغبوب إلى التاج. . حيث وصف مؤلفه ـ السيد أحمد الشريف رحلة صحراوية وأورد فيها نماذج من التراجم وهذا الكتاب لا يزال مخطوطاً.

وهناك أيضاً كتاب ألفه الشيخ ـ فالح الظاهري الحجازي الذي أقام ودرس في ليبيا وعنوان الكتاب ـ حسن الوفا لأخوان الصفا ـ.

وبالكتاب بعض سير وتراجم معاصرة للكاتب بشير ظافر طبع بالإسكندرية 1323هـ 1905م.

هذه مصادر من مؤلفات كتبت في ليبيا ـ قد نهل منها المؤلف محمد بشير ظافر بجانبها مصادر متعددة متداولة من كتب الطبقات والتاريخ.

وقد رتب الأعلام التي أرخ وترجم لها على حسب حروف المعجم مقتدياً بمن سبقه في هذا المضمار مثل ابن فرحون والتمبكتي. ووصل في الجزء الأول إلى حرف ع وبدأ بترجمة أحمد بن الطريف. . وآخر شخصية ترجم لها هي العربي الدرقاوي. . ثم أضاف ملحقاً ترجمة الشيخ حسن العدوي.

توفي محمد بشير ظافر المدني عام 1327هـ 1909م وله رسائل مطبوعة في غير مضمار التاريخ منها تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة طبع بالقاهرة بمطبعة جريدة الراوي عام 1904م.

ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل

هذا كتاب ألفه رجل ليبي، ويدخل في نطاق كتب الذكريات والرحلات.

ويسجل أحداثاً ووقائع تاريخية عن موطنه ليبيا والبلاد العربية التي لجأ إليها، وتجول بها ويحكي في أسلوب مثير عن مشاهداته في الصحراء الليبية ما بين أرض فزان وصحراء سيوة، وريف مصر والقاهرة ومشاهداته في الحجاز وتونس والجزائر.

وكان تأليف الكتاب وتسجيل مروياته بطلب من الفرنسيين الذين كان على صلة بهم ويثق فيهم بصورة واضحة سجلها في كتابه.

وقد وصف مصرع والده الذي كان متمرداً ضد السلطة العثمانية.. وكان لقاء مريراً في معركة دامية صرع فيها عبد الجليل، وكما هو معروف في تاريخ العهد العثماني بطرابلس.. واستطاع ولده هذا ـ مؤلف الكتاب ـ أن يفر وينجو بنفسه.

وينطلق وحيداً في فيافي الصحراء في رحلة شاقة عسيرة، وحكى مشاهداته وصورها بدقة ولم يسجل تاريخ الأيام والأشهر، ولكنه مفيد كل الإفادة لدارس تاريخ تلك المرحلة.

والمؤلف هو ـ محمد بن عبد الجليل سيف النصر، وقد كتب كتابه هذا

بعد عشر سنوات من مصرع والده إذا كانت نهاية عبد الجليل سيف النصر عام 1842م وفرغ من تأليفه عام 1852م.

ويقال إن القنصل الإنكليزي في طرابلس استدعى عبد الجليل مبدياً التفاهم معه وأعلن عن رغبته في الاجتماع به لمساندته ضد الدولة العثمانية، ولكن هذه الرغبة كانت سراباً. . والمساندة لم يستمر فيها، فقد كان القنصلان الفرنسي والإنكليزي يتلاعبان بالحركات الشعبية في طرابلس، ويستغلانها أبشع استغلال لتحطيم الدولة العثمانية، وكان بين فرنسا وبريطانيا صراع على المنطقة أيضاً.

ويظهر تنافس وتدخلات القناصل الفرنسيس والإنكليز في حركات تلك الآونة ويظهر هذا مدعماً بالوثائق والمراسلات لدارس حركات غومه. . وميلود. . وعبد الجليل. . رغم أن الدوافع لهذه الحركات كانت بدافع وطني وإحساس شعبي. . لكن القناصل في خدعهم وتلاعبهم كانت لهم تدخلات وأصابع وأدوار.

وقد طوقت قوات عبد الجليل بحملة بقيادة الضابط العثماني والمواطن الليبي ـ حسن البلعزي ـ وكان الحصار شديداً عند مناطق سرت وأبي نجيم وانسحب عبد الجليل إلى قارة مرتفعة لا تزال تحمل اسمه إلى الآن. . وقتل هناك. . كما قتل معه أخوه سيف النصر وولدان لهذا الأخير كان ذلك عام 1842م وقطع رأسه وجلب إلى طرابلس، وفر هذا الابن محمد بن عبد الجليل، وأتيح له أن يكتب مؤلفاً تاريخياً عن مشاهداته وذكرياته يروي مغامرات الطريق. . ومتاعب الرحلة الشاقة. . ويقول في المقدمة.

يقول المؤلف محمد بن عبد الجليل.

«فإني أحكي لكم ما جرى علينا بالصحيح لا تبديل ولا تغيير. . فإني أحكي وأقول. . لما كنت ابن ثلاثة عشر سنة أتى عمي عمر من أرض تبو ورفعنا معه إلى أرض تبو وجعلنا مثل ابنه، لأنه ليس عنده في ذلك الوقت أولاد، وجعلنا في الجامع نقرأ في القرآن، فلما حفظنا القرآن جعل لنا عرساً عظيم وذبح في ذلك العرس مائة شاة من غنم السودان وأتى جميع أهل التبو.

وضيفوا عندنا، وحمدوا لعمنا على أجل حفظنا كتاب الله القرآن.. ولما كان عمرنا ثمانية عشر عاماً أرسلنا عمنا بهدية إلى حضرة سلطان خسنة وبرنو السلطان محمد بيلو».

ويبدأ كتابه المشحون بالذكريات والمعلومات بمثل هذه الأمور المتعلقة بحياته في السودان الأفريقي ببرنو... والنيجر أيام السلطان محمد بيلو.

وقد أكرمه هذا السلطان.. وأقام الاحتفال سبعة أيام وقدم محمد بيلو لهم الهدايا... وكانت هناك مصاهرة بينهم.. وأعطى لأختهم رقبة نعامة مملوءة بالتبر من الذهب.. ثم توجه إلى عمه واستغرقت مدة المسافة ثلاثة عشر يوماً..

ثم رجع إلى أرض فزان بالهدايا والعطايا وأقام المؤلف في مطلع عمره عامين في أرض التبو ولما بلغ عمره إحدى وعشرين عاماً أرسل له والده رسائل يطلب فيها عودته... وعاد إلى أرض ليبيا ومعه خمسة وعشرون من الهجين.. وجاء إلى واحة مرزق وضربت النوبة العثمالي» ـ على حد تعبيره وظل العرس سبعة أيام..

وهناك صور يحكيها عن العادات والتقاليد الشعبية في تلك الأيام.. وتلك الأنحاء.. وهي بجانب مواضيعها التاريخية أيضاً بها جوانب ومواد ذات أهمية لدراسة المجتمع وظروفه وأحواله المعيشية والاجتماعية الحسنة منها والسيئة والجيدة أو المهترئة.. وأقام الشاب العائد من أفريقيا سبعة عشر يوماً في أرض مرزق وبعد مسيرة سبعة أيام دخل (بني وليد). ولم يجد والده هناك فأقام ببني وليد ثلاثة أيام.. وذهب إلى أرض الزعفران.. وهنا يسوق سطوراً هي من النصوص والوثائق التي تستدعي انتباه الدارسين لتلك الفترة:

«.. وأخبرنا بأن كان حداه رجل من الفرنسيين وجاب له أربعة مدافع صغار وأنه محب لأبي..» وتؤكد تدخل الفرنسيين في تلك الفترة من وراء ستار وقد خدعه الإنكليز وطارده العثمانيون فوجدها القنصل الفرنسي فرصة.

ويحكي المؤلف ـ وهو شاهد عيان ـ عن أسلوب تطويق حسن البلعزي والأدغم لوالده قائلاً: «نيتهم الخداع لنا هم والبلعزي».

ويروي قصة الصدام في الصحراء ومطاردة العثمانيين له ويتحدث عن الحيل أو التطويق الذي كان على حد تعبيره «ناعورة» وكان مع والده عبد الجليل مائتان من الفرسان ومع حسن البلعزي وجماعته ثلثمائة مسلح وروايته هذه عن المعركة الأخيرة من أهم الوثائق لتاريخ تلك الفترة التي ما زالت في حاجة إلى كشوف ودراسات.

ويقول إنه دخل عليه رجل من الترك وضربه بقربيلله وقبض على أبيه عبد الجليل ومن كان معه من إخوته وأولاد عمه.

وسرد في ثنايا كتابه هذا تفاصيل تهم المؤرخين واستطاع هو أن ينجو ليكتب لنا فيما بعد تفاصيل مشاهداته ورحلاته وذكرياته بأسلوب أقرب إلى اللهجة العامية. . والتعابير العفوية الدارجة.

والكتاب يقع في مائتين وواحدة من الصفحات 201 وليس بصفحات الكتاب فصول ولا عناوين داخلية. . ولا أبواب. . بل هو سرد لمعلوماته وإفاضة في الحديث عن مشاهداته. . وحديث عن المعارك والحالة السياسية وحوادث مصر وتونس والجزائر في تلك الحقبة من القرن التاسع عشر ويقول:

(. . وتوجهنا من أرض إلى أرض حتى وصلنا إلى نجع المغاربة وأنا مجروح على رجلي وأنا أجري الليل كله فلما تناصف الليل أقبلت علينا ثمانون خيلاً من خيل العرب الذي مع البلعزي وصار بيننا حرب شديد في ذلك اللقاء).

وكان هروبه على فرس طوال الليل وهم يلاحقونه على أثره. . ودخل مختبئاً في أشجار القندول. . ويتحدث عن العطش والجوع الذي كابده أثناء هروبه في الصحراء حتى أنه أصيب بالحمى. . ويتحدث عن الرجل الذي أكرمه وآواه. . وسقاه. . وعالجه. . وأطلعه على قصة والده. . ومعارك أهله مع الترك. . وتحدث عن أم الرجل الذي آواه.

(. . فجبدت لها عشرين بندقية من الذهب وعطيناهم لها وكانت تحتي خمسمائة بندقي (جنيهات ذهبية) وديعة تحتي على عازة الزمان). وخبأته المرأة في الزريبة. . وكمدت له الجروح حتى تماثل للشفاء.

(. . فلما برينا وأردنا التوجه من عندها جاءنا الخبر بأن الساعدي أتى من بعدنا بيومين وقتل من عساكر الترك شيئاً كثيراً ورجع. . وأما أبي وعمي جاءنا الخبر عليهم أن جعلوا عرس برؤوسهم في بلاد طرابلس، وأرسلوهم إلى إسطنبول وقتل الترك المريض ـ وين لاغا عثمان مصطفى. . وكل من جعل لنا ناعورة وخدعنا قتله الترك).

ويمضي متحدثاً في كتابه الحافل بالوقائع التاريخية والصور الطريفة والمواد الصالحة لدراسة تلك الأوضاع. يتحدث عن زوادته في رحلته الشاقة العسيرة. . (. . وخرجت بالليل وجاب لنا شيء من البسيسة والبارود والرصاص. . وشكوة لأجل الماء. . وقال لنا:

إذا أردت أن نشترولك جمل، قلت ليس لي حاجة بالجمل فينظروني الناس لما نكون على جمل). . وقدم له هذا الرجل زاداً وشيئاً من لحم الوحش ونصف شاة من الغزال، وحباري وأرانب ووضعهم في المخلة ونعته إلى أين يمشي والاتجاه وطريق السير حتى يصل إلى واحة سيوة بالأراضي المصرية.

ويحكي لنا في كتابه الشيق هذا عن رحلته الصحراوية كيف كانت وأشجار القزاح ـ والبلبان ـ والمشان ـ والأثل ـ والبطوم ـ كانت تحت تلك الأشجار بعض من بقر الوحش راقدة والغزال بكثرة وافرة. . ووجد الفهد كثيراً وعناق الأرض الخ. .

وعندما تتبع الجرة لعين الماء إذ بالحيوان أقبل عليه من كل جانب ومكان فلما صار قريباً منه مد المكحلة وضرب بقر الوحش وهرب لما تكلم البارود وطارده ثعبان هائل واحتمى بشجرة وضربه بقربيله. . كان طول الثعبان سبعة عشر شبراً وارتفاعه وعلوه شبر وأربعة أصابع وفيه شعر وعلى كتفه شعر. . وبين عينيه حجرة مثل عين الهرة فأزال ذلك الحجر وأخذه ومشى ومشى في أرض صحراوية كانت تموج ببقر الوحش والكركدان والودان والفهد كما يصف ويعبر «شيء كثير».

كان ذلك من مشاهداته. . وقد انقرض هذه الوحوش من الصحراء في ليبيا الآن.

(. . فخترت منهم كركدان فحل قوي وله قرن قوي ولما تكلم عندنا البارود أصابه الرصاص على الكتف خرج من الكتف الآخر فجرى شيء قليل وطاح على الأرض مغشياً عليه فأتيت إليه وذبحته. وأخذت شيئاً من لحمه. . وقسمت رأسه بسيفي ونحيت قرنه. . لأن قرن الكركدان مليح للسموم إذ تحك قرن الكركدان في آنية فيها زيت وتسقى ذلك الزيت الذي تحك فيه قرن الكركدان فإنه يبرئ من السم. .).

ويتحدث عن فائدة قرن اللفعة للعمليات المضادة للسموم. . وهي تجارب يعرفها البدو في الصحراء ويقول:

(ويوجد قرن اللفعة عند الناس الأكابر من أرض فزان وتبو وغات وبرنو وغدامس. . والبعض من أكابر أهل طرابلس. . فكل من لسعته لفعة أو ثعبان أو عقرب حكوا له قرن لفعة أو قرن الكركدان بالزيت فيبرأ بإذن الله) اهـ.

وكما يصف المؤلف في طريق رحلته أنواع النبات والأشجار والحيوانات الأليفة والمتوحشة هو أيضاً يصف الطرق والمسالك والآكام.

ويهتم بوصف الأطلال والآثار. . وفي أكثر من موضع يبدي اهتمامه وتثير انتباهه تلك الأنواع من التماثيل والمباني والآثار الرومانية والأفريقية والتي يصفها بأنها من «قصور الناس الأولين».

وهي أيضاً أوصاف ودلائل تهم الدارسين والمنقبين وأهل الحفريات الأثرية والتاريخية والمهم فيما نقل وأشار هو تحديد أماكنها وإمكانية البحث عنها. . إن لم تمتد إليها يد السطو والنهب فهي آثار كانت موجودة بكثرة وافرة في العهد العثماني. . وسرب منها إلى الخارج شيء كثير وقد شاهد المؤلف كثيراً من التماثيل ووقف أمامها منبهراً ويقول في أكثر من موضوع إن عليها «كتابات بقلم الأولين».

ومكان هذه الآثار والمباني بين ـ أوجلة ـ وطرابلس[1] بين قبيلة أوجلة وغربيها. ولكن أكثر من ناحية الغرب، وبينه وبين أوجله مسيرة خمسة أيام مشي جيد.

ولقد طالت رحلته الصحراوية.. وذات مرة أقام في إحدى المناطق مدة اثنين وأربعين يوماً يعيش على اصطياد الغزال والبقر الوحشي.

ووصل إلى واحة «سيوة» بعد أن شاهد كثيراً من الغرائب والعجائب وفي واحة سيوة أقام عند الشيخ يوسف ستة عشر يوماً، وأعطى له هدية خيل وكسوة ومبلغ مائة خيرية وصرف الخيرية تسعة قروش مصرية.

ويتحدث عن وصف سيوة[2] ـ.. ثم من سيوة إلى منطقة الواحات.. وأرض البهنسة.. وأكرمه عرب الجوازي.. ويسوق في كتابه هذا قصيدة من الشعر الشعبي من نظمه يصف فيها غربته ومغامراته وحكاية فراره.. وفراق أهله ووطنه.. ويصف البهنسة «.. بلاد مليح بلاد الناس الأولين.. وقد فتن العرب فيها سابقاً فتن عظيم».. وأيضاً هو هنا يهتم بملاحظة الأطلال والآثار «.. وبها وقرب منها نواحي الغرب والقبلة آثار الناس الأولين وتصاور لهم حسنة».. وأما أهل البهنسة يقول عنهم «وهم ناس أجواد وفرسان خيل نساؤهم جمال الذات والصفات وهم يلبسون الدفية والعبان ويلوح على ظهورهم الملايا الزرقاء ومزوق بالأحمر،ة وأما نساؤهم يلبسن السورية[3] الزرقاء.. وهم أجواد بالفيوم والصعيد».

وترك البهنسة ورحل إلى العربي الذي هو من أصل ليبي ـ الجبالي أبو نعجة ـ شيخ العرب عند محمد علي باشا ـ ونزل في بيته.

ويذكر في كتابه هذا نسب الجبالي وحوادثه مع أسرة يوسف باشا

(1) صفحات 25، 26، 46، مخطوطة ري الغليل.

(2) ص 52 مخطوطة ري الغليل.

(3) السورية: القميص الجلباب باللهجة الليبية.

القرماللي.. وهجرته من ليبيا إلى أرض مصر.. ومكث عند الجبالي هذا واحداً وعشرين يوماً ثم توجه إلى الصحراء نواحي قصور الرهبان.. واصطاد هناك.. وهواية المؤلف الصيد.. ويذكر لنا في كتابه هذا طريقة صيد الغزلان.. وصيد النعام بأسلوب المحترف المتعود والخبير المتمرس.

ويذكر نهر النيل وأوقات فيضانه، ومواسم الزراعة عند الفلاحين في مصر، ويهتم أيضاً بآثار وأطلال مصر.. وهو اتجاه عجيب من هذا المؤلف الذي كان من المفروض أن يذكر حوادث بلده لكنه كلما شاهد آثاراً وأطلالاً وقف متأملاً مشدوهاً.

«.. لقينا قصراً من قصور الأولين في الصحراء التي قرب الفيوم، وفي ذلك القصر أربع صور من الناس الأولين ومكتوب على حجرة قدام كل صورة بقلم الناس الأولين وعلى أعلى ذلك القصر حجر مبني ومكتوب عليها بقلم الناس الأولين».

وهذه التي شاهدها من آثار الفراعنة.. ويقصد بقلم الناس الأولين تلك الكتابة الهيروغليفية وهو مهتم بالحيوان في الصحراء.. والصيد وطريقته ويتحدث عن بقر الوحش وصعوبة صيده ويقارن بين طريقة الصيد في صحراء ليبيا والصيد في أراضي مصر.. ويذكر أن (الودان أقل من البقروهو قصير عريض) ويقول.. (ونحن نقتلوه بالبارود على الخيل وهو موجود بالصحراء قرب بني وليد نواحي أرض طرابلس وصحرائها.. ونواحي ترهونه وأما الطرج موجود في الصحراء التي قبلة غدامس وقربها.. وهو على صورة الكبش وفيه لية الكبش فيها الشحم وهو لا يقدر على الجري ولا يسكن إلا في الأرض الخالية».. ويتحدث عن عظامه ولحمه وأنواع أخرى من حيوانات الصيد.. (.. وأما عظامه أحسن من عظام الفيل، ولحمه أحلى من جميع لحم الحيوان كله والكركدان مثل عنز السودان وهو عريض وقرونه تصلح يجعلونها مقابض للسيوف والكركدان موجود في صحراء غدامس.. وصحراء ودان وفزان.. وصحراء سيوة ويوجد الضب والفهد وعناق الأرض وجميع حيوان الصحراء

التي ذكرنا وأما من النعام وبقر الوحش الأبيض والأحمر شيء كثير، وأما النمر الموجود في الصحراء قليل إلا في بعض الأماكن وهو يقتل بقر الوحش في الصحراء».

هذه أنواع من الحيوانات كانت مزدحمة بها صحراء ليبيا أيام رحلته وكتابة مؤلفه هذا أما الآن فلا وجود لكثير منها مثل الفهد والنمر وبقر الوحش.. الخ..

ويتحدث محمد بن عبد الجليل في كتابه هذا عن نماذج من الرجال الذين تعرّف بهم ولقيهم سواء في مصر أو تونس والجزائر.. وغيرها، فهو يقول عن صاحبه الجبالي، الشخصية التي كانت مقربة من محمد علي باشا، والجبالي هذا من أصل ليبي من منطقة جبل الأخضر من نواحي بنغازي.. وخرج من برقة وتوجه إلى مصر (ولما وقعت كائنة الغزى ـ المماليك ـ في بعضهم وأتى الملك المرحوم السلطان بنابرة ـ بونابرت ـ وحكم ملك مصر فركب الجبالي أبو نعجة عند مولى مصر وكان رجلاً صنديداً وكان يدعي بالصحبة لمحمد علي فلما خرج نابليون، وبعد بأربع سنين تولى محمد علي باشا على مصر فحظي الجبالي شيخ العرب عنده وأكرمه غاية الإكرام.. وصار الجبالي رجلاً كبيراً وكسب من الدنيا شيئاً كثيراً.. والآن مات وخلف ابنه الحاج حسين».

ويشير إلى شيء من تاريخ القبائل العربية ونزوحها إلى أرض ليبيا.. ويهتم بهذا اهتماماً لا يخلو من تفريعات.. (وأما الجوازي أصلهم من بني هلال لما خرجوا من نواحي برنجد ودخلوا بر مصر وطردوا من بر مصر وأتوا إلى زنات من بر تونس والآن فرقة منهم في نواحي وادي سوف ـ والآن يسمونهم الطرود. وأما أولاد زازيا من الهلالي رجعوا نواحي بلاد الشرق وسكنوا في أرض بنغازي وبرقة وأوجلة والآن طردوا من أرض بنغازي وبرقة وسكنوا أرض ريف البهنسة بقرب ـ وادي يوسف» الخ..

ويتوجه من أرض البهنسة إلى كرداسة بقرب الجيزة.. كانت الرحلة بين

جبال من الصحراء والحر استغرقت ستة أيام حتى وصل أرض الجيزة ويتحدث عن (منف) والآثار. . ويبدو أنه قرأ كتاباً من كتب تاريخ مصر القديم. . ولا يخلو على ما يبدو من أسلوب الأساطير (وقد قرأنا في تاريخ مصر ونظرنا فيه وقال ذلك الكتاب[1]. . الخ).

ويرسم بيده صورة للأهرامات ويشير إلى موقعة الأهرام وتغلب نابليون على المماليك وكان المؤلف يبدي كثيراً من العواطف نحو فرنسا وشخصية نابليون بالذات. . (. . وفي هذا المكان غلب بونابرت المرحوم ـ الغزي وقهرهم وأخذ مصر). .

ويلتقي مع رجل من علماء الأزهر الشيخ محمد السمان ويحدثه عن دعوى بونابرت أنه أسلم. . وهي فرية وأكذوبة من أكاذيب الدعاية البونابرتية فنابليون لم يسلم ولكنها دعوة روجتها أساليب الدعاية وانخدع بها كثير من الناس من بينهم بعض الشيوخ. . وقد انطلت هذه الدعاية على كثير من السذج. . وها هو المؤلف يحكي ما سمعه من صاحبه الشيخ محمد السمان عن نابليون ودعواه (. . قال لي أتى بونابرت وأخذ الاسكندرية وأتى بجنوده ومحله في البر حتى وصل إلى أرض الجيزة بقرب الهرمين الذي صورنا وتلاقى هو والغزي. . وصار بينهم حرب شديدة. . وغلبهم وأخذ ملكهم. . فلما غلب مصر جعل صحبة مع أهل المدارس والرأي والعلماء والمرابطين وقال لهم أنا أسلمت فحيوه لذلك القول وجعل صحبة مع شريف مكة وصحبة مع سلطان العجم وصحبة مع سلطان الهند وصحبة مع سلطان إسطنبول، وقال لنا ـ أي الشيخ السمان ـ لو ما صارت الدعوى في بر فرنسا وخرج بونابرت المرحوم من مصر وحط جينرال في موضعه ولكن الجينرال الذي خلفه في موضعه ليس عنده عقل فسبب ذلك خروج الفرنسيين من مصر. .) الخ.

ويتحدث عن بونابرت بلهفة وحسرة فقد كان لا يشير إليه ويذكره إلا

---

(1) ص 67، ري الغليل.

بكلمة ـ المرحوم ـ ويراه بطلاً فوق التصور. . ولا عجب أن يقول هذا في كتابه وقد كتبه ليقرأه ويطلع عليه الفرنسيون المسؤولون أولاً. . أو لعله كتبه وسجل ذكرياته بإيعاز من بعض الدوائر الفرنسية في باريس أو خارج باريس وهو يقول ويكتب مثل هذه العبارة. . (ولو دام بونابرت مدة قليلة في مصر لكان أخذ جميع بر العرب والعجم وهو سبب حب العرب والعجم في بونابرت المرحوم أجل قال لهم ـ أنا أسلمت وكان رجلاً كريماً وصاحب عقل وذراع وسياسة وهذا ما علمنا من أمره رحمة الله عليه».

وهكذا بين لحظة وأخرى. . ومناسبة وبلا مناسبة. . يثني على نابليون ويترحم عليه، ويتحدث عن أيامه في مصر.

«وفي مصر كرينا بيتاً في وكالة الفحامين وكرينا لزواملنا قرب باب المتولي. . ثم أرسلنا زواملنا إلى السيد البدوي[1] لأجل حكمتنا[2] الحمة في مصر ومرضنا مرضاً شديداً. . قعدت في مصر عدة من الأيام حتى جاء وقت الحج وضاق خاطرنا في مصر من شدة المرض وغربتنا ومصيبتنا من فراق أبي وإخوتنا. . وكرينا بأربعمائة وأربعين 440 قرشاً جملاً وركبنا عليه وعليه قنطاران مؤونة ورحلنا من مصر إلى الحصوة».

وكانت سفرته إلى مكة أيام محمد على باشا إذ كان هو في صحبة الركب المصري. . وكان كبير الركب المصري رجلاً من طرف محمد علي باشا.

ويتحدث عن مشاهداته. . ويسوق كثيراً من المعلومات التاريخية. . وأشياء من الذكريات التي وقعت له.

ويتحدث عن معالم الحج وعرفات وعين زبيدة الخ. . وهو يلاحظ بحسه التاريخي آثاراً على أعلى جبل عرفات.

«. . وأما عرفات على أعلاه حجر من رخام طوله أربعة عشر ذراعاً. .

---

(1) يقصد مدينة طنطا.

(2) اصابته الحمى.

ومكتوب عليه بقلم الأولين فناس كثيرون الذين يعرفون بقلم الأولين وقلم رومان وغيره من الأقلام الأولين فلا قدروا يعرفوا ذلك الكتب الذي على الحجر . . الذي على أعلى جبل عرفات».

ولعل هذه الإشارة العابرة تفيد بعض أهل الآثار والتاريخ إن لم تكتسح السيول هذا الحجر الأثري الذي أشار إليه هنا.

وكانت حجة المؤلف أيام عبد الله بن الشريف بن عون شريف مكة.

وكما قارن في رحلته بين الحيوان في صحراء وريف مصر وحيوان صحراء ليبيا. . هو في أرض الحجاز يقارن بين أنواع الحشائش في صحراء طرابلس وفزان وبعض من أنواع الحشائش هناك في أرض الحجاز كانت تستعمل لدواء العين.

ويزور المدينة المنورة. . وبعد الحج يتوجه إلى ينبع البحر. . وينزل في دار رجل من أشراف ينبع اسمه السيد عبد العال.

«وسهرنا معه الليل وخرج لنا كتاباً مكتوباً فيه الغزوات متاع الصحابة والجهلية. . وفيه غزوة يقال لها غزوة السيسبان. فنقلنا منه غزوة وادي السيسبان وهي هكذا قال ابن عباس. .» الخ. .

ويسوق هذه الحكاية التي هي من مواد القصص الشعبي ومن أنواع الأساطير ذات الخصوبة الخيالية. . وليست من مواد التاريخ وحقائقه. . ولكن نقله لها وإعجابه بها يدل على إحساس وحب للتاريخ ولو كان ذلك بالمفهوم الأسطوري. . أو ذلك اللون ذي الطابع القصصي.

وركب البحر وتوجه إلى ـ القصير ـ في فرقاطة لمحمد علي باشا. . ويتجول في صعيد مصر من قنا إلى جرجا وفي جرجا يلاحظ «. . يصنعون فيها الكتان والقماش الأزرق الذي مزيق ويمشي[1] فيها إلى نواحي فزان وبنغازي

(1) أي يرسل كبضاعة.

شيء كثير من القماش» الخ. . ثم يذهب من جرجا إلى أسيوط. . ومنفلوط. . والمنيا. . ويصل القاهرة ويؤجر بيتاً بقرب الفحامين مع رجل من أهل طرابلس يقال له ـ سالم بن سليم. . وأقام بمصر أربعة عشر شهراً. . . ويتردد على الجامع الأزهر» . . وكل يوم نمشوا إلى الجامع الأزهر ونحضروا الدروس. . ويشير إلى مآثر محمد علي في مصر وتاريخه ويضع كل اللوم على الإنكليز ومكايدهم في بلاد الشرق ـ ويذكر أن محمد علي باشا كان يريد أن يوصل النيل إلى طرابلس. . ولكن الإنكليز أحدث ناعورة بينه وبين السلطان محمود.

وبمقدار ما يثني المؤلف على الفرنسيين هو يرجع كل المصائب إلى الإنكليز وخدعهم ويقول: «وسبب خراب الأرض الإنكليز لولاهم ما خرج بونابرت من مصر وما صار فتن بين محمد علي باشا والسلطان ولولاهم ما خرجت الفتن في بر طرابلس ولا صارت الفتنة ما بين يوسف باشا وأولاد ابنه محمد الدباح».

وهو ينصح قارئ كتابه ألا يصدق ولا ينخدع بالإنكليز ويقول:

«. . ولكن أوصيك يا قارئ كتابنا فلا تأمن الإنكليز لأنهم ما يشتهوا إلا الفتن في جمع البلدان وأن سبب خراب ملك المسلمين والروم إلا الإنكليز».

كان يفكر في العودة إلى النيجر وأرض البلاد الأفريقية المتاخمة لفزان. . وحكى هذا لأحد أصدقائه ولكن خطة المسير تبدلت إلى ناحية إسطنبول. . ويروي (. . وأردنا أن نرجع إلى سيوه نتوجه إلى تبو إلى أخي محمد وعثمان الساعدي وعمر. . وجاءنا خبر ما بقي من جانبنا إلا عمر ومحمد والساعدي والشيخ غيث صغير وأحمد. . فدبر علينا محمد بن الدباح بن يوسف باشا «القرماللي» وهو بمصر وقال لنا: (. . إذا كنت تمشي إلى اسكندرية وتحسب روحك أنك تاجر من أهل الغرب وتركب البحر وتتوجه إلى إسطنبول تمشي إلى السلطان. . لعله يردك إلى بلادك فركبت بحر المحمودية وتوجهت إلى الاسكندرية وركبت في البحر من اسكندرية وتوجهنا إلى إسطامبول). .

وهكذا كانت رحلته وحوادثه التاريخية التي سجلها من صحراء وفيافي طرابلس إلى واحة سيوة إلى صعيد مصر فأراضي الحجاز.. ثم العودة إلى القاهرة.. والذهاب بحراً من اسكندرية إلى إسطنبول وهناك كتب عرضحال إلى السلطان ويقول.. (وذكرت له في ذلك العرضحال أننا نتزلوا في الموضوع الفلاني الذي قدمنا ذكره فلما قرأ أرباب الدولة العثمانية ذلك العرض أرسلوا إلينا بالليل وركبونا في البحر وأرسلونا إلى بلاد يقال لها طربزان).

لقد قبض عليه ونفي إلى مكان به كثير من أهل بلده المنفيين.. وفي مقدمتهم الثائر غومة.. ويقول.. «.. فلقينا بها كثيراً محبوسين من أهل طرابلس ومشايخها فلقينا الشيخ غومة شيخ المحاميد الذي أخذ كلام الإنكليز حتى حصل.

ولولا ما أخذ كلام فدريك ابن القنصل الإنكليزي لم حصل.. ولقينا الشيخ سلطان من ترهونة ولقينا الشيخ القمودي من غريان وأولاده، ولقينا ناس كثيرة من أهل طرابلس، فنزلونا في تلك البلاد التي يقال لها طربزان فأقمنا بطربزان ثمانية أشهر».

واستطاع أن يعمل حيلة ويدبر طريقة للهرب من طربزان أو طربزين مع رجل أرنؤطي.. وأجر قبطاناً يونانياً بمبلغ ستة آلاف قرش.. وارتدى زي رجل يوناني متنكر، وشحن اليوناني البحار مركبه بالشعير وتوجه إلى مالطا.. اثني عشر يوماً في البحر حتى وصل إلى جزيرة مالطا.. وكانت رحلة مغامرة مثيرة وبقي ستة أيام في مالطا متنكراً حتى ذهب إلى جربة الجزيرة التونسية.. ثم ذهب إلى تونس العاصمة متنكراً مدعياً أنه من تجار الغرب.. وفي تونس يلاقي هناك أيضاً (ميلود الجبالي) الذي كان وكيل (غومة) وهو أيضاً كان منفياً في إسطنبول وجده هناك مع غومة في طرابزين وجعل حيلة حتى هرب هو أيضاً إلى مالطا ثم إلى جزيرة جربة ثم تسلل (ميلود) من جربة إلى جبل يفرن وقام بثورة وحركة ضد الإدارة العثمانية وقتل ميلود القائد بالجبل وهرب إلى تونس.. وهذه الأمور التي أشار إليها المؤلف في كتابه تهم دراسة تاريخ غومة وانتفاضات جبل نفوسة

وزميله ميلود. . . وكان المؤلف صاحب الذكريات والمغامرات قد تحدث إليهم وشاهدهم أثناء المنفى بتركيا. . وهو مؤرخ وشاهد عيان. . ومواطن معاصر.

وفي الكتاب لمحات تاريخية عن بعض الشخصيات التونسية والمجتمع التونسي آنذاك، ويصف الكاتب المؤلف فساد وعربدة محمود بن عياد في تونس أشياء وأمور ينفر منها الذوق والوجدان وفضلاً عن استهتار وعربدة ابن عياد يقول الكاتب (سبب خراب تونس ابن عياد. . وهو رجل سارق وكذاب وما يشتهي إلا أخذ أموال الناس ظلماً).

وهرب محمد عبد الجليل من مطالبة ابن عياد، وذهب إلى سوسة.

ومن طرائف ما يذكره من خبايا تاريخ تلك الفترة أن ابن عياد المعربد الظالم ادعى أنه من المحاميد وأرسل ابن عياد إلى الشيخ غومة ـ شيخ أولاد ابن محمود وقال له: أريد منك أن تكتب لي شجرة وتذكر في تلك الشجرة أن أصل بن عياد خارج من أكابر المحاميد، ونعطي لك عشرين ألف ريال فكتب له الشيخ غومة شجرة وذكر فيها ابن عياد خارج من فلان إلى فلان حتى وصل إلى ابن عياد محمد بن عياد وأرسل إليه تلك الشجرة. فجد على أهل تونس وعلى بيّهم وعلى جميع الناس. . وأما ابن عياد ليس هو خارجاً من أولاد محمود. . وما هو إلا جربي بن جربي».

ويلاحظ هنا. . لعل غومة كتب هذا تحت ضغط الظروف لأنه كان لاجئاً في تونس ومطارداً من السلطات العثمانية بطرابلس. . وكان ابن عياد ظالماً جباراً كما حكى المؤلف نفسه. . أو لعل ابن عياد زور اسماً من أسماء المحاميد وادعى أنه من سلالته.

فما كان من غومة إلا أن أعطى الشهادة وعلى كل حال: هي مسألة ساقها المؤلف عرضاً عندما أراد إبانة الصورة عن ابن عياد الذي كان يطمع في استغلال محمد بن عبد الجليل أيضاً كما أشار في ذكرياته التاريخية. . ويقول المؤلف بعد أن أشار إلى ابن عياد بكلام طويل.

وأبان عن استبداده في تونس أوان ذاك «. . ولو عاش محمود صاحب طابع تونس ما بقي من جنس ابن عياد أحد. . ولكن جعل له ابن عياد حيلة قتال البي، وهذا ما علمت من أمرهم. .».

وسافر محمد بن عبد الجليل إلى نواحي أرض فزان بعد أن تحدث عن أحوال تونس وأمورها المعاصرة آنذاك. . وكان سفره عن طريق ـ هنشير البي وحيدرة، وكان يريد التوجه إلى منطقة الكاف وتوجه إلى نواحي تبسة. . ثم وصل إلى قسنطينة ويقول:

«بلاد مليحة وهي أعلى جبل ودايرة بها الأجبال من كل جانب ومكان ودائر بها وادي كبير وبها من نواحي ضهره جناين وأغراس كثير التين والعنب».

وتوجه إلى الجزائر العاصمة وأقام بها سبعة أيام ـ ثم البليدة ـ وإلى مليانة ـ ومليتة ـ وذهب إلى بسكرة ـ ثم إلى مناطق سيدي عقبة ويصف العادات والتقاليد ـ وبعض الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وإن كان يظهر التعاطف في حديثه عن الفرنسيين في وقت كان فيه هناك فئات من المناضلين والأحرار المجاهدين الذين تصدوا للاحتلال الفرنسي.

لكنه كان ـ على ما يبدو ـ مهتماً بتقديم كتابه ومعلوماته إلى الدوائر الفرنسية لعله يجد فيها حماية له من العثمانيين والإنكليز.

والكتاب من ناحية المعلومات ودراسة المرحلة على جانب من الأهمية للدارسين.

ويذهب متوغلاً في أرض الجزائر إلى بلاد سيدي راشد. ثم إلى إبرام ـ ومناطق المقارين ـ ويتحدث عن الزوايا والمساجد ـ والمدارس والقبائل ـ وأصحاب الطرق. . وأنواع من الناس. . وأنماط من المجتمع.

وفتح محمد بن عبد الجليل في مناطق ـ وادي ريغ ـ دكاناً للتجارة. . ومن الطريف أن يذكر ويسجل في كتابه أنواع السلع وأثمانها والحالة الاقتصادية وكان هناك صاحب له. . على صلة به. . ومن الذين يسيرون في ركاب فرنسا

هو الحاج عبد الحميد الجزائري ـ ويبدو أن هذا كان حلقة الصلة بينه وبين بعض رجال الإدارة الاستعمارية الفرنسية آنذاك. . وكتب له جواباً وأرسله إلى الكولنير بودفيل الفرنسي وذهب به إلى الكولنير ـ وأرسله صاحبه الحاج عبد الحميد الجزائري إلى منطقة ـ نقرت ـ ليستخبر حقيقة أمرها سنة 1268هـ 1852م.

وكان على صلة بالمسيو سروك ـ متولي بلاد بسكرة. . ثم عاد إلى بسكرة. . إلى الحاج عبد الحميد الجزائري وأطلعه على المعلومات التي شاهدها وتحصل عليها. . ووجهة نظره. . وتوجه مع صاحبه إلى مسيو سروك والكوماندتور كلينوا حاكم بسكرة. .

ورحل صاحبه الحاج عبد الحميد الجزائري من بسكرة وقال للمؤلف «تمشوا معنا حتى توصلوا لباريز». . وعندما يصل محمد بن عبد الجليل إلى باريس ينظم قصيدة شعبية يصف فيها فرنسا وأهل باريس. . وسلطانها كان ذلك عام 1268هـ 1852م. . وهناك في باريس كتب مؤلفه هذا. . «ري الغليل في أخبار ابن عبد الجليل» وقال عنه «وقد جعلنا كتابنا بالنمر والأول والثامن إلى أن جعلت فيه مائتين وواحد وأنه طلبه منا الحاج عبد الحميد لأجل يعطيه لأولادنا لينظروا في سفرنا وما جرى علينا والسلام على القارئ والمستمع» اهـ.

وفي آخر الكتاب إمضاؤه وتوقيعه وختمه وتاريخ النسخ 31 ذي الحجة 1268هـ 14 أكتوبر 1852م.

والنسخة الوحيدة في العالم بخط المؤلف محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس.



الإخوة المؤرخون الثلاثة

محمود ناجي ـ محمد نوري ـ إسماعيل كمالي

ثلاثة من المؤرخين إخوة أشقاء.

أنجبتهم طرابلس من أسرة مثقفة.. كتبوا في مجال التاريخ وشغفوا بكل ما يتعلق بالوطن الليبي من نواحيه الفكرية والاجتماعية والتاريخية.

نموذج فريد لأفراد أسرة مثقفة لها مكانتها الاجتماعية وجاءت مؤلفاتهم بلغات شرقية وغربية.

عرفوا السياحة والاتصال بكثير من منافذ الحضارة المعاصرة.. وعرف المجتمع الليبي نشاط هؤلاء في ميدان الإصلاح الاجتماعي.. أو الميدان العسكري أو النشاط السياسي هم في الواقع نموذج طيب للشباب المثقف الواعي.. في تلك الحقبة قبيل الغزو الإيطالي وبعده.

محمود ناجي

محمد نوري

إسماعيل كمالي

وكان من عادة العهد التركي وتقاليد عصره أن يضاف إلى اسم الشخص اسم آخر على أسلوب الصياغة التركية.. يكون لقباً له وتميزاً له.. به يعرف ويشتهر حتى يكاد أن ينسى اسم الأب أو لقب الأسرة ـ تضاف مثلاً أسماء.. مثل.

لطفي ـ نظمي ـ قدري ـ حفني ـ مدحت ـ راغب ـ نيازي ـ صفوت ـ فيضي ـ نديم ـ راسم ـ رسمت ـ عفت . . إلخ . وعرف الناس في ليبيا ولا سيما في المدن والسواحل أسماء على هذا النمط أضيفت إلى الاسم الأول تميزاً فإذا كان اسم الشخص محمد فلا مانع أن يكون محمد نظمي . . أو محمد فيضي . . أو أحمد لطفي . . مثلاً .

وإن كان ليس في جذور الأسرة ولا تربة العائلة ولا فرعها نظمي ولا فيضي ولا لطفي . وقد اختار الأب أو اختارت المدرسة للإخوة الثلاثة هذا النمط من الألقاب .

محمود ـ أضيف إليه ناجي .

محمد ـ أضيف إليه ـ نوري .

إسماعيل ـ أضيف إليه ـ كمالي .

كما قد عرف أيضاً محمود أكبر إخوته بـ محمود ناجي الأرناؤطي ـ مما يدل على أن الأسرة وإن كانت ليبية الموطن والنشأة والمناخ ومن البيوتات العريقة في طرابلس والخمس ـ على ساحل طرابلس إلا أن أصلها يرجع إلى ـ الأرناؤط ـ شأن كثير من العائلات في المجتمع الليبي في مدينة مصراتة والخمس ـ وطرابلس والمدن الساحلية . . لعل قدومها ـ من عهد مراد وسنّان والبطل الشهيد درغوت ـ عطز الله أنفاسهم برحماته ورضوانه ـ.

محمود ناجي:

كان ميلاد محمود ناجي عام 1290هـ 1873م بمدينة الخمس التي كانت تعتبر في التقسيمات الإدارية للولاية ـ لواء ـ آنذاك .

وتخرج من المدرسة الرشدية بتلك المدينة الجميلة الواقعة على شاطئ البحر ـ والتي كانت في أواخر العهد العثماني بها فئة من المثقفين الأتراك سواء من المعلمين في المدارس أو الموظفين في السلك الإداري .

أو من الضباط في الجيش.

أو من النماذج التي طوحت بها أعاصير السياسة واستبداد السلطان من إسطنبول. مبعدون على قسط من الثقافة والتحرر الفكري في ذلك المحيط.. وهذه النماذج كانت تشكل نشاطاً اجتماعياً وتوجد جواً ثقافياً له أثره.. وإن كان محدود التفاعل غير ممدود الظل.

ولكن كانت هناك صحف تقرأ.. وكتب تتداول.. ولقاءات واجتماعات لها طابع سياسي وناقش. سواء في مدينة طرابلس العاصمة أو المدن الأخرى. مثل مصراتة والخمس وزليطن وجبل نفوسة وبنغازي ودرنة. أو في المنافي البعيدة مثل واحات مرزق وسوكنة وودان.

وفي شبابه الأول شغل ـ محمود ناجي الأرناؤطي وظائف إدارية بطرابلس وتركيا.. حيث كانت طرابلس الغرب إحدى الولايات في الامبراطورية العُثمانية. وعمل في وظيفة بدرجة = قائم مقام، وكثرت أسفاره ورحلاته في أرجاء واسعة من الأقطار والبلدان العثمانية. وعمل في الوظائف الكتابية بولاية طرابلس في مركز ـ مكتوبجي ـ وشأن الشباب المثقف آنذاك خاض محمود ناجي غمار السياسة والكتابة الصحفية، وقد فتحت له الكتابة الصحفية آفاقاً على المجتمع وأحواله وتعرف على مشاكل بلده وأوضاعها، وله في هذا المضمار مقالات شيقة ذات نفس طويل واتجاه تقدمي بناء.. عالج فن المقالة على صفحات الجرائد بطرابلس أمثال جريدة الترقي وانتقد الأوضاع الإدراية وكشف عن كثير من عيوب السياسة التركية وخاصة فيما يتعلق بمناهج التعليم وقضايا التعريب وسبل الإصلاح التربوي.

والذي يتاح له أن يطلع على ذلك البرنامج المدرسي الذي تقدم به الكاتب محمود إلى الشعب عندما كان مرشحاً للنيابة عام 1908م ليكون عضواً وممثلاً لطرابلس الغرب في مجلس المبعوثان بإسطنبول يهوله ما تضمنه برنامجه من نقاط هامة وبنود دلت على وعي مركز.. ورغبة صادقة ورؤى تدل على صدق الهدف وبعد النظر وموضوعية في التخطيط.

كان نائباً مثقفاً له برنامج . . له خطة وأهداف إصلاحية . . ومحمود ناجي وقد كان في مطلع القرن العشرين والمستوى الثقافي في بلاده بل في المنطقة العربية كلها على ما كان عليه لم يكتف بمجرد طبع منشور وتوزيع صورته وتلصيقها في الحوائط وفوقها أو تحتها العبارة المستهلكة ـ انتخبوا مثل ما يصنع الكثير من أهل الضحالة والتفاهة من هواة الانتخابات والترشيحات، بل كان له مخطط سياسي وتربوي ويضع برنامجه في أكثر من خمس عشرة نقطة تناولت قضايا التعليم ومشاكل الدراسة والمدارس ومشكلة المياه للفلاحين وعديداً، من مطالب الجماهير في تلك الآونة، وقد يخجل نواب معاصرون لنا إذ يرون كيف تقدم محمود ناجي الأرناؤطي إلى شعب ليبيا ببرنامجه الذي نشره على صفحات الجرائد سنة 1908م وتظهر قيمة ذلك المواطن لا في إطلاق الوعود ونثر العهود، وما أكثر الوعود وما أرخص العهود وأسهلها، بل تظهر قيمته ويتضح وزنه في المعيار والتقسيم عندما يصبح محمود ناجي عضواً في مجلس المبعوثان وينال ثقة الشعب في الانتخاب فلا تغريه ليالي إسطنبول ولا تغشيه أضواء ضفاف البوسفور، بل يراه معاصروه وتشهد له وثائق تلك الفترة بعمله الدائب ومساعيه الجادة من أجل تحقيق أهدافه وتنفيذ مخططه والدفاع بكل صراحة وجرأة من أعلى منبر بتلك الامبراطورية يدافع في حرارة وصدق عن حقوق بلاده ومطالب الجماهير التي وثقت به، ويعمل على إخراج برنامجه في شكل قوانين وإصلاحات، ويشهد بذلك ما يراه المطلع على مضابط مجلس المبعوثان في تلك الأيام والتي هي حقبة فيها من طرف الكتاب والمثقفين ومضات ونبضات والتي يراها كثير من الناس غامضة أو مطوية مجهولة ـ ولا شك أن وجوده في عضوية مجلس المبعوثان قد ساعده على اتساع معارفه وتنمية صلاته وتنوع نشاطه السياسي وتعرف على كثير من رجالات السياسة والفكر والزعماء . . والكتاب . . وخاصة الشباب العربي الطموح الذي كان يعمل في مجالات السياسة والفكر ومجالات الإصلاح في عاصمة بلاد المسلمين ومركز الخلافة . . إسطنبول .

وانتهت دورة النائب ـ محمود ناجي ـ نائب الخمس في شهر ديسمبر 1911م أي بعد غزو الأسطول الإيطالي للوطن الليبي بشهرين وأعيد انتخابه في شهر فبراير 1912م عن لواء طرابلس ـ على حد تعبير ذلك العهد. .

ويحل مجلس المبعوثان في شهر يوليه 1912م.

وانتهت صفحة من نشاطه السياسي في ذلك المعترك، ولكنه يواصل نشاطه في مجال الكتابة الصحفية وفي ميدان الكتابة التاريخية، وفي هذه الصفحات يهمنا جوانب نشاطه في كتابة التاريخ. . وتلك الدراسة الهامة التي قدمها للمكتبة التاريخية بالاشتراك مع أخيه ـ محمد نوري ـ.

محمد نوري:

والأخ الثاني هو ـ محمد نوري ـ.

وكان عسكرياً برتبة يوزباشي ـ طابور بيادة.

وفي عام 1911م كان في معسكر بنغازي.

وشهدت له شطوط ليبيا ونكناتها بمواقفه ودفاعه، ورغم أنه كان ضابطاً عسكرياً شغله الميدان والدفاع بالسلاح عن كيان البلاد وحرية الأمة وصد الغزو الاستعماري، إلا أنه شاب مثقف ودارس يهتم ـ مع أخيه ـ محمود ناجي بتأليف كتاب يتناول تاريخ وطنه العزيز ـ طرابلس الغرب ـ بل يشير ـ محمود ناجي ـ في مقدمته للكتاب إلى القسط الأكثر في تأليف الكتاب كان من نصيب أخيه ـ محمد نوري ـ لقد كان البحث عن المعلومات الشخصية عن محمد نوري غير متيسر لنا كما هو متيسر عندما بحثنا عن أخويه ـ لأن محمود ناجي نشر المقالات وله نشاطه الاجتماعي والصحفي وكذلك أخوه إسماعيل كمالي، أما محمد نوري ـ فكان عسكرياً غير ملحوظ النشاط في الصحافة والمجتمع ولكن جهده في التأليف والمعلومات التاريخية واضح في الكتاب الذي ألفه مع أخيه ويدخل في عداد المؤرخين الليبيين.

إسماعيل كمالي:

والأخ الثالث: هو إسماعيل كمالي.

الموظف الوجيه، الذي كان يحرك لسانه بأكثر من لغة، والذي عرفته البلاد ابناً باراً.. غيوراً على تراثها.. وآثارها مغرماً بتاريخها.. عف الضمير عف اليد.. طيب القلب والوجدان..

في ظروف حوالك وعهد استبدادي كثرت فيه ألسنة الوشاة وتكاثرت فيه مسالك الانتهازيين أيام القمصان السود.. وعنجهية الفاشست.. من مواليد مدينة الخمس.. عام 1882م.

كان أصغر أخويه ـ محمد ونوري ودرسا بالمدارس الإيطالية بالخمس وهاجر بعد الغزو الإيطالي.

ثم عاد إلى طرابلس عام 1920م.

وعمل سكرتيراً في مفاوضات الصلح ـ بسواني بنيادم ـ وفي تلك الفترة الحرجة، وعواصف الأزمات المتوالية عاون المجاهدين وكان ناصحاً لهم في كثير من المواقف.

لم يكن عليهم عيناً.. إنما كان لهم يداً.

إنه مثقف واع.. ومصلح صادق الوجدان.

ولإسماعيل كمالي في النواحي الإصلاحية والمحافظة على أوقاف المسلمين أياد مأثورة مسجلة.. ومشاريع نافعة أيام تلك الظروف الحوالك في عهد الكابوس الفاشستي الأسود.. استطاع بحنكته وخبرته وبعد نظره أن يحافظ على أوقاف وأملاك الشعب من الضياع والاندثار. كما عمل إسماعيل كمالي في الميدان التعليمي والتربوي.. عندما سعى لتكوين المدرسة الإسلامية العليا ووضع لها البرامج النافعة.. ورصد لها الأموال اللازمة. واختار لها المدرسين بينما كان الاستعمار الفاشستي وضع للمؤسسة هدفاً آخر. ولكن الرجل الغيور والمسلم الصادق عمل بروح إسلامية وبدافع وطني. ونظم مكتبة الأوقاف التي

كانت نواتها قديماً مكتبة مصطفى الخوجة.. وبقية مكتبة المؤرخ أحمد النائب وآثار قيمة أخرى.

وفي مجال الدراسات التاريخية والاهتمام بفن التاريخ كتب الأستاذ إسماعيل كمالي عدة بحوث ودراسات تاريخية باللغة الإيطالية تناولت عهد الأسبان في طرابلس وبحوثاً أخرى عن انهيار أسرة القره مانلي.

كتب فصولاً تاريخية دلت على التركيز والموضوعية وسعة الاطلاع ومدى اهتمامه العميق في كتابته وطريقة تناوله للدراسات التاريخية في روح المنهج العلمي.

نشر فصولاً ومقالات في المجلات العلمية للدراسات المستشرقين أو في شكل رسائل صغيرة. وكتب في الجانب التاريخي كتاباً بالإيطالية عن تاريخ قبائل ليبيا العربية.

ألف رسالة في شكل مقالة علمية عن نهاية عصر القره مالي اعتمد فيها على يوميات المؤرخ الفقيه حسن ـ وهو ـ أي صاحب اليوميات شاهد عيان معاصر لتلك الفترة. وطبعت رسالة إسماعيل كمالي بالإيطالية..؟

وترجمها أخيراً إلى العربية الأستاذ محمد بازامة ونشرت في بيروت وكما نشر بالإيطالية أكثر إنتاجه التاريخي فهو أيضاً باللغة العربية يضع مقالات وفصلات تاريخية فيها دسامة الموضوع.. ودقة الأسلوب.

بحث عن قراقوش وملوك بني غانية في طرابلس وبحوث أخرى عام 1935م نشرت بمجلة ليبيا المصورة التي كان يرأس تحريرها عمر فخري المحيشي.

وعني أيضاً بتلخيص كتاب ـ وفيات الأعيان لابن خلكان وإن كان هذا التلخيص لا يظهر فيه بطبيعة الحال المجهود العلمي.. ولا البراعة الأدبية ـ فهو لا يخرج عن كونه مجرد تلخيص ونقل واختصار أو ابتسار ولا يزال مخطوطاً.. وقد أشرنا إليه في كتابنا ـ لمحات أدبية عن ليبيا.

ولكنه من ناحية أخرى يدل على الاتجاه العلمي. وميله وعنايته بهذا اللون من ردهات التاريخ وأشكال التراجم.

وأعان إسماعيل كمالي المستشرق الإيطالي أوتوري روسو وغيره من المستشرقين الطليان.. وله معهم صولات.. وجولات.. في ميدان التحقيق التاريخي.. وفنون الأدب التاريخي.

وهكذا يشهد مجال الكتابة والتحقيق لإسماعيل كمالي عنايته بتاريخ ليبيا سواء من ناحية القبائل وأسمائها وأماكنها وفروعها. أو من ناحية العصور والعهود التي مرت بالبلاد والأدوار من آماد بعيدة. يعمل على حفظ الآثار والمعمار ذي الطابع الإسلامي في طرابلس، ولولا وجود هذا الرجل المثقف المخلص في أحلك الظروف الاستعمارية الغابرة.. لولاه.. لقضت يد المعاول الفاشية وامتدت يد أذنابهم من بؤساء الضمير إلى كثير من مظاهر الحضارة والمعمار والفن الإسلامي.

لقد حافظ على أوقاف المسلمين مضموناً وإطاراً.. شكلاً وفناً.. بناءاً وريعاً.. مساجد ومدارس وعمارات جديدة كونها من رصيد أوقاف المسلمين لخير وصالح المصلحة العامة متى ـ وكيف؟.. في أيام الاستبداد الفاشي.

توفي إسماعيل كمالي عام 1936م وكان يشغل في أواخر أيامه مدير المدرسة الإسلامية العليا.

كان مغرماً شأن العلماء الباحثين بالوثائق والمصادر النادرة والمخطوطات القيمة. جمع منها مكتبة ذات قيمة علمية وتراث هام..

ومن الأسف المرير أن زوجته التركية جمعت مخطوطاته وأوراقه.. ومسودات من أبحاثه.. وكثيراً من نفائس دراساته العلمية التاريخية ووضعتها في جوالق وزكائب وحولتها إلى أقرب كوشة ـ فرن ـ من منزلها ورجت مستعطفة أن يتكرم الفرّان بحملها إلى الموقد مدعية تنظيف البيت من أكداس هذه الأوراق على زعمها ـ وجهلها، والتهمت النيران كثيراً من آثار ومسودات

مؤلفاته ومقالاته ومراسلاته. . بل كثيراً من وثائق ومخطوطات نادرة كان العالم المؤرخ يتلهف على اقتنائها. . وإنتاجها. . والاهتمام بها والاستفادة منها.

والوجيه المثقف إسماعيل كمالي. . الذي كان مغرماً بالتاريخ كتابة ودراسة. . وجمعاً واقتناء لمصادره، واعتناء بمراجعه مع دقة التمحيص والتحقيق. . لم يبق لدينا من إنتاجه إلا ما نشره باللغة الإيطالية. . أو ما نشره من فصول عربية قصيرة تشهد له بالبراعة. وأسلوب العالم المطلع. . في ذهنية مرتبة. . رحم الله إسماعيل كمالي وجزى الله زوجته بما صنعت يدها الجاهلة. . أو غفر لها.



تاريخ طرابلس غرب

لمحمود ناجي ـ ومحمد نوري

كتب الأخوان محمود ناجي ـ ومحمد نوري تاريخاً لطرابلس غرب باللغة التركية.

وقد اعتمد فيه المؤلفان على عدد وافر من المصادر والوثائق والخرائط. ولم يغفلا جانب الإحصائيات ـ وجداول الأرقام والموازنات.. الأشياء التي لم يكن يهتم بها كُتّاب التاريخ المعاصر في بلدهم.. وبجانب هذا لم يغفلا الانطباعات الخاصة والتعليقات على كثير من الجوانب السياسية والاقتصادية للبلاد وبما أن المؤلفين ناجي ونوري كانا يعيشان في عصر الغزو الأجنبي لبلادهما وكانت أراضي الوطن مهددة أثناء كتابة هذه الدراسة التي عكفا عليها وخططا لها.. فقد تناول المؤلفان الوضع السياسي والإداري للوطن الليبي.

وانتقدا إهمال المشاريع الإصلاحية من جانب السلطة التركية وبحكم الثقافة والدراسة والمعاصرة كان المؤلفان بطبيعة الحال من أنصار العهد العثماني والحكم التركي.

وبحكم الإيمان بالجامعة الإسلامية.. وروابط الدم والدين والمناخ الاجتماعي ولكن هذا التعلق بالخلافة العثمانية والارتباط بإسطنبول ـ بحكم العوامل والتي أشرنا إليها لم يكن كل هذا حائلاً دون النقد الصريح في ثنايا

الكتاب فهما يوجهان في صراحة وصدق نقداً مريراً. . وعتاباً شديداً موجهاً إلى فساد ذلك العهد والإهمال الإداري من طرف الولاة ويرى المؤلفان أن مسؤولية التأخر والإهمال للبلاد الليبية تقع على عاتق الفساد الإداري في العهد التركي المتأخر.

ومن سطور الكتاب يلمح القارئ مدى الاهتمام بالرأي الصريح والنقد للإدارة المهملة ـ والولاة الباشوات المتقاعسين في تلك الأوضاع والظروف التي كانت بتهرئها تشكل جواً وقابلية. . أو تمهيداً للغزو الأجنبي. .

فقد كان محمود ناجي ـ بجانب عمله الوظيفي في الإدارة أو نشاطه السياسي في مجلس المبعوثان أيضاً له باع في فن المقالة والدراسة ومنابر الخطابة ومخاطبة الجماهير بعكس أخيه وزميله في تأليف الكتاب محمد نوري، الذي كان أكثر اهتماماً بالميدان العسكري وقضايا الحدود والأراضي بحكم وجوده في صفوف الجيش العثماني ويظهر من هنا. . . مدى التعاون بين الأخوين والتنسيق في فصول الكتاب إذ شمل موضوعات اهتم بها ـ نوري ـ وموضوعات اهتم بها ناجي.

ـ وعنوان الكتاب «طرابلس غرب».

وقد حليا صدر الكتاب في صفحة الغلاف المكتوب بالتركية والأحرف العربية ـ التي كانت مستعملة قبل حركة ـ أتاتورك ـ ببيت من الشعر العربي ـ وإثباتهما لهذا البيت واختيارهما له استشهاداً وعنواناً ينم هذا الشعار والاختيار عن مدى عمق الشوق. . واعتلاج محبة الوطن في صدر الأخوين المؤلفين. وهذا البيت من الشعر العربي هو السطر الوحيد المكتوب باللغة العربية في الكتاب كله إذا استثنينا البسملة.

بلاد بها نيطت على تمائمي   وأول شيء مس جلدي ترابها

وكان أوان تأليف ومراجعة أصول هذه الدراسة التاريخية عندما كان ـ محمد نوري ـ بكباشي مشاة بالفرقة العسكرية بطرابلس ـ وعندما كان محمود ناجي نائباً في إسطنبول عن مدينة الخمس.

وطبع الكتاب بمطبعة ـ ترجمان حقيقة ـ عام 1330هـ 1914م.

وشمل الكتاب أحوال البلاد الجغرافية والزراعية والصناعية واهتم اهتماماً بالغاً بالتقسيمات الإدراية في ذلك العهد واعتنى بموضوع الحدود بين الوطن الليبي والأراضي التي كانت تحتلها فرنسا من الأوطان المغربية.

وكان حتماً أن يوجه المؤلفان الاهتمام بموضوع المفاوضات والتقاسيم الفنية في مشكلة الحدود التي كانت من الموضوعات المثارة في ساحة التصارع السياسي وكان الأخوان المؤلفان على صلة طيبة بالوالي ـ رجب باشا.

ويقدمان الكتاب إليه بهذا الإهداء.

«ذكرى عزيزة للمرحوم رجب باشا. . صورة من الوفاء والتقدير والعرفان والجميل».

وقد شهدت ليالي إسطنبول وشهد بيت متواضع في حي (بشكطاس) في صيف عام 1912م في شهر مارس ذلك الرجل القادم من طرابلس الغرب المنكب على أوراقه. . المستنطق لأحداث التاريخ، الجامع للوثائق والخرائط والرسوم. . والإحصائيات يصحح البروفات. . التجارب ـ ويعلق على السطور. . هو مؤرخ جاد. . منهجي. . موضوعي. . بعيد عن الإسفاف والهرجلة. . وأساليب الهرطقة. .

يكتب باللغة التركية في عاصمة الأتراك، وينتقد تصرفات الحكام الذين أرسلتهم هذه العاصمة إلى بلده طرابلس الغرب ـ فعاثوا في الأرض فساداً وإهمالاً. . وحفروا بتصرفاتهم هوة الانحدار.

هذا هو محمود ناجي ـ كاتب موضوعي ـ المجهول في تاريخ الحركة الفكرية المغمور لدى الدارسين لتاريخ الحركة الفكرية في ليبيا. إنه من جيل الكتاب المجهولين. ذلك الصنف الذي كتب بمداد الإخلاص ونبل الهدف. . في أحلك الظروف وأقسى المراحل. . على ضوء الشموع. . أو الفتائل المتراقصة يدار لولبها باليد أو فتائل الشموع متراقصة من هزات الأحداث ورياح الظروف المضطربة.

وذلك الطراز من الكتاب والمناضلين في حاجة إلى تسليط الضوء. . وإبانة الملامح. . ومعرفة خطواتهم في الشوط الطويل، ومن بين هؤلاء يبرز لنا ـ محمود ناجي ـ ورعيله من الكتاب والدارسين وأهل الوطنية الصادقة.

وإذا ألقينا نظرة على الكتاب نظرة المتصفح. . واستقرينا فصوله، نجد الكاتب المؤرخ يتكلم في موضوعية عن أمور هامة في جدية واطلاع. . ونظرة شاملة لجوانب موضوعه. . الجغرافيا ـ الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة الحيوانات ـ المساحة ـ السواحل ـ والآثار ـ الجبال ـ والمراسي ـ والجمارك ـ الخ. .

ويتناول المؤرخ طرابلس وتقسيماتها الإدارية آنذاك ـ في العهد العثماني الأخير ـ أو الألوية التي كانت ـ لواء طرابلس ـ لواء الخمس ـ لواء الجبل ـ لواء فزان.

كتب المؤلف عن الوقائع ـ وأمور شاهدها ـ معاصرة له ـ وتناول قضايا ومشاكل على الصعيد الإداري والسياسي والميدان الاقتصادي.

ثم عرج بعد هذه الجولة الدسمة المليئة. . بعد هذا التقسيم العام إلى جنبات التاريخ ـ القديم ـ والوسيط ـ والمعاصر ـ كتب عن السكان القدامى الليبيين البربر الأمازيغ، والعرب، الترك واللغات التي شهدتها مسارب البلاد والمذاهب ـ والتيارات. . وكتب عن الجاليات والأجانب ـ ويعقد المؤلف فصلاً عن ـ الفينيقيين ـ قرطاجنة ـ طرابلس في عهد الرومان ـ ليبيا القديمة ـ أويا ـ ليبتس مانيا ـ عمالة فزان ـ القرون الوسطى ـ الفتح الإسلامي ـ والحضارة الإسلامية ـ ويتناول عصور الأمويين ـ والعباسيين والأغالبة ـ بني خزرون ـ موجة بني هلال وسليم ـ اعتداءات وموجات شواطئ البحر الأبيض وقراصنة البحار الذين تكالبوا على بلاد المسلمين وشواطئهم. . بعد سقوط الأندلس ـ وعهود الصقليين ـ ودولة الموحدين ـ قراقوش ـ حتى يصل إلى عهد الأسبان في طرابلس ـ ويأتي تدرجه التاريخي إلى العهد العثماني الأخير وبطبيعة الحال ـ بحكم ثقافته والاندماج الاجتماعي كان ميالاً إلى الدفاع عن الترك. . وكان

صاحب روح وطنية وبدافع الإحساس نراه ينتقد في موضوعية فيقول تحت عنوان (ملاحظة هامة للذين يدعون بأن طرابلس عديمة القيمة).

(اعتقد بعض السائحين والجغرافيين أفكاراً خاطئة.. بخصوص هذه البلاد عند العثمانيين إقليماً علته الرمال ذا رمال نارية وأهالي متوحشة.. وأراض جرداء وكما تبين من هذه التفصيلات فإن طرابلس غرب بريئة من هذه الأفكار الباطلة. فنحن نرى أنه من هذه الناحية الوطنية لا بد لنا أن نورد هذه الملاحظات القيمة لجغرافية طرابلس... إلخ).

ويوضح أن المنطقة الساحلية يعادل مناخها مناخ أوروبا الجنوبية تماماً وأصدق دليل على ذلك هو وجود الأشجار والنباتات الموجودة مما لذ وطاب..

ولا يقصر الكاتب موضوعه على حوادث التاريخ الجافة أو سرد الوقائع.. وتسجيل ورصد الاضطرابات أو الشؤون الجغرافية.. والتقسيمات الإدارية بل هو يهتم بالاقتصاد والحياة السياسية ويعقد فصلاً عن الزراعة والفواكه ومنتوجات البلاد وثروتها فعندما يتحدث عن الثروة الزراعية وأنواع الفاكهة يقول:

(البطيخ الذي بلغ وزن الوحدة 20 و30 كيلو.. وتكعيبات الكروم إذا اعتني بها تعطي عناقيد يبلغ وزن العنقود الواحد منها من خمسة إلى ستة كيلو جرام وتشبه الخمور المحلية في لونها وطعمها ونسبة الكحول فيها خمور مارسيليا (ويشير إلى الزيتون وأنواع الفواكه والثمار الأخرى).. (وأشجار الزيتون تنتج زيتوناً كثيراً.. وأشجار النخيل.. وتنتشر أشجار التين والبرتقال والليمون واليوسفي ـ والخروب والتفاح والرمان والكمثري والخوخ ـ والموز ـ والمشمش ـ وهي كثيرة جداً لدرجة أنها تستطيع أن تكون صادرات هامة ويسبق نضجها موسم النضج في أوروبا... إلخ). وهي ملاحظة ومقارنة اقتصادية هامة. توضع بين يدي الدارسين والمهتمين بشؤون الزراعة والاقتصاد في ليبيا. فقد أشار المؤلف إلى أن اقتصاد البلاد من الناحية الزراعية لا لمجرد الاستهلاك

المحلي.. بل يمكن لهذه الثروة الزراعية أن تكون مورداً اقتصادياً ومصدراً في مالية البلاد.

ويشير الكاتب المتفحص إلى رقابة شركة الاحتكارات وخنقها لمنتوج البلاد من التبغ.

(.. ولولا رقابة شركة الاحتكارات لزراعة التبغ لزاد) وعلى هذا المنوال تتوالى ملاحظاته الهامة على شؤون الزراعة واهتمامه بهذه الثروة فهو يقارن بين مواسم الإنتاج في ليبيا وأوروبا.. وكيفية أساليب الزراعة.. ويتكلم على الحمضيات في طرابلس.. فزراعتها تتكون في البلاد بمجهود من المزارعين أقل مما يتطلبه المزارع في أوروبا ويزرع البرتقال والليمون بمجهود أقل مما يزرع في جنوب أوروبا مما يدل على خصب هذه الأرض ويقدم الكاتب محمود ناجي وأخوه دراسة للناحية الاقتصادية من مختلف أشكالها مما يدل على فهم وإدراك لجوانب الموضوع، كما يعقدان فصلاً عن شؤون الزراعة والفواكه ويسوقان الأدلة على خصوبة الأرض..

ويفندان فرية.. ويدفعان تهمة.. ويصوبان خطأ تلك الفرية والتهمة التي روجهما الغرب عن البلاد وذلك الزعم الخاطئ الذي كون الصورة المشوهة بأن هذا الوطن.. ليبيا.. مجرد أرض صحراوية وحشة.. وبور.. جافة.. أرض شاسعة.. وشمس محرقة.. وقوم أجلاف.. فرية أو خدعة كاذبة من ورائها ألف مقصد وهدف. ويزعمون أن أرضها جافة لا همة لأهلها.. ولا فائدة منها ولعل هذا الزعم ومنشأ تلك الفرية كان له في دماغ بعض سلاطين وخلفاء العثمانيين صدى وتجاوباً.. فأهملوا شؤون البلاد.. وجعلوها مجرد منفى للمغضوب عليهم ومكاناً سحيقا للأبعاد والتطويح أو مجرد سوق للمزايدة في منصب الولاية.

فالكاتب المؤرخ لا يكتفي بالاستناد إلى جدران التاريخ بل هو مواطن واع.. وكاتب متحرر الأسلوب والنظرة ينتهز الفرصة في كل مناسبة للإدلاء

بالشواهد وتقديم الإحصائيات.. مبرهناً بذلك على قيمة وطنه.. وخصوبة تربته.. وذكاء أهله.. وقابليتهم لمفاهيم الحضارة ومساهمتهم في الإنتاج.

ويتكلم عن الثروة الحيوانية.

(أما الذين يصفون البلاد بأنها أرض رملية نارية فإن الاخضرار الزمردي الذين يواجههم أول ما يدخلون ميناء طرابلس يغير من أفكارهم ويبدلها).

وفي صدق.. ونظرة جادة يضع أصابعنا على جوانب من الحقيقة وأن المسؤولية والتقصير من الناس لا من الأرض من المسؤولين ـ لا من الوطن.. من الإهمال البشري.. لا من طبيعة الطبيعة المعطاءة الجوادة.. وهو مؤرخ.. يقدم كتاباً تاريخياً. لكنه أيضاً له بهذه النظرات الموضوعية صفة الدارس الاقتصادي والكاتب الاجتماعي.. والدارس السياسي..

وكتابة التاريخ إذا كانت لمثل تلك الأحوال والمناطق والفترات تتطلب في المفهوم العلمي أيضاً الدراسة الاقتصادية والاجتماعية لا مجرد سرد الوقائع.. وحشو السطور بالحوادث والأرقام المتضاربة التي قد تشكل تناقضاً أحياناً عند الذين يكتفون بسوق الأحداث وسرد الوقائع بلا معيار علمي.. أو نظرة اجتماعية.. أو يفتقدون أسلوب المقارنة والمنهج الموضوعي وميزان النقد..

لقد كانت تلك السطور والمقدمة ـ رغم أنه أرادها ـ فرشة ـ وتمهيداً للكتاب التاريخي إلا أنها جعلت الكتاب دراسة شاملة مستوفاة لجوانب قيمة.. ذات نظرة علمية ومضمون موضوعي.. وهو يقول:

(.. وبقاء تلك الصحارى خالية إنما مرده إلى إهمال أبناء البشر وعدم اهتمامهم..).

وهو يغمز بهذا ويقصد الحكام والولاة والإداريين الذين كانوا في موقع المسؤولية.. الذين سببوا بإهمالهم في تأخر البلاد ـ ويمضي متحدثاً في كتابه عن الزراعة والثروة المعدنية:

(ويعتبر محصول البلاد من الشعير مصدراً لمصانع ـ البيرة ـ في لندن

وتأتي إلى الميناء في العام الواحد عدة سفن تحمل هذا المحصول الثمين إلى أوروبا. ويوجد في أراضي بنغازي الفوسفات والرخام).

والكاتب يعطي للأرقام والإحصائيات أهمية.. فعندما يتحدث عن الأراضي الصالحة للزراعة.. والمهملة مثلاً يذكر أرقاماً ويقدم أدلة.. ولا يكتفي بمجرد الكلام العام ـ أو الأسلوب العائم لا يعتمد على التعميمات.

(فإن المساحة للزراعة هناك: 388,620 ـ كيلومتر مربع ولا يزرع منها سوى 58,293 والجزء المتبقي 330,327 كيلومتر مربع رغم صلاحيته للزراعة فهو مهمل متروك على علته، ولا يهتم به أحد من الأهالي).

وتتضمن دراسته فصلاً هاماً عن الثروة المائية.. والمياه الجوفية والآبار الإرتوازية ويعطي اهتماماً لموضوع المواصلات بين ليبيا والقارة الأفريقية فيعقد فصلاً عن ربط أفريقية عن طريق طرابلس وكأنه ينظر بعين فاحصة إلى مستقبل القارة الأفريقية.

خط حديد طرابلس الصحراء

(لا شك أن البحث عن أقصر طريق من البحر الأبيض إلى وسط أفريقية يجب أن يكون داخل طرابلس ولقد عرفت هذه الحقيقة من عهد الفينيقيين حتى قال الكاتب ـ رولفسن ـ إن الدولة التي تهيمن على طرابلس تسيطر على السودان، وهو قول معقول، حتى حاولت إنكلترا قبل عشرين عاماً أن تصل الأودية بعضها ببعض على ظن أنها متسلسلة، وذلك ابتداء من خليج سدرة ـ وأن تصلها بالبحر الأبيض وذلك تصل إلى السودان عن طريق البحر الأبيض، فالخط الحديدي الواصل بين طرابلس والسودان يقصر عن أي خط آخر من شمال أفريقية بحوالي 600 ـ 700 كيلومتر).

وينقد المؤلف المؤرخ الإدارة التركية في عصره نقداً لاذعاً صادقاً.. مرآ ويسرد الحقائق مدعمة بالأرقام ويوضح مناهج الإصلاح العملي ويقول: ويبدو ـ بل من المؤكد ـ أن المبادرة ودوافع إخراج الكتاب ودفعه للطباعة هو اعتداء

إيطاليا المستعمرة على الوطن الليبي. . ويشير المؤلفان في المقدمة إلى هذا:

(إنني أسارع إلى إزجاء مؤلفنا المتواضع هذا الذي يعالج الأوضاع الجغرافية والاقتصادية. . والتاريخية لولاية طرابلس الغرب كخدمة صغيرة، إلى مواطنينا الأعزاء الذين يولون اهتمامهم بالأوضاع في طرابلس غرب، بعد اعتداء إيطاليا التي لم تراع الحقيقة).

ويحكي لنا ناجي. . قصة الكتاب في اختماره وفكرته التي عاشت معهما فترة من الزمن:

لقد وفقت مع أخي الأكبر ـ نوري ـ منذ خمسة عشر عاماً إلى تأليف هذا الكتاب ـ واستقينا مادته من المؤلفات العديدة المكتوبة بمختلف اللغات عن بلادنا، لقد قدمنا آنذاك نسخة منه إلى والي وقائد طرابلس ـ رجب باشا ـ ولكن لم نوفق لأسباب معينة أن نطبعه حتى الآن ـ وعندما ظهرت حادثة طرابلس ـ كانت مسودة هذا الكتاب في طرابلس ولم أستطع أن أستحضرها إلا في هذه الأيام (1914) وأخي يحارب في ميدان القتال.

(لقد مضى الولاة والمتصرفون الذين يهتمون أكثر ما يهتمون بجمع الأموال. . وتعيين الموظفين لدرجة أنهم لم يعيروا الاحتياجات الحقيقية للبلاد.

ويورد المؤلف مثلاً: وذلك أن أحد طلاب العلوم سأل معلم التاريخ يوماً هذا السؤال:

(كيف استطاعت دولة متحضرة أن تملك ذلك الملك؟

أجاب المعلم بأربعة عناصر:

الدم ـ أي الأسرة ـ الماء ـ الحديد ـ الحجر ـ بالمحافظة على العروق تناسلت بالماء روت فأخصبت ـ بالحديد صنعت المحراث والسلاح ـ بالأحجار صنعت المباني) الخ. .

ويعلق المؤلف على هذا قائلاً (لكن مع الأسف الشديد لم يجد هذا الموجز القيم صدوراً وآذاناً حتى الآن. . !!) اهـ.

الذي نريد الإشارة إليه هنا هو أن اختيار الكاتب المؤرخ لهذه الأجوبة وتمعنه فيها يدل حقيقة على مدى اهتمامه بعوامل الإصلاح ووسائل القوة والذاتية ـ ومناهج تربية الشعب ـ هو كاتب مؤرخ يعد من أنماط الدارسين للحياة الاجتماعية والمهتمين بدراسة عوامل التمدن والحضارة يعرف مواطن الضعف في تاريخ الشعوب ويدرك مواطن النهوض والقوة. . ثم يسلط هذه المقاييس على تاريخ بلاده ووقائع شعبه. . فكان مؤرخاً وكاتباً اجتماعياً له وزنه لم يكتب في تاريخ بلاده كاتب في عصره مثل ما كتب هو بهذه الروح العلمية. وإن حجب الكتاب طويلاً عن قراء العربية. . وحتى عن قراء التركية في العصر الحالي. إذ أنه مكتوب بالأحرف العربية باللغة التركية.

وقد رأيت أن أقدمه لصديقي العالم النابغ الدكتور أكمل الدين إحسان وهو العالم التركي الفذ وطلبت منه ترجمته فقام مشكوراً بجهده العلمي في ترجمته ونقله إلى اللغة العربية. . ونشر مترجماً إلى العربية كما قام بترجمته أيضاً في طباعة أخرى الأستاذان محمد الأسطى وعبد السلام أدهم وهكذا عاد الكتاب إلى المكتبة التاريخية العربية.

سلم العامة والمبتدئين

عبد الله الباروني

هذا شيخ من شيوخ الجيل درس في جبل نفوسة بطرابلس ـ والجامع الأزهر . . وكان من علماء جيله.

وهو والد سليمان الباروني وكان للشيخ عبد اللّه الباروني نشاط في المحيط الثقافي بمصر وشمال أفريقيا. وله مراسلات واتصالات.

وكان ينظم الشعر ذا الطابع التقليدي والأسلوب المتوارث وله ديوان من النظم مطبوع ـ وتوفي عبد اللّه الباروني عام 1912م.

ويهمنا منه هنا ذلك الجانب الذي يتصل بكتابة التاريخ ودراسته ومنهجه في تناوله لموضوعه.

فقد ألف رسالة جعل عنوانها (سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين) والعنوان في جزئه الأول لا يعطي لأول وهلة فكرة عن صلته بالتاريخ والسير والمناقب.

بل لأول وهلة يتبادر من قراءة كلمة (سلم العامة والمبتدئين). . أنه شيء قد يتصل بموضوعات فقهية وقواعد للعبادات وما له صلة بالتشريع والعقائد للطلاب والمبتدئين. .

ولكن إذا تأملت بقية العنوان للكتاب. . الجزء الثاني من هذا العنوان (إلى

معرفة أئمة الدين) ربما يخطر ببالك أنه موضوع له صلة بالتاريخ والسير وفعلاً هو قد خصه لدراسة جانب من سير وتاريخ لأئمة أهل المذهب الأباضي. . والذي كان الشيخ عبد الله الباروني مهتماً بدراسة تاريخه. . وما يتصل بتاريخه من بعيد أو قريب.

فهو كتاب صغير. . أو رسالة موجزة تتصل بالسير والتاريخ وكان الشيخ عبد الله الباروني قد عكف على كتابة رسالته هذه بطلب من صديق له. . ومواطن من مواطنيه هو الحاج سليمان زيد اليفرني.

كما جاء في صدر الرسالة تعريفاً به. . كان أحد وجهاء بلده ـ تقربوست ـ من جبل نفوسة وكان طلب هذا الصديق المواطن عام 1290هـ 1873م حيث لبى الشيخ عبد الله الباروني طلبه وكتب رسالته في هذا العام نفسه. . لقد وجد في نفسه صدى لهذه الرغبة وقابلية. . فلبى مسرعاً. . بالإجابة. .

وكان ذلك الرعيل من الشيوخ الأفاضل والسراة الأماثل الذين عاشوا في مصر. . أو في جزيرة جربة بتونس. . أو في جبل نفوسة بطرابلس. . أو بني ميزاب بالجزائر لهم اهتمام بطبع وتداول وحفظ كتب التاريخ والسير والفقه وما يتصل بهذه الثقافة من أنماط الدراسات والبحوث إنهم رعيل من العلماء الأفاضل.

وقد طبعت رسالة الشيخ عبد الله الباروني في مطبعة النجاح بمصر لصاحبها حسين الترزي وكانت إدارة المطبعة بدرب سعادة بجوار المحافظة بالقاهرة وقدمها للطباعة عام 1324هـ 1906م. وكان قد ألفها كما أشرنا عام 1873م. أي بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من تأليفها. . حيث أتاحت فرصة وجود ولده سليمان الباروني بالقاهرة فأشرف على طباعة رسالة أبيه. . ولم يكتف سليمان الباروني بالإشراف والتصحيح بل أضاف إليها هوامش وتحقيقات في بعض المواضع أو على حد تعبيره. .

(محلات ببعض كلمات كالحاشية لا تخلو من فائدة حررها ابن المؤلف حفظه الله). .

والرسالة أو الكتاب في خمس وخمسين صفحة ونشرها.

ويشير عبد اللّه الباروني إلى أن عمدة المذهب الفقهي بعد الرسول الصادق الأمين وبعد أصحابه الأئمة الراشدين هو الإمام جابر بن زيد.

والفصل الأول جعله كمقدمة وتمهيد. وكان جابر بن زيد من التابعين أخذ العلم عن ابن عباس وهو من القرن الأول الهجري. ثم يعقد فصلاً عن سبب ظهور المذهب الأباضي وانتشاره في أرض المغرب، وأن خمسة أنفار من المؤمنين تفرقت ديارهم.. ولكن عملوا على حمل المذهب:

أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري ـ من اليمن.

عبد الرحمن بن رستم ـ من فارس.

إسماعيل بن درار ـ من غدامس.

أبو داود القبلي ـ نفزاوة من أرض المغرب.

عاصم السدراتي ـ قرب وارجلان.

هؤلاء الخمسة قصدوا العراق، ودرسوا على أبي عبيدة بالبصرة ثم عادوا لنشر العلم، وتعاليم المذهب بطرابلس وأرض المغرب ويذكر عبد اللّه الباروني جانباً من تاريخ تلك الفترة ويقدم فصلاً عن أبي حاتم الملزوزي الذي كان بطرابلس وقابس والقيروان حيث قاتل جنود العباسيين شرقي طرابلس ويتحدث عن عبد الرحمن بن رستم وتمركزه في عام 160هـ. ثم يتحدث عن ولده عبد الوهاب وهو الذي ينسبون إليه المذهب فيقال ـ وهبي.. ووهبية وإن كان يرى الأقرب أن تكون هذه النسبة إلى أبعد من هذا ـ عبد اللّه بن وهب.

وأما أباضي.. فيؤكد أنها نسبة إلى الإمام عبد اللّه بن أباض التميمي.. عربي النسب وكان من أكابر المجتهدين معاصراً للإمام جابر رضي الله عن الجميع.

وكانت ولاية عبد الوهاب في عشرة السنين من المئة الثانية.

يعلق الابن هنا على ما أورده والده المؤلف فيكتب في الهامش قائلاً (. . والصحيح ما حررناه في الأزهار بعد ذكر أقوال المؤرخين واختلافهم . . وكذا بينا مدة كل إمام بوجه الدقة واستوعبنا الكلام هناك فليراجع).

ويذكر عبد الله الباروني في كتابه رغم صغر حجمه النزاع مع بني الأغلب ويذكر محاصرة عبد الوهاب لطرابلس وحصار باب هوارة . . وزناتة . . ويذكر الشيخ مهدي النفوسي وقتاله المرير ويذكر ما ساقه أيضاً الشماخي في السير وإن كانت تلك الحكايات والمرويات المشحونة في حاجة إلى غربلة وتصفية . . ولكن هي على ما يبدو مبعثها التقدير والإعجاب إلى حد تصديق ما فوق التصور من الخرافات والأساطير.

وهي أمور وقضايا شحنت بها التواريخ والمناقب والسير في مختلف العصور والأزمان، وعلى شتى الاتجاهات الفكرية والميول المذهبية . . رحم الله الجميع . . وغفر الله لهم . . وجزاهم بنواياهم الطيبة.

والمهم في طريقة تناولها ودراستها الروح العلمية بعيداً عن توارث الرواسب والمؤثرات.

* * *

ويسرد جوانب من المصارعات والمصاولات ألواناً مما ازدحمت به أحداث ذلك العصر . . والمهم هو الجانب العلمي الذي أشار إليه (. . إن نفوساً بلغت في التقى والعدل حداً غريباً لم يبلغه غيرهم في أرض المغرب حتى كاد يكون حاكيه كاذباً أو مبالغاً» ص 17.

«وامتلأ هذا الجبل في أيامهم كالرمانة حتى عدد في عصر واحد اثني عشر شيخاً مستجاب الدعاء» ص 17.. ويكتب المؤلف ناقلاً ومعتمداً على كتاب السير للشماخي (إن أهل نفوسة كانوا في كثرة زائدة وجموع طافحة يعدون خيلهم بتسعة وتسعين ألف فارس) ص 18.

ويذكر الصراع مع إبراهيم بن الأغلب في آخر القرن الثالث الهجري ولم

تخل من مبالغة في التصوير دافع هذا التصور وسوق ما يندرج تحت الكرامات وخوارق العادات.. ودراسات هذه المراحل في مجال الفكر هي أعباء تحتاج إلى غربلة وتصفية وأسلوب يبتعد عن المبالغات.

لكن لم تخل كتب السير والتاريخ من أمثال هذا من كل فريق من الفرق وكل طائفة من الطوائف سواء كانت من المتصوفة أو من غير المتصوفة سواء كانت في هذا القرن أو قبله أو بعده بآماد، ومع ذلك إن مثل هذه المبالغات والحدة في الحب أو الحدة في البغض لا تكون لمن أراد الإنصاف ونهج الموضوعية. لن تكون أو لا يصح أن تكون. دافعاً للعزوف عن دراسة هذه الظواهر في كتب السير والتاريخ والمناقب.. بل بدافع الروح العلمية والبحث عن المنهج العلمي لا بد من دراستها ونقدها وفحصها بدافع العلم وإبانة الحقيقة ودراسة هذه المجتمعات والتيارات الفكرية التي أخصبت أو التي أذرت وأجدبت. إنها في مثل هذه الكتب بعثرت أو طرحت مواد ونصوصاً يتناقلها خلف عن سلف شحنت بها كتب التاريخ والسير والمناقب على مختلف ألوانها..

وينقل عن الشماخي حكاية الرجل الذي جاء من معسكر بني الأغلب ليأخذ أخاً له مات في معركة فدخل بين القتلى ورفع أخاه على دابة فنظر حيواناً على صورة كلب الصيد المعروف بالسلوقي يدور بين القتلى ويقول.. كبروا يا أهل الجنة فكبروا.. ومن معهم ثم قال.. انبحوا يا كلاب النار فنبح قتلى بني الأغلب وكانت المفاجأة المذهلة أن ينبح أخوه بين يديه على الدابة.. فرمى به إلى الأرض وذهب..

وساق صاحب كتاب ـ سلم العامة والمبتدئين هذه الحكاية أو الخرافة المتداولة من الشماخي مع أن الأستاذ الشماخي كان عالماً.. وفي كتابه أشياء تاريخية علمية جديرة بالنقل والاقتباس والإشارة ولديه حقائق أكثر أهمية من هذه الحكايات الخرافية التي تحتاج إلى دراسة أخرى وطريقة علمية لتناول أبعادها لا أن تقدم في كتاب.. المفروض فيه كما يدل عليه عنوانه أنه ـ للعامة

والمبتدئين ـ فكيف يقدم لأنماط من العامة والمبتدئين مثل هذه الحكايات؟

ولكن هذا النمط والأسلوب يعطي صورة. عن مستوى التصور في تلك الأعصر الخوالي.. خليط من تصورات فيها خصوبة علمية من ناحية وتصور مبالغ.. فيه زحفت حيز الكرامات والغيبيات بشكل هو في حاجة إلى دراسات نفسية وتحليلات ومعرفة الأسباب والعوامل والدوافع.

لقد شحنت بها كتب كل الذين تناولوا الطبقات والمناقب صوفية أو غير صوفية. وخاصة الشعراني والأسمر والبرموني.. وغير هؤلاء.. قبل الشماخي وبعده.. فأمثال هؤلاء الكتاب من المؤرخين كانوا محاصرين بألوان من المرويات.. والنقولات.. والكتب التي تشكل حصاراً عليهم فهم يدورون في هذا المحيط بدافع التكوين والمكونات.. والآثار والمؤثرات.

* * *

ومن النقاط ذات الأهمية التي أشار إليها عبد الله الباروني فصل أورده ـ سبب دخول الإسلام للسودان الغربي «غانة وما حولها» وهو بحث تاريخي جدير بالعناية والاهتمام ص 21.

«ذكر المؤرخون أن دخول الإسلام مدينة غانة وما يليها من بلاد السودان على يد الرحالة العالم التاجر الشيخ علي بن يخلف النفوسي التميجاري وذلك أنه سافر إلى دواخل غانة تاجراً سنة 575هـ . . .ف فأقام بها وصار له مكاناً وقبولاً عند سلطانها وكان السلطان عظيماً في ملكه تحته اثنا عشر معدناً يستخرج منها التبر.. وذلك بمدينة مالي».

واتبع السلطان دين الإسلام هو ورعيته بفضل الشيخ الليبي القادم من جبل نفوسة وشرح له الشيخ التاجر قواعد الإسلام وتعاليم الشريعة الغراء.. وأسمعه القرآن وعاد إلى جبل نفوسة بعد أن بلغ رسالة نشر الإسلام في ربوع أفريقيا بالسودان الغربي.. هذا شيء ذو أهمية.. الإشارة إليه في مثل هذا الكتاب وغيره من الكتب التاريخية أولى وأكثر فائدة للقراء.. سواء كانوا مبتدئين أو غير

مبتدئين. . هو أولى. . من أمور أخرى تباعد بها تيار الزمان. . وليس لها كفة رجحان من منطق أو قاعدة تشريعية. .

وإسهام أهل ليبيا من التجار والعلماء في نشر الفكر والثقافة الإسلامية أمور تحتاج إلى مزيد من التفصيل والدراسة وتسليط الأضواء. .

إن دور هؤلاء التجار الأفاضل كقدوة حسنة ونشرهم للإسلام في ربوع أفريقيا وآسيا هي صفحات مضيئات لجوانب الحضارة الإسلامية. . ومن صور هذا انتشار الإسلام في ربوع أندونيسيا على يد التجار المسلمين وكذلك دور الصوفية والطرق قبل أن تكتنفها سيل الخرافات أو عوامل الارتزاق والدجل والاستغلال كان للتجار والصوفية والعلماء دور وسهم حضاري فكري ولعل ما قام به هذا الشيخ التاجر في غانة يعطي ضوءاً يكشف كثيراً من الجوانب المهملة والصفحات المطوية من تاريخ الصلات بين مركز ليبيا ومراكز أفريقيا السوداء فهذا علي بن يخلف. . رجل وحده. . بجهد فردي يكسب للإسلام حاكماً من حكام غانة وشعباً من شعوب أفريقيا.

ويمضي في فصلات مختصرات ذاكراً أئمة المذهب من المشارقة وأبا يحيى. والإمامة بعمان. . ويثبت سلسلة إسناد المذهب وتلقيه ومروياته على طريقة القدامى. . والسلفين من الأشياخ والرواة طريقة معتادة في إثبات الأسانيد وسردها. . ومنهج من مناهج تلقي العلم والفقه وهي مسلسلات وأسانيد قد لا تصلح للقراءة السريعة والمطالعة المعتادة. . وقد لا يسعها صدر كتاب أو رسالة صغيرة ـ بل هي قد تفيد الدارس الباحث عن جوانب من الحياة العلمية والتاريخية، وتفيد ـ بلا شك ـ تراجم الأعلام ودراسة الشخصيات العلمية بشكل من الأشكال.

وهي مواد ولقطات من الأحداث التاريخية. . ومن جانب آخر قد يكون فيها ما يفيد في دراسة حياة المجتمع. . لا سيما في تلك الحقب المتباعدات التي ندرت وثائقها وتداخلت مراجعها. . وتناثرت بشكل يحتاج إلى مزيد من الصبر والأناة. .

ولا شك أن الأسانيد والمسلسلات هي من أنواع وثائق التاريخ العلمي لها أهمية لدى المختصين بأنواع من أنماط الدراسات رغم ما فيها من معنعات.. ومسريلات.

ثم يعقد فصلاً صغيراً عن المذاهب التشريعية الإسلامية وتاريخ نشأتها مشيراً إلى الأسبقية الزمنية والعهد الذي بدأ فيه جابر بن زيد تكوين منهجه التشريعي. ثم توالى المذاهب التشريعية الإسلامية.. وطبيعي أن يذكر بالتقدير المنهج الذي ارتآه.. وإن كان هذا الموضوع في عالم المقارنات التاريخية أو التشريعية يحتاج إلى نوع من الموضوعية والتجرد.. والإنصاف لهذا أو ذاك في نطاق بعيد عن نطاق التعاطف وروح الإثارة، ومهما يكن من أمر.. فقد كان لكل هذه المذاهب التشريعية الأثر الفكري والحضاري الذي لا يمكن إنكاره من هؤلاء أو هؤلاء.. رضي الله عن الجميع.

* * *

ويتبين في كتابه هذا من الفصل الذي عقده عن المقامات في الحرم بالأراضي المقدسة أنه جواب.. أو رد على من يقول إنه ليس لأتباعهم مذهب استندوا إليه ولا أصل تعتمدون عليه فهو دفاع وإبانة وإن كانت لم تخل من أسلوب الحدة شأن المستوى الجدلي في تلك الحقب.

وينهي رسالته باعتباره أنها سلم العامة والمبتدئين بوصية أو نصيحة بها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ويقول: (.. قد أتينا لك بجملة من أخبار بعض أئمتنا ومشايخنا على سبيل الاختصار بعبارة سهلة وألفاظ متعارفة) اهـ.

وجاء في الهامش أو التعليق من ابن المؤلف ما يفيد من أن والده المؤلف حرر رسالته هذه منذ كان في مدينة فساطو.. وكان قد انتقل إليها من كباو مسقط رأسه وكان انتقاله بأمر من الحكومة العثمانية أيام أن كان سليمان أبو الأحباس النفوسي حاكماً بجادو.

وتعليق ابن المؤلف على رسالة والده تناول جوانب تاريخية وقضايا ذات

إثارة لمشاكل شغلت بال كثير من الناس في مختلف العصور. وقد ترجم لبعض النماذج.

ولعل من أهم ما صنعه في هوامشه هو التعريف بمناطق البلدان مما يفيد الدارسين لتاريخ البلدان وضبط أسمائها ومواقعها.. مما يتصل بعلم الجغرافيا وما يعرف بالمسالك.. عرف بعدد من القرى والبلدان وأكثرها غير معروف ولا مشهور وبعضها لا يعرف الناس منه إلا مجرد الإطلاق وأشار إلى قرى دارسة ومدن مأهولة وأخرى غدت مهجورة.

وأشار إلى ـ لالت ـ التي تعرف بنالوت ـ وفساطو ـ وجادو ـ وأدرف ـ وفرسطا ـ ويغطور ـ ويغو ـ ودرفل ـ القلعة ـ شماخ ـ يفرن ـ الخ.

وهو أحق الناس بتحقيق أسمائها وأماكنها والحديث عنها.. وكان الانتهاء من تحرير هذه الهوامش والتعليقات يوم 8 شهر ذي الحجة 1324هـ 1906م.

وقد كانت رسالة سلم العامة والمبتدئين إلى معرفة أئمة الدين سبباً ودافعاً لولده أن يكتب فيما بعد كتاباً تاريخياً في هذا النسق.. وبهذا المنهج وبصورة أوسع هو كتابه ـ الأزهار الرياضية ـ وكأنه تتمة لما قدم.. أو هو تفصيل لما أجمل والده في رسالته.



الأزهار الرياضية

سليمان الباروني

الشخصيات الخصبة كثيرة العطاء متعددة الجوانب تعيش في حياتها متعبة ـ وأيضاً تتعب في دراستها الكتاب والباحثين. فوفرة العطاء وخصوبة الإنتاج وتعدد الجوانب بلا شك يجعل الدارس الباحث في حيرة التعب أو تعب الحيرة..

وهذه الشخصية النضالية العلمية عاشت غير مرتاحة وأيضاً هي تتعب الذين يكتبون عنها. وكما يقول بعض الأدباء:

شخصيتان تتعبان الكاتب..

شخص لا تجد ما تقوله عنه، وشخص تحار ماذا تقول عنه لكثرة الموضوعات وتعدد الجوانب. ومن هذا الأخير.. سليمان الباروني.

فله في مجال السياسة والثقافة والصحافة نشاط جدير بالدراسة والاهتمام.

وسبق أن تحدثت عن جوانب من سليمان الباروني.. يوم أن كان لظروف وأوضاع بعض الكتاب لا يتحدثون عنه.. كتبت عن جوانب نضاله الصحفي في كتابنا.. (صحافة ليبيا).. كما أشرنا إلى شعره وديوانه في فصله من كتابنا (لمحات أدبية عن ليبيا).. وألقينا عنه محاضرة في نادي مصراتة بطرابلس منذ سنوات بعيدة..

ولكن مع هذا لم نوف الرجل كل حقه. . أو حتى بعض حقه على هذا الشعب الذي ناضل من أجله علمياً. . وسياسياً. . وفكرياً وعندنا دراسة في كتاب خاص عنه تناولنا فيه حياته كترجمة ودراسة بذلنا فيها الجهد قدر استطاعتنا.

وهنا. . في كتاب خصصناه لدراسة المؤرخين الليبيين ومن كتب في التاريخ من الليبيين لا بد لنا من وقفة ولو يسيرة أو عاجلة عند سليمان الباروني ومنهجه وعطائه في كتابة التاريخ الذي أحبه وشغف به.

فقد كان اهتمامه بالتاريخ والسير شغفاً صحبه من مطلع شبابه الأول في جبل نفوسة إلى مراحل دراساته وكتاباته ومهجره وغربته إلى أن ودع شاطئ الحياة. ونقصر القول هنا على كتابه (الأزهار الرياضية) ومنهجه فيه. . أما الموضوعات والجوانب الأخرى فمجالاتها مكان آخر كما أشرنا.

عنوان الكتاب (الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الأباضية).

والجزء الثاني هو المطبوع المتداول. . وجعلته الصدف في حيز التناول. . أما الجزء الأول والثالث فقد جرفها تيار الضياع.

قالوا إن الجزء الأول أحرق بعد طبعه والتهمته ألسنة النيران. . ولم تبق على شيء منه حتى الأصول والمسودات وقالوا إن الجزء الثالث ضاع مخطوطاً ولم يشاهد الطباعة وبالتالي ضاع في غياهب النسيان.

وظل هذا الجزء الثاني متداولاً مشهوراً وتم طبعه بمطبعة الأزهار البارونية بمصر عندما كان المؤلف جم النشاط، دائب الحركة الصحفية والعلمية. . هناك، وهي من أخصب مراحل عمره من ناحية الطباعة والنشر والعطاء العلمي.

ويدل على اهتمامه بالتراث والتاريخ ما قدمه للطباعة سواء من تأليف غيره ـ أو من تأليفه. . هو وعدد صفحات الكتاب 307ـ ثلاثمائة وسبع، وأربع صفحات للفهرست.

والجزء الثاني هذا. . يختص بالكلام على مدينة (تيهرت) بالجزائر والتي

كانت معقلا من معاقل المذهب الأباضي، هذه المدينة التي شهدت ازدهار دولة «بني رستم» في المغرب الإسلامي. .

وتحدث المؤلف عن أئمة بني رستم بإفاضة وإعجاب، وبهامش الكتاب تعليقات لا تخلو من فوائد علمية تؤيد وجهة نظره في تناول هذه الموضوعات التاريخية وتدل من ناحية على سعة الاطلاع التاريخي وعلى مدى الاتجاه الفكري للكاتب المؤلف.

ويشير المؤلف ـ كناشر وطابع ـ إلى حقوق طبعه وترجمته والملاحظ فيه. . هنا تعبير جديد على مثل تلك المطبوعات في تلك الفترة. . هو كلمة ـ «ترجمة» فكأنه يشعر بأنه موضوع وكتاب ستهتم به كثير من الجهات وأصحاب الدراسات وفعلاً قد كان موضوع اهتمام كمصدر ومرجع تاريخي واجتماعي، اهتم به نوع من العلماء المؤرخين في شتى الاتجاهات، وخاصة أهل الاستشراق والاستعراب. . والمهتمون بتاريخ الحضارة الإسلامية. . وتياراتها.

ومن فصول الكتاب:

انتقال إمامة المذهب من طرابلس إلى مدينة تيهرت وسبب ذلك.

تأسيس مدينة تيهرت.

بعض المدن المنسوبة إلى تيهرت أيام ازدهارها مثل وهران. . وشنف ومليانة. . الخ.

العلماء المنسوبون إلى تيهرت.

عبد الرحمٰن بن رستم.

عبد الوهاب بن رستم والمصاولات التي كانت في تلك الحقب.

واقعة نفوسة مع المعتزلة.

زواج ابن رستم من قبيلة لواتة.

محاصرة طرابلس.

رجوع ابن رستم لتيهرت.

ولاية السمح على البلاد. . سؤالات وأجوبة وثائقية تاريخية.

ولاية تيهرت بعد دولة بني رستم.

ما قيل من الشعر في تيهرت. . ازدهاراً. . وأطلالاً.

زيارة مؤلف أو جامع الكتاب إلى أطلال تيهرت.

* * *

وهذا بلا شك فيه جهد علمي وتتبع تاريخي وإن كانت بمقياس. . وعين الرضا.

وقد بذل المؤلف وقتاً غير يسير في تصيد وتتبع المصادر والمراجع. . وأكثرها. . وغالبها. . نادر مخطوط. . مطوح في مكتبات خاصة في أماكن بعيدة. وبعضها مطبوع في أوروبا.

وعند جمعه للوثائق والمصادر آثر أن يعتمد على لون منها على كتب التاريخ والمصادر غير التي كتبها أبناء ذلك البلد أو علماء ذلك الاتجاه الفكري والمذهبي.

فهو أراد في خطته للكتاب أن يأخذ الدليل التاريخي والشهادة على القيمة والمقام. . من فم آخرين أو من أقلام تاريخية أخرى لأن ذلك أوقع في نظره. . وأبعد عن إلصاق الاتهام به، بأنه متحيز أو متعصب أو يكتب بفرط الإعجاب.

وباستثناء كتاب السير أو كتابين آخرين، كانت مصادره ومراجعه كلها من مؤلفات وكتب بلاد المشرق ومن علماء من غير مذهبه التشريعي بعيدة عن الاتجاه والوجهة. . وهي مصادر كما أشرنا. . منها المخطوط النادر ومنها المطبوع في ليدن التي اشتهرت بحسن الاختيار وجودة الطباعة والتحقيق في الإخراج.

ولعل النظر في عناوين الكتب والمصادر التي رجع إليها والتي أثبتها في ثنايا الكتاب وأشار إلى مواضع الرجوع إليها لعل النظر إلى هذه القائمة يعطى فكرة عن جدية البحث وعمق الاهتمام والحس العلمي، عند هذا الباحث العالم

الذي شغلته ظروف السياسة وظروف الجهاد عن الحياة العلمية التي كان يود أن يتفرغ لها بحكم ميوله واستعداده الفطري. . واستعداده المكتسب.

يقول سليمان الباروني عبارة ترشد إلى منهجه في هذا الكتاب من حيث اختيار المصادر.

(. . في أقوال المؤرخين من المالكية والحنفية حتى لا يخطر بالبال أن ما قلته أو نقوله مجرد مبالغة منا أو من تمويه لا سند له).

* * *

كان من المراجع التي استقى منها واعتمد عليها:

السير للشماخي.

كتاب العبر لابن خلدون.

سيرة أبي زكريا يحيى.

الطبقات للدرجيني ـ تأليف أحمد بن سعيد الدرجيني.

الجواهر لأبي القاسم البرادي.

تاريخ اليعقوبي المطبوع في ليدن.

نزهة المشتاق للإدريسي.

تاريخ ابن مسكويه.

تاريخ مقديش الصفاقسي.

تقويم السلطان المؤيد.

ابن حوقل المسالك المطبوع بليدن 1877م.

الاستبصار المؤلف سنة 587هـ والمطبوع بليدن 1852م.

ابن إسحاق الكرخي.

صورة الأقاليم للبلخي المطبوع سنة 1870م ليدن.

تاريخ أبو بكر القزويني المطبوع بأوروبا.

معجم البلدان لياقوت الحموي.
تاريخ أبو عبد الله البنا المعروف بالبشاري طبع ليدن 1876م.
مسالك الأمصار ـ عبد الله العمري.
تاريخ ابن الصغير المالكي.
البيان المغرب لابن عذاري.
دائرة المعارف الإسلامية.
تاريخ ابن الرقيق.
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأحمد الناصري.
المكتبة الصقلية المطبوع بمطبعة ليبسك الإفرنجية.
تاريخ الضبي المطبوع بأوروبا.
فتوح البلدان للبلاذري.
معجم ابن الآبار.
الصلة لابن بشكوال.

* * *

وقد ساق المؤلف في كتابه أقوال المؤرخين في وصف مدينة تيهرت مع بيان اسم الكتاب أو مؤلفه ورقم الصحيفة التي نقل منها، غالباً ليكون أكثر اهتماماً. . وتسهيلاً على من أراد المزيد أو التحقيق. وقام المؤلف أيضاً بزيارة الجزائر عام 1316هـ 1898ف وتجول في تلك البقاع والربوع قبل تأليفه للكتاب، واهتم بصفة خاصة بالاطلاع على أطلال تيهرت، وما كان قد وصفه قديماً الشعراء، وما كتبه المؤرخون الناثرون. وقد وصف الباروني سياحته هذه شعراً ونثراً في عديد من ذكرياته وكتاباته التاريخية وغير التاريخية، وكان تأليفه لكتابه ـ الأزهار الرياضية ـ عام 1325هـ 1907م. أي بعد تسع سنوات من جولته في تلك البقاع التي كتب عن تاريخها.

* * *

وسليمان الباروني له حس تاريخي.

واهتم بدراسة الحضارة في جبل نفوسة وتاريخ المذهب التشريعي الذي ينتمي إليه. . ولا غرابة أن يهتم بهذا، فهو أحد شيوخ هذا المذهب ومن مثقفيه الذين مارسوا تجربة عميقة في المجال السياسي والاجتماعي.

ووالده أيضاً الشيخ عبد اللّٰه الباروني، وأسرته كلها، والمحيط الفكري الذي عاش فيه، وزيارته لقلعة من قلاع هذا المذهب التشريعي بالجزائر كل هذا حوافز. . وعوامل. . ومؤثرات. فضلاً عن أن والده الشيخ كان له اهتمام بتاريخ هذا الجانب الفكري ـ فهو قد ألف كما سبق أن أشرنا ـ كتابه ـ سلم العامة والمبتدئين ـ يتعلق بجانب من جوانب هذا التاريخ. وقد أشرف هذا الابن على نشر كتاب والده عندما قام بطبعه في القاهرة وعلّق عليه.

كل هذه دوافع ومشجعات وعوامل ومؤثرات دفعت سليمان الباروني إلى أن ينهج هذا المنهج في كتابة التاريخ والسير. هو مؤرخ يعتز بهذا الجانب والاهتمام مثاره الاعتزاز، أو الاعتزاز دافع إلى الاهتمام.

ونظلم ـ الباروني المؤرخ إذا لم نشر ـ ولو إشارة عابرة ـ إليه كمؤرخ من مؤرخي الحركة الوطنية ومعارك الجهاد التي خاض غمارها بصدق وإيمان. وليس غريباً ـ هذا الكاتب المؤلف والشيخ العالم ـ عن هذا المحيط فهو عندما يكتب عن تاريخ الحرب والجهاد في بلده ـ ليبيا ـ إنما يكتب لا كمجرد مؤرخ أو مؤلف وجامع الوثائق. . بل كمناضل ومجاهد عملي في الساحة عن قرب من وسط الميدان. . فهو في كلا الاتجاهين سواء عندما كتب عن تاريخ الأباضية ومدينة تيهرت وحضارة جبل نفوسة. أو عندما أراد أن يكتب ويؤلف عن الجهاد في ليبيا كتاباً، إنما هو بصدق يكتب عن معاناة وتجربة وإحساس متفاعل. . ولكن غير متصنع. . إنما من صميم معركة عاشها، واتجاه فكري اعتنقه.

وهو قد ألف كتابه الأزهار في ثلاثة أجزاء وأيضاً هناك وثائقه التاريخية المتعلقة بالجهاد. وحافظ رغم كل المآسي والظروف على هذه الوثائق

والأضابير والمراسلات وحتى البرقيات وقصاصات الصحف والبلاغات الحربية، وصور المجاهدين، وكل ما يتعلق بالحرب والجهاد في طرابلس.

وقد طوحت به الأيام بعيداً.. مهاجراً.. غريباً.. مع ذلك أدرك الرجل قيمة التاريخ وأهمية وثائقة، فحافظ عليها في طرابلس ومصر وتونس.. وإسطنبول وبغداد وعُمان.. والجزيرة ولم يشهد تاريخ الجهاد الليبي رجلاً مثقفاً مفكراً حافظ على الوثائق والأوراق مثلما حافظ سليمان الباروني.. هذا الرجل الأعجوبة.

وقد رزقه الله بابنة بارة لذكراه.. وفية لوطنها حافظت بدورها.. بعد وفاة والدها.. على هذه الأوراق والوثائق التاريخية. كانت معبأة في صناديق وكان سليمان الباروني خطط لكتابة وتسجيل تاريخ الجهاد في طرابلس والأدوار السياسية والحربية في ليبيا.. كان قد أعد أصول هذا الكتاب وعثرنا على وثيقة ذات أهمية تؤكد رغبته هذه، وذلك ضمن مقال كان قد نشره عام 1937م في مجلة الرابطة العربية التي كانت تصدر بالقاهرة والتي كان يرأس تحريرها الأستاذ أمين سعيد وفي العدد 77 من السنة الثانية ص34 بتاريخ 24 نوفمبر 1937م. وكان سليمان الباروني قد أثار جدلاً عنيفاً حاداً مع المجاهد المناضل شكيب أرسلان وحاول الباروني أن ينكر مواقف شكيب أرسلان النضالية.

وبادر أرسلان وأصدقاء أرسلان بالرد وكان الباروني عنيفاً حاداً.. وليس هنا مكان تفصيل هذا الموضوع.. إنما هناك فقرات وردت في المقال تدل على مخططه وتهيئته لكتاب في تاريخ جهاد طرابلس وهو يقول (.. وجهاد طرابلس وبرقة الذي علم العالم كله ما حصل فيه سنة 11 ـ 12 ـ 1913 من عجائب المفاداة بالأموال والأنفس لا يجهله أحد، أما جهادهم العظيم مدة الحرب العامة 14 ـ 19 وما كان فيه من خوارق العادات التي قاموا بها، ولا زال مجهولاً عند العالم كله لمنع دول الحلفاء نشر أخباره في صحفهم.

وكانت نتيجة اضطرار إيطاليا (وجيشها في طرابلس إذ ذاك فوق المائة ألف

بجميع معداته (إلى قبول الصلح على القانون الأساسي المشهور المعطل الآن فسنفصل أخباره ووقائعه المدهشة مع حوادث حرب 1911 ـ 1913 تفصيلاً مؤيداً بالصورة الشمسية ووثائقه الرسمية وغيرها.

في تاريخ الحرب في طرابلس الغرب الذي نسأل الله أن يوفقنا إلى إتمامه وطبعه ليحق الله الحق ويبطل الباطل. ويخلد لأبطال طرابلس وبرقة فخراً يضرب به المثل عند الأجيال المقبلة) اهـ.

فأين كتاب ـ تاريخ الحرب في طرابلس الغرب؟.

لقد حافظ سليمان الباروني على الوثائق والمراسلات، وبعد سنوات طويلة من الغربة والمعاناة لهذا المجاهد الشريف العفيف.. طاهر اليوم والإحساس. توفي عام 1940 ومشكورة ابنته الأستاذة المربية زعيمة الباروني. حافظت على كل أوراق والدها.. ومسودات كتاب جهاد طرابلس أو تاريخ الحرب في طرابلس الغرب.

ثم قامت بنشر شيء من الوثائق والأوراق والمراسلات في عدة أجزاء بعنوان «صفحات خالدة من الجهاد للمجاهد الليبي سليمان الباروني عنيت بجمعها وترتيبها زعيمة سليمان الباروني».

وبدأت في نشر هذه الأجزاء عام 1962.

ورغم أن بالكتاب عدد وافر من الوثائق والرسوم والمراسلات والحقائق إلا أنه ليس هو الكتاب الذي كان في ذهن وتخطيط المرحوم المجاهد مؤلف الكتاب.

بل هي مجموعة من الأوراق والوثائق والأخبار في حاجة إلى شيء من الربط والتعليق والدراسة. ولكن مهما يكن من أمر تشكر زعيمة الباروني على جهدها المبذول وتشكر على محافظتها على هذه الوثائق والرسوم والأوراق ذات الأهمية ـ بارك الله في جهدها.. واجتهادها.

ولكن ليس هذا هو الكتاب الذي ألفه بل هي أشياء من وثائقه ومراجعه التي كان يريد أن يضمنها تعليقاته وآراءه وفيض معلوماته.

* * *

ونعود إلى كتاب الأزهار الرياضية لنجد هناك في آخر الكتاب تنبيهاً من المؤلف قد يعطي فكرة عن الجو الذي سجل فيه وعلق وحرر على الكتاب وأصوله.

(.. حيث أن أغلب تحرير هذا الكتاب كان مجارياً لطبعه. بمعنى أن ما أحرره اليوم يطبع غداً.. مثلاً حصل فيه بعض تساهل (من حيث اللغة والإعراب والرسم وربما اطلع على شيء من ذلك بعد فوات طبعه فأتأسف إذ لا يمكنني تصليحه).

وهو هنا ينتقد نفسه نقداً ذاتياً ويضرب مثلاً على هذا.. وفي هذا التنبيه.

(ومن نظر إلى قولي في صفحة 11 عن تيهرت ـ بعد أن مضى عليها ما لا يبعد عن ألف سنة وهي خراب وإلى ما ذكرته أخيراً ممن وليها بعد بني رستم يصدق ما قلته.. فإني كنت عند تحرير الأول أعتقد أنها لم تعمر بعد بني رستم قط.. ثم اطلعت على الأخير بعد ذلك ـ ولم أغير ما نقلته من كلام المؤرخين شيئاً غير لفظ الخوارج الذي يقرنونه أحياناً بلفظ الأباضية أو يعبرون به عنهم طعناً فيهم فإني أسقطّه، وأرجو من أرباب الاطلاع أن يصلحوا الفاسد ما أمكن بدون اعتراض فإني مقر بالعجز والتقصير والكمال لله الذي خلق النقص والكمال) اهـ.

ومما يدل على اهتمامه بالتحقيق التاريخي وتتبعه لبعض المسائل والتعابير للتحقيق. هذا الذي أورده في هامش ص26.

«لفظة المسودة مذكورة بكثرة في سير الشماخي رحمه الله وطالما سألت عنه من قبل طلبة عصرنا ولم أجد من يشرح لي معناه.. وغاية ما يقولونه.. أنه اسم لقبيلة كانت في ذلك الوقت.

وفاتني أن أسأل عنه شيخي أو والدي حفظهما الله ولتعلق خاطري به لما أراه لهم فيه من الوقائع الدالة على قوتهم لم أقنع بأنهم قبيلة فقط. ولا زلت أبحث حتى وقفت على تفسيره ببني العباس في تاريخ ابن مسكويه في أماكن متعددة منها قوله ـ لما رأى المأمون إنكار بني العباس وغيرهم عليه ـ وهو منهم ـ ببغداد حتى أخرجوا عامله الحسن بن سهل منها كأنه أراد معاكستهم بإخراج الخلافة منهم.. فصدر أوامره سنة 201هـ في رمضان بلبس الثياب الخضر بدل الثياب السود التي كانت من شعارهم وبها سموا المسودة» اهـ.

ومن أسلوب الانتقاد التاريخي وعوامل سقوط الدول وتهرؤ الأوضاع ما علق به الكاتب المؤرخ على تفريط بعض الحكام في أموال الدولة وثروات الشعب.

يقول سليمان الباروني ص18 هامش:

(.. وما يكون منها عطية لبعض الناس من طرف الملوك يسمى قطيعة كما كان يفعله بعض بني أمية وبني العباس إذ كانوا لا شركاء لهم في بيوت أموال المسلمين يتصرفون فيها على حسب أهوائهم فيعطوا من الأموال الطائلة شاعراً مدحهم بقصيدة أو بيت.. ولنديم أطربهم في مسامراتهم بحكاية غريبة أو قصة مضحكة.

وليس ذلك مما يفتخر به الإسلام والدين إذا فقد العدل) اهـ.

وهذا الكلام من المؤرخ ليس في حاجة للتأكيد والدلالة على فكر صاف ونظرة موضوعية وإدراك لأسباب انحطاط الدول وتهرئ أوضاعها.

ص14 هامش ـ يشير بغضب إلى مؤرخ من أهل فاس. ذكر أن فاس تعرف بعراق المغرب في سابق الزمان. وهذا الوصف أغضب المؤرخ الباروني. مع أنها عبارة عابرة.. لكاتب أحب بلاده كما أحب المؤرخ الباروني البلدان التي كتب عنها وأرخ لها. ولكنه يغضب بدافع التحقيق التاريخي ويمسك برقاب المؤرخ المغربي الذي لم يثبت لنا اسمه ويطالبه بدليل على هذه العبارة.. ومن

قالها.. ومن أين له؟ ويؤكد أن هذا إجحاف لحق تيهرت غاصب لحقها وإن كان المؤرخ الباروني لا ينكر فضل فاس وشهرتها العظيمة.. ولكن يهمنا هنا موضوع أو نقطة هامة تتعلق بالمنهج التاريخي.. أو الأمانة التاريخية. وفي ملاحظة هادفة.. ولقطة وامضة يشير سليمان الباروني بحس المؤرخ قائلاً:

(.. فما أهون التساهل على مثل هذا المؤرخ من المؤرخين في تبديل وتغيير الأخبار تبعاً لأغراضهم. وكأنه لم يفكر في إتيان زمن كهذا، تكشف فيه السرائر وتتضح الخفايا، ويستوي الماضي والحاضر في الوضوح بقيام آلات الطبع لإظهار كل مكنون من نفيس الكتب العتيقة ذات الشأن، والتحقيق في التاريخ، التي كانت تحت حجب الخفاء والضن بها.

ولو تأمل هذا المؤرخ في كلام الشاعر القائل:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقولهم في الزوايا خبايا.. لأنصف في كلامه وأعطى كل ذي حق حقه.. ولو فيما هو بين الجمادات وبين العامر والدامر بقضاء الله.. ولعله مع القائلين ـ الدنيا مع الواقف ـ) اهـ.

وللكاتب الباروني في الأزهار أكثر من إشارة ووقفة مع المؤرخ ابن خلدون... وقفة عتاب وإشارة مؤاخذة وملام. وها هو في صفحة 20 يقول: (وكلما ذكرها ابن خلدون كان غير منصف في جانب الأباضية) ويعلق المؤلف على إشارته هذه في الهامش قائلاً:

«عدم إنصافه هو جحوده أو إهماله ذكر ما كان لهم من الأخبار الحسنة. وما كان لملكهم الذي شهد به المؤرخون من الصيت في تاريخه الطويل العريض المعدود في مقدمة التواريخ الإسلامية، فهم أولى بأن يوجد فيه ما ذكره غيره من المؤرخين عن الأباضية، ولا نظن الجهل بأخبارهم، لأنه من نشهد له، كما شهد له غيرنا بسعة الاطلاع. وكثرة النقل، مع أنه مغربي. على أنه قد يشير أحياناً إليهم بعض إشارة بدون بسط في الكلام، فإهماله أخبارهم وذكر بعضها

مفرقاً بحيث يصعب جمعها منه. . لا بد وأن يكون لأمر في باله يعلمه الله ولعل له عذراً فلا لوم عليه والله أعلم» ص20 هامش.

وهناك أيضاً في صفحة 30 هامش أشار فيه إشارة تدل على حبه التاريخي ودقة بحثه وشغفه بالمصادر من كل نوع. . فهو عند ذكر مدينة تيهرت. . التي كانت تسمى قديماً ـ تاقدمت ـ يلاحظ سليمان الباروني ما يلي:

(. . وذكر الشماخي في صحيفة 145 ـ أنها تسمى أيضاً. . تاقدمت. . ولم نره لغيره. . إلا أنني وقفت في الكتبخانة المصرية الخديوية على الصناديق التي صففت فيها تحت صفائح الزجاج النقود المضروبة بأسماء الملوك والمدن قديمها وحديثها لاطلاع الناس عليها. . وفوق كل عملة منها ورقة صغيرة توضح ما في ذلك المضروب من التاريخ والاسم.

وقد رأيت فيها عملة نحاسية صغيرة لا إتقان في نقوشها. فوقها ورقة فيها هكذا (تاقدمت سنة 1255 ـ هـ). ويجانبها ورقة أخرى فيها اسم الأمير عبد القادر الجزائري المشهور القائم على فرنسا بعد دخولها قطر الجزائر ـ وقد بنى بتيهرت بعض بناء لما أن نوى أن يجعلها مركز حكومته. . ولم تطل المدة ولعله ضرب تلك العملة لما كان هناك وهو صاحب علم واطلاع والله أعلم» اهـ ص21 هامش.

وتحدث عن عدد من العلماء والأدباء والشعراء والعباد والزهاد المنتسبـ إلى تيهرت من بعيد أو قريب والذين أخذوا العلم بها. . أو نزلوا بها. . أيام بني رستم أو بعدها إنها نظرة محب. . أو عين الرضا. .

ويذكر ولاية أفلح بن العباس على جبل نفوسة وواقعة ـ مانو ـ التي كانت من أشد المعارك مع دولة بني الأغلب. . أيام إبراهيم بن أحمد بن الأغلب وكان ذلك أيام المعتضد بالله العباسي. . كما أشار ابن الرقيق في تاريخه سنة 283هـ.

ونقله الشماخي. . ويحلل الباروني في كتابه بإفاضة ومرارة هذه المعارك الدامية.

ويذكر في صفحة 299 في الأزهار أقوال المؤرخين في فترات أزهار مدينة تيهرت أيام بني رستم الذين كان لهم دولة ومصاولات ويركز عليها المؤلف نظرة الحب والإعجاب.. ويرى بعضهم أنها ازدهرت مائة سنة وثلاثين سنة ـ 130 ـ ويرى بعضهم أنها ازدهرت وقامت أركانها مائة وخمسين سنة ـ 150 ـ أي مدينة تيهرت التي أخذت الحيز الأكبر من فصول وصفحات الكتاب.. وعلى هذا التقدير والرأي كان والده عبد الله الباروني.. واستشهد المؤلف هنا.. بفقرات من قصيدة من نظم والده.. هو نظم أقرب إلى لهجة الوثائق والمعلومات التاريخية.

ويرى بعضهم أن مدينة تيهرت عمرت 160 سنة وهو رأي صاحب المكتبة الصقلية.

وسواء كان هذا أو ذاك فأن الإشارة إلى هذا والاهتمام بالموضوع وتتبعه في مظانه ومصادره والشغف بالتسجيل.. يدل على اتجاهه في الدراسات التاريخية وأن كان اهتمامه التاريخي في كتابه هذا في فترته هذه من مراحل عمره. كان منصباً على لون معين من أنماط التفكير.. ومرحلة معينة من الصراع الحضاري ويشير إلى عمران جبل نفوسه.. وامتزاج قبائل وعائلات من المشرق الإسلامي بالمغرب الإسلامي.

(.. أقول ولهذا يوجد بالمغرب وخصوصاً بجبل نفوسه أماكن وقبائل كثيرة تسمى بأسماء أماكن في المشرق ولعلهم أتوا في ذلك الزمان من المشرق) ص88.

ويذكر في كتابه أسماء من هذا القبيل يرجعه أصولها إلى قبائل عربية.

(الحمران بحبل فساطو القاطنة بقريتهم المسماة بهذا الاسم..

والموضع المعروف بجزوى في ظاهر جبل فساطو وقبيلة طرمسية.. وهي الآن في قرية صغيرة على رأس جبل بين بلدة جادو وتاردية ومن ذلك الموضع المسمى بجندوبة بناحية ككله.. وهو جبل صعب المراقي جداً بجنب جبل يفرن

لناحية الشرق يتحصن فيه الثائرون على الملوك في تلك الجهات من قديم. . ومن ذالك جبل غريان) ص89.

ويشير المؤلف إلى موضوع اجتماعي ذي أهمية قضية المصاهرة بين الحكام والبيوتات. . وجعله أساساً للقضاء على المحاربات والفتن. ويضرب على ذلك أمثلة ويسوق شواهد من التاريخ يدل على سعة اطلاعه وعظيم اهتمامه ص96.

يشير إلى مصاهرة أتباع هذا المذهب مع غيرهم من مذاهب تشريعية أخرى. . وفائدة هذه المصاهرة ثم يعلق قائلاً:

(والحامل على ذكرهم هاهنا مجرد الإفادة للمطالع وبيان ما آل إليه تدبير الإمام عبد الرحمٰن رحمه الله، وما نتج عن مصاهرته لمدرار من بث دعوته في هذه العائلة القابضة زمام ملك الصفرية بدون رمح ولا سنان، وهذا لا شك مما يشهد له بطول الباع في القيام بإدارة مملكته وأخذ الاحتياطات لدفع كل طارئ يطرأ عليها.

وأمر المصاهرة وقع كثيراً قديماً وحديثاً من الملوك لغرض التوقي من فتنة قبيلة كبيرة أو سلطان آخر كما وقع للإمام عبد الوهاب على ما سيأتي في كلام ابن الصغير، ولتميم بن المعز بن باديس الشيعي صاحب أفريقية فأنه صاهر بنت الناصر صاحب القلعة سنة 374هـ على ما ذكره ابن خلدون من صحيفة 160 ـ وانطفأت نار الفتنة بينهما بسبب ذلك.

وفي زماننا هذا يقع بكثرة خصوصاً عند الإفرنج حتى صار أغلب ملوكهم وأمرائهم أقارب لبعضهم بعض وبهذا عظم اتحادهم وفتر ما كان بينهم من الخلاف وتناصروا على المسلمين، وتحالفوا على محو كلمة الإسلام وأهله، الذين لم تربطهم بعضهم بعض إلا كلمة الشهادة، وهي رابطة عند التحقيق منحلة لما تهدد به منذ ظهرت الاختلافات المذهبية والمشاكل الاعتقادية التي صارت أساساً متيناً لا تزلزله الأزمان والدهور لكل شقاق وتباين بين أفراد الجالية

الإسلامية» اهـ. . ويتحدث المؤلف المؤرخ عن الغول الفتاك والخطر الداهم الذي أضر بالحضارة الإسلامية. . وهو الخلافات المذهبية وتناحر الفرق. . يتحدث عن ذلك بمرارة وهو يلمس موضوعاً هو جدير بالبحث عن علاج له لإنقاذ وحدة الفكر ووحدة الساحة الإسلامية ويحيلنا إلى رحاب التاريخ ودهاليزه.

(. . ومن طالع التاريخ ورأى الوقائع الماضية التي جرت بين أهل الإسلام إلى ما لا يبعد من عصرنا هذا. . رأى بلا ريب ما يرعب فؤاده ويكدر صفو راحته. . وأغلبه أن لم نقل كله متولد من انتحال المذاهب ولو كانت لديهم آلات الحرب الحاضرة براً وبحراً لقضي أمر هذا الدين وأهله من زمان بعيد. فلو فتح أمراء الإسلام باب المصاهرة بينهم وسعوا في توحيد المذاهب لأصبحوا وكلمتهم واحدة). . ومن الطريف أن يتحدث المؤلف المؤرخ عن السلطان عبد الحميد في عصره ويرى رأياً يطرحه هنا: (فلو صاهر الأتراك الحكام ولو صاهر عبد الحميد الأمراء المنفصلين عن دائرة نفوذه وحكمه ببنات وزرائه فضلاً عن كريماته لبادروا إلى معاضدته وعضوا بنواجذهم على حبل الاتصال بعرشه) اهـ. وهي فكرة كانت لا تحل أشكال السلطنة في أيام خريفها. . فإن هناك أكثر من سبب لضياع السلطنة في تلك الأجواء والعواصف العاتية ورياح الزمن وتلك المؤثرات والتفاعلات لا تحلها قضية المصاهرة إنما كانت ظاهرة أو مشكلة أعمق وأخطر بكثير. .

ولا شك أن المصاهرة بين الحكام كان لها آثارها ولكن ليست هي كل شيء حتى الإخوة الأشقاء وحتى أبناء العمومة تناحروا في ساحات التاريخ لكن هي صورة أو فكرة استرعت انتباه المؤرخ وأراد أن يبحث عن حل لمشاكل عصره عن تاريخ الاستفادة من حوادث التاريخ.

ويعود إلى ابن خلدون. . وهو يمسك بخناقه في أكثر من موضع. . ويعود إلى انتقاده والإشارة إلى موقفه أكثر من مرة.

في صفحة 186 يقول الباروني:

(.. وأنت ترى أيها القارئ ما في كلام ابن خلدون مما يدل على ما كان له نحو بني رستم كما قلناه من قبل، ولم نعلم له سبباً وإلا فكيف يتقرب أفلح إلى صاحب الأندلس وهو يهاديه بالمال كما قال).

ولكن الباروني بروح الناقد المنصف والمتأمل المدرك يتلافى الأمر هنا ولا يريد أن يظلم صاحبه المؤرخ عبد الرحمٰن بن خلدون فقد تكون النسخة المنقول عنها كلام ابن خلدون غير صحيحة وربما كان هناك نقص أو تحريف. أو سقط في بعض الكلمات والجمل فيقول:

«.. وهذا على فرض صحة النسخة المنقول منها.. وإلا فربما كان الأصل هكذا.. ـ «فبعث إليه بمائة ألف درهم يتقرب إليه بذلك».. فتأمل والله أعلم» اهـ.

وقام سليمان الباروني قبل تأليفه هذا الكتاب بزيارة لأطلال «تيهرت» وبسياحة في بلاد الجزائر ـ وكان قد ارتحل من مصر بعد أن جاور بها طالباً للعلم في الأزهر ثلاث سنوات.. وكان ذهابه للجزائر عام 1313هـ 1895م. وطلب العلم هناك.. ودرس حوالي ثلاث سنوات.. ويشير إلى زيارته لتيهرت كانت عام 1316هـ 1898م هذا وقد ألف تاريخه هذا ـ الأزهار الرياضية عام 1325هـ 1907م بمصر.. أي بعد تسع سنوات من اطلاعه على تيهرت وأطلالها.. وكانت ذكريات اختمرت في ذهنه غذتها مطالعات وحس تاريخي.. من رجل كان في طليعة أصحاب القلم والفكر في جيله وشغلته شواغل عن حبه للدراسة والتاريخ بل هو في نضاله ومواقفه أسهم في صنع تاريخ بلده.



أحمد النائب وكتاباه

المنهل ـ ونفحات النسرين

مؤرخ من أواخر العهد العثماني.

ألف في نوعين من كتابة التاريخ في بلده.

التاريخ العام ـ وفن التراجم والسير.

الكتاب الأول ـ المنهل العذب. في تاريخ طرابلس الغرب. في جزأين.

والكتاب الثاني ـ «نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الأعيان».

وقد سبق أن تناولت شخصية أحمد النائب بالدراسة والتعليق على ما قدمه في المكتبة التاريخية.

وألقيت عنه وعن المؤرخ ابن غلبون محاضرة يوم الأربعاء 20 أبريل عام 1955م، في قاعة المحاضرات بمدرسة طرابلس الثانوية ثم نشرت المحاضرة ملخصة في كتابي «أعلام من طرابلس» الذي طبع عام 1955م.

ثم بعد سنوات قمت بتحقيق ودراسة كتابه «نفحات النسرين والريحان» بعد أن عثرت عليه مخطوطاً في دار الكتب المصرية بالقاهرة. ونشر الكتاب في بيروت عام 1963م. وكان صديقي الأستاذ فؤاد السيد أمدني بنسخة مصورة وهو عالم كريم ساعد كثيراً من الباحثين الدارسين.

وكانت المقدمة التي كتبناها فيها ما يسلط بعض الضوء على حياة أحمد النائب ومنهجه ومعلومات قد تكشف بعض الجوانب عن عصره ومحيطه.

ولكن مع هذا.. لا بد من العودة إليه، والاهتمام به ونحن بصدد الكتابة عن المؤرخين الليبيين ومناهجهم ومؤلفاتهم نعود إليه لأكثر من سبب.

1 ـ وكما أشرنا في الفصلة المتعلقة بالمؤرخ ابن غلبون لا يليق أيضاً أن نصدر كتاباً عن المؤرخين ويكون خلواً من الإشارة إلى المؤرخ أحمد النائب وكتابيه «المنهل» و«النفحات».

2 ـ فضلاً على أن هناك بعض الإشارات والجوانب والملاحظات لم تنشر في كتابي «أعلام من طرابلس» أو في مقدمة دراستنا وتحقيقنا لكتاب «نفحات النسرين».

وهي جوانب جديرة بالإشارة والإشادة.. وتنبيه المهتمين بالدراسات التاريخية في هذا المجال.

وتشير بعض الوثائق إلى أنه من مواليد 1256هـ. ولكن في قيودات بخط والده «حسين النائب» أنه انزاد له ولد وسماه «أحمد» بتاريخ 1264هـ 1846م.. وهو الأصح.

* * *

وقد طبع أحمد النائب الجزء الأول من «المنهل» في مدينة إسطنبول عام 1317هـ ـ 1899م حوالي اثني عشر عاماً قبل الغزو الإيطالي لشاطئ طرابلس. وقيل تسع سنوات من عام الحرية أو «المشروطية» في تركيا دستور عام 1908م.

وكان طبعه لكتابه هناك عندما كان في بلد الأتراك يبعد تارة ويقرب أخرى، ويراقب ويضيق عليه.. ثم يعين له راتب ويكون عضواً بمجلس إدارة بلدية إسطنبول، التي كان مبعداً فيها من بلده.. وقد أشرنا إلى هذا ونشاطه في الفصل الذي كتبناه في مقدمة دراستنا لكتابه «نفحات النسرين».

وأما الجزء الثاني من «المنهل» فقد طبع بالقاهرة عام 1961م طباعة رخيصة غير محققة ولا مهمشة تهميشاً لائقاً بالموضوع. . .

والكتاب الثاني الذي كان مطموراً غير معروف لمن تكلموا عنه والذي نشرناه منذ سنوات «نفحات النسرين».

وقد كان في العهد العثماني الأخير والمتأخر بعض من المثقفين من أهل ليبيا لهم اهتمام بالتاريخ. . بتلك الأنماط والأساليب على مناهج مدارس السرد ـ والنقل ـ والتقييد، مثل حسن الفقيه في يومياته، ومصطفى الخوجة في منقولاته وتقيداته.

وأحمد النائب في منهله ونفحاته، والزنتاني في كناشه، ومحمد ظافر المدني في يواقيته ـ وأمثال هؤلاء ـ وقد تكشف البحوث والدراسات آخرين من المتقدمين أو المتأخرين وكل له ملمحه واتجاهه، وإن كانت هذه الأنماط تكاد أن تكون من مدرسة واحدة إلا أن فصولها متعددة وتلاميذها من ذوي السحنات والملامح المتنوعة.

* * *

وجد أحمد بن حسين النائب مكتبة خصبة استفاد منها وأضاف إليها ونماها. . كانت زاخرة بالمخطوطات النادرة والوثائق القيمة، والمراجع المنوعة وكان يستطيع أن تكون استفادته منها أكثر لو كان أكثر ثقافة. . أو خطط لنفسه منهجاً علمياً. . ولكن الظروف والملابسات كانت بطبيعة الحال ذات تأثير وبصمات يعرفها من درس الحركة الفكرية في تلك الظروف والملابسات ولكن يكفيه حبه لبلده وأهله. . وشغفه بالتاريخ. . ولعله حب وشغف متوارث، فهناك أحد أفراد أسرته من أجداده يكتب أو يقيد مصنفاً تاريخياً عن الأسرة وأعلامها كما سبق أن أشرنا هو كتاب «الإرشاد لمعرفة الأجداد».

فهو من أسرة على جانب من الوجاهة والثقافة وتوارثت النيابة الشرعية في المحاكم والتوثيق.

ويرجع أصلها إلى حقب طوال في مدينة طرابلس الغرب. فهم من المهاجرين الأندلسيين الذين اتخذوا طرابلس الثغر الإسلامي الجميل موطناً..

الجد الأعلى «عيسى الأوسي» ونحت منه لقب «العسوس» وفد من الأندلس كما أشار أحمد النائب.

«.. وأصل هذا البيت من الأندلس[1] من بلاد الثغر الشرقي انتقل عند الجلاء وغلبه ألفونس ملك إسبانيا عليه إلى طرابلس في أواخر المائة السابعة» اهـ.

تدرج منذ القرن الثامن الهجري أبناء هذه الأسرة في المجتمع الطرابلسي ولهم في تاريخه أثر وبصمات.

* * *

وقدم أستاذه الشيخ فالح الظاهري المهنوى كتابه المنهل وهمش له بضعة تهميشات لا تخلو من فائدة علمية أو لغوية أو ملاحظة فيما يتعلق بسند.. أو حديث نبوي..

ويبدو من تلك المقدمة التي تطوع بها الشيخ فالح المهنوي ـ وهو من علماء الحجاز ـ الذين أقاموا بليبيا فترة طويلة أو كما حكى هو..

«.. أقمت بهذا الصقع مدة هي زمن الشباب، وبلوت من أخباره وعوائد أهله القديمة والحديثة ما لا يطرقني فيه ارتياب، وعرفت قبائله وعرفوني، وألفتهم وألفوني، وصار لي فيه من التلامذة الأنجاب والأصدقاء الأحباب من جبل نفوسة، إلى صفراء[2] الإسكندرية المحروسة».

* * *

ويقول الشيخ فالح الظاهري المهنوى موضحاً اتصاله بالمؤلف أحمد النائب وصلته بالكتاب.. ودوره في إصلاح صفحاته وتقديمه له.. وقد عنون

(1) المنهل العذب ص 325 طبعة اسطنبول.

(2) المنهل ص 3طبع اسطنبول.

المقدمة بعبارة ـ تقريظ. وهي كلمة مسجوعة، ولكن من ثناياها تلحظ أشياء تدل على وضيعة الكتاب في مهده وعندما كان لا يزال سطوراً بين يدي الشيخ يطلب تلميذه أو صاحبه النظر فيه والعناية به.

«. . قد تصفحت ما جمعه الابن الشاب. . أحمد بن حسين النائب الأوسي الأنصاري في أخبار بلده ومنشأ أسلافه ومحتده مدينة طرابلس الغربية، محتد النفوس الأبية من عرب صرحا وذوي قرب صلحا فوجدت[1] المجموع كثير الفائدة، ملياً بالعائدة، نافع في بابه» اهـ.

ويظهر أن أحمد النائب كتب مؤلفه التاريخي بلغة أقرب إلى العامية أو اللهجة الدارجة. . أو كان هناك ما يستحق أن يعاد النظر فيه نحوياً ولغوياً. . فبادر الشيخ فالح المهنوي وأصلحه لغوياً ونحوياً وهمش له. . ومن الطريف أن يذكر هذه الملاحظة قائلاً:

«. . إلا أنه كان بالعبارة المألوفة الدارجة. . وهي النافعة لكل ناشر مدارجه، خشيت عليه من طعن كل غبيّ متقعر، لا يميز غيم يومه من صحوه، والتأليف إنما صدر بنية الإفادة. . فلا ريب أن عوذته بنفث القلم.

وأزلت عن حسن تراكيبه مكروه الألم، ومسحت عليه، وأضفت شيئاً من متين العلم إليه، وميزته بقولي. . «قال متصفحه». . إلخ.

* * *

ومما تجدر الإشارة إليه هنا. . أن الكتاب الذي أعيد طباعته من بعض الناشرين حذف مقدمة الشيخ فالح الظاهري المهنوي مع أنها ذات دلالة وقيمة. . فضلاً على أن الناشر في الطبعة الجديدة أبقى الهوامش التي بها كلمة «قال متصفحه» ولا يعرف عند قراءة هذه الطبعة. . من هو متصفحه هذا. . ولكن الطبعات التجارية من الناشرين كثيراً ما تقع في مثل هذه المزالق والمآخذ. .

* * *

(1) ص 3 المنهل.

ويظهر أن المؤرخ أحمد النائب التقى مع شيخه هذا بإسطنبول وكان قد سبق أن تعرف به في مدينة طرابلس. . وقد عرف المجتمع الليبي والأوساط العلمية مكانة الشيخ فالح وقيمته وكانت للشيخ أيضاً صلات بمؤرخ آخر هو الأستاذ محمد بشير ظافر المدني من مواطني المؤلف. . وأصهاره. . وهو صاحب كتاب «اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة».

* * *

وقد أشار أحمد النائب في المقدمة:

«هذه وريقات جمعت فيها ما وقفت عليه بغاية الاختصار من أخبار طرابلس الغرب، من ابتداء الفتح، وأنباء من تولاها من الولاة. . وسميتها المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب».

ويتضح من هذا أنه سلك في منهجه وتخطيطه لكتابه.

أسلوب الجمع والتقيد.

وأنه يعتمد على المصادر التي يكثر من المطالعة فيها بطريق الشغف والثقافة التاريخية.

وأنه قصد الاختصار.

وأنه ركز على القطاع الزمني. . من ابتداء الفتح الإسلامي.

وقد تخلل عملية النقل والسرد التاريخية أيضاً تراجم لبعض العلماء والصوفية والزهاد. .

وقد بدأ المؤلف بوصف مدينة طرابلس ومدينة لبدة القديمة والفتح الإسلامي لطرابلس. . وعهد الصحابة الأجلاء ثم ولاة بني أمية والعباسيين والأغالبة والفاطميين والموحدين والحفصيين. . والأسبان. . والمد والجزر. . وعواصف الأحداث والأطوار. . حتى عصر الأتراك. . من بني عثمان. . والعصر القرماللي ثم العصر العثماني الثاني حتى وصل في جزئه الأول إلى ولاية الوزير محمد نظيف باشا 1297هـ.

على أن يبدأ الجزء الثاني بولاية أحمد راسم باشا.

ورغم أن النائب كان في بعض الحالات.. عثماني النزعة، سلطاني الهوى، تركي الانتماء ـ في كتاباته على الأقل ـ ولكن مع كل هذا كانت هناك توجسات منه وفعلت الرقابة الاستبدادية بكتابه الشيء الكثير.. وتطاول إليه المقص.. فملصه.. وهبشه حتى كاد يقضي على أكثر من نصفه.. كما حكى لي[1] أحد العارفين بالمؤلف.. والذين شاهدوه في إسطنبول.

* * *

وهو رغم أنه لم يكن ذلك العالم الدارس أو المؤرخ المتعمق إلا أنه بلا شك هو في عداد المثقفين وذي «هواية» ورغبة لتقيد التاريخ وتصيد مصادره وتتبع منابعه، يدفعه إلى ذلك شغفه بالثقافة على وجه عام.. وحبه للبلاد والوطن وما يتعلق به على وجه أخص.

وقد بذل في ذلك من الجهد المتواصل يظهر أحياناً في تتبع خبر أو تقصي حقيقة وعلى سبيل المثال.. في تسجيل خبر صغير، وترجمة وجيزة، مثلاً.. وهو للدلالة أو علامة من الدلائل.. عندما تعرض لترجمة سيدي «منيذر» الصحابي المدفون بمدينة طرابلس.. رجع أحمد النائب إلى كثير من كتب المغازي والرجال والصحابة والطبقات.

فيكتب عن «المنيذر»[2] رضي الله عنه ـ ما يؤكد ويثبت وجوده بطرابلس فراجع نفح الطيب لأحمد المقري. وكتاب التكملة لابن الأبار، والاستيعاب لابن عبد البر، وكتاب ابن بشكوال ـ وابن نافع في معجمه الصحابة، والبخاري في تاريخه الكبير، وابن جعفر، وابن عساكر في كتاب الصحابة، يعود إلى كل هذه المراجع التي كانت تزخر بها مكتبته ويراجع هذه المصادر ليستدل على أن

---

(1) حكى لي هذا وسمعته يرويها مرارا الاستاذ المرحوم عبد الرحمن الزقلعي أيام هجرتنا بأراضي مصر.

(2) المنهل ص 41/ 42 طبعة اسطنبول.

سيدي منيذر دفين طرابلس من طبقة الصحابة ويبحث أو يستدل بمصدر آخر. .
فلا يكتفي هنا بمراجع المصادر الورقية والمخطوطات وأوراق الأضابير. بل تراه. . ينهج منهجاً آخر. . فيكشف أبياتاً منقوشة على قبر قديم فينقل الأبيات ويشير إلى هذه الوثيقة الحجرية وأن ناظم الأبيات يرقد بجوار المنيذر. .

* * *

وكتابات القبور وشواهدها مرجع من المراجع. . التي يستدل بها المؤرخون. . ويستنبط منها علماء الآثار. . والمنقبون. . والمنقبيون. ومع أن أحمد النائب بحث وفتش عن كتابة حول قبر قديم كان بجوار المنيذر لكنه مع الأسف لم يفتش ويبحث لنا ولم يتعب نفسه للبحث عن مكان قبر اللغوي إبراهيم بن أبي إسحاق الأجدابي، على أن الرحالة التجاني سنة 706هـ أشار إلى أنه زار قبر الإجدابي.

* * *

● ملاحظة وتنبيه

وقد سبق أن أشرنا منذ سنوات في كتابنا «أعلام من طرابلس» ص 178 إلى أن كتاب «شيم البارق من ديم المهارق» مضافاً إلى أحمد النائب. . أو هكذا ربما يعلم من سياق الحديث هناك ولكن في الحقيقة الكتاب المشار إليه ليس من تأليف أحمد النائب الطرابلسي بل إن كتاب «شيم البارق من ديم المهارق» من تأليف الشيخ فالح الظاهري المهنوي وهو عبارة عن ثبت كبير له أي هو من كتب الأسانيد والمرويات. . وهذا الكتاب ما زال مخطوطاً في مكتبة عبد الحي الكتاني خزانة الرباط رقم 1360 كتاني، فيلاحظ هذا. . لئلا يقع القارئ في نوع من الالتباس.

* * *

وإن كان الجزء الأول من كتاب «المنهل» أكثر دسامة وموضوعية بالنسبة للجزء الثاني. . فبعد صدوره كان لا يساوي مقدار اللهفة عليه ولعله كان مجرد تقيدات مبتسرة غير ناضجة ولا مكتملة التأليف ومجرد نقولات سريعة وقيودات غير منظمة. .

ومع ذلك لا يخلو من بعض الفوائد التاريخية لبلد مجال التاريخ فيه واسع الإطناب والرحاب.

وقد اعتمد أحمد النائب في الجزء الثاني في أكثره على مصادر من التراث القريب.. والمصادر التي كانت معاصرة له.. من دوريات وصحف ومشافهات، ومن مصادره في جزئه هذا:

1 ـ السلنامة[1] وهي تقويم سنوي به قوائم وإحصائيات وبعض الأخبار التي تصلح مادة تاريخية.

2 ـ جريدة الجوائب عام 1299هـ والتي كان يصدرها العالم اللغوي الباحث أحمد فارس الشدياق في مدينة إسطنبول. كما رجع أحمد النائب لأعداد من جريدة الجوائب عام 1300هـ وكان صاحب «المنهل» من أصدقاء الشدياق ومن المشتركين بجريدة الجوائب بإسطنبول.

3 ـ كما اعتمد أيضاً في هذا الجزء على جريدة طرابلس غرب عام 1229هـ والتي كانت تصدر في وطنه طرابلس.

4 ـ كما نقل ترجمة الشيخ شامل بن مسعود الطرابلسي من تاريخ عبد الرحمن الجبرتي.

5 ـ بالإضافة إلى المراجع التي لا تخلو منها مكتبة دارس باحث مثل معجم البلدان لياقوت الحموي، وابن حوقل في كتابه المسالك والممالك والشريف الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

* * *

أما كتاب «النفحات» فإن مصادره ومناهله مثل مصادر كتابه المنهل العذب، فمراجعه التي رجع إليها ومناهله التي استقى منها.. تكاد أن تكون واحدة أو متقاربة متشابهة، وقد كانت ما ينيف على ثمانية وعشرين مصدراً أو كتاباً يمكن تقسيمها إلى أنواع:

---

(1) يراجع عن السلنامة كتاب صحافة ليبيا تأليف علي مصطفى المصراتي.

1 ـ الرحلات:

1 ـ مثل الرحلة الناصرية التي كان صاحبها الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي المغربي على صلة بأسرة أحمد النائب بطرابلس.

2 ـ الرحلة العياشية لأبي عبد الله العياشي.

3 ـ رحلة التجاني.. أوثق مصدر وأكثر أصالة.

4 ـ رحلة ظافر المدني.. المخطوطة والتي يطول البحث عنها..

2 ـ كتب الطبقات:

مثل طبقات علماء أفريقية لأبي يعقوب التميمي.

ترتيب المدارك للقاضي عياض.

الديباج المذهب لابن فرحون إلخ..

3 ـ التاريخ والتراجم العامة:

مثل تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع للسخاوي ورياض النفوس للمالكي.

4 ـ كنانيش ودفاتر وأوراق مبعثرة مطوية في مكتبة النائب التي ورثها.

5 ـ كتب صوفية وأسانيد.. وإجازات.. وهي من أهم المصادر في فن التراجم والسير والدراسة المنقبية.

6 ـ ومن مصادره كتب ليبية كانت شهرتها في نطاق بلده وما حولها.. مثل
ـ فتح العليم لعبد السلام بن عثمان التاجوري.

7 ـ واعتمد أيضاً على لون من الإجازات والأسانيد والوثائق وعند ذكره لوالده حسين النائب استغرق النقل صفحات من السند الطويل والثبت المستطيل.

* * *

والمقدمة في كتاب «نفحات النسرين» أسطر موجزة لكنها تعطي فكرة عن المضمون والاتجاه في مسار الكتاب.

«.. هذا تقيد يشتمل على ما وقفت عليه من تراجم من كان بطرابلس من ـ المحدثين الأفاضل، وأكابر الأئمة الأماثل، والأولياء والصلحاء ذوي الفضائل، وسميته نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الأعيان» ـ اهـ.

هذه هي كل سطور المقدمة بعد البسملة والحمد له. فهو يريد أن يقدم تقييداً، والتقيدات من أهم خطوات المؤرخ.. بل هي مادته.. ولحمته وفتيله وسديمه، فلا تاريخ بلا تقيدات.

ولكن فن التاريخ وأسلوب المؤرخ ومنهج الكاتب الدارس يختلف شكلاً أو مضموناً في تناول التقيدات والوثائق.. ومن هنا يختلف مؤرخ عن مؤرخ.. وناقل عن ناقل، ولكن صاحبنا النائب في كتابه يقف في كتابه هذا عند مرحلة النقولات والتقيدات..

وهو عمل تظهر قيمته عند من لا يجد هذه المصادر التي عاد إليها.. والمناهل التي ارتوى منها..

وهو كاتب أو مقيد.. كان يهتم بالأعيان.. قبل أن تضيع معان ومدلولات هذه الكلمة، من كثرة الاستعمال حتى خرجت عن نطاقها العلمي والفكري.. ووضعت في غير مكانها اللغوي ومصطلحها الاجتماعي.

وهو يعني بالأعيان.. ذوي أثر ومضمون وقد قسمهم إلى أنماط وإن كانت هي أنماط يقترب بعضها من بعض وتتداخل بأكثر من شكل...

ولعله في اتخاذه هذا العنوان أو كلمة أعيان ـ تأثير أو تقليد في سلك من وضع هذا.. كلمة أعيان في العناوين.. وكتب التراجم التاريخية، ابن خلكان.. في أشهر مصدر في هذا المجال.. وفيات الأعيان وإن كان النائب لم يتقيد بتاريخ الوفيات وهو ـ أي أحمد النائب ـ يهتم بنوعين.

المحدثين الأفاضل.. أي رجال الحديث والمرويات.

وأكابر الأئمة الأماثل ـ يقصد العلماء وأهل الدراية والرواية.

وقد غلب عليه نوع ثالث أفاض فيه.

الأولياء والصالحون ـ وهم جل من ترجم لهم واعتنى بهم.

* * *

ويبدو أن أنواع الممارسات الأخرى من أدب وشعر وتأليف كان مندرجاً كل ذلك عند المؤلف في كتابه تحت هذه الأقسام والأنواع.. فهي كما أشرنا مجرد تقسيمات وأنواع متداخلة، تندرج لديه تحت عنوان عام (الأعيان) أو من كان بطرابلس من الأعيان.

* * *

وأيضاً هو في منهجه وترتيب فصول الكتاب كانت فصوله متداخلة أو مبعثرة زماناً ومكاناً ونوعاً..

فلم يسر في ترتيبه وتبويب فصوله وتقديم أعيانه والتعريف بشخصياته على نسق الموضوعات مثلاً.. ولا حتى على التدرج الزمني والعصور والعهود.

وهذا التنقل أو الاختلاط في النماذج والشخصيات يدل فعلاً على أن كتابه كان في بدء أمره ورقات على شكل تقيدات كما أشار في سطور مقدمته، وقد حصر اهتمامه وجذب انتباهه في هذه الدائرة.. تقيد كل ما وجد نموذجاً أو شخصية أو خبراً عن رجل من طرابلس.. بادر بتسجيله ونقل ما كتب الناس عنه، حتى حصل على هذه المجموعة.

ومع هذا.. أو رغم هذا.. فقد غدا كتاب النائب على علاته ومآخذه.. مصدراً من المصادر التي تهم المؤرخ بشكل ما، سيما ما يتعلق بالحركة العلمية والصوفية في تلك الأعصر الخوالي وفي ثناياه وزواياه ومن بين سطوره يستطيع أن يخرج الباحث المتأمل والفاحص المدقق بكثير من الملاحظات والفوائد.. وعديد من النقاط التي تصلح للبحث والدراسة، في مجال التاريخ الأدبي. بل وحتى التاريخ السياسي والاقتصادي أحياناً.

* * *

وبلغت تراجم الشخصيات والنماذج التي اهتم بها إحدى وثلاثين ومائة (131)، . بدأها بالصحابي الجليل ـ سيدي منيذر ـ وختمها بالصوفي أبي الحسن السيقاطي.

وقد أشار كثيراً إلى رحلة مواطنه وصهره ظافر المدني ومن منقولاته عنها وترجمته لنماذج مأثورة من هذه الرحلة النادرة المفقودة:

أحمد بوقطاية

محمد بن علي السمقلي

عبد الحميد ضو الهلال

أبو البشت

إبراهيم العوسجي

عمر القروي

الكمودي

فقد نقلها من الرحلة الظافرية إلى النفحات وأيضاً أشار إليها في كتابه المنهل.

* * *

ومن حب أحمد النائب لوطنه طرابلس وتلهفه على كل ما يتعلق بهذا البلد من بعيد أو قريب. . أضاف إلى بلده عن حسن نية، وبأسلوب اللهفان المتعجل حتى من لم يكن منها أحياناً. .

وقد جانبه في بعض المواضع التحقيق العلمي. . مثلاً. . هو يسوق في كتاب نفحات النسرين أبياتاً قالها أبو الطيب أحمد المتنبي ويجد المؤلف في القصيدة كلمة طرابلس فيظنها طرابلس الغرب فيسوقها. . مع أن المتنبي يقصد في قصيدته طرابلس الشام[1].

* * *

(1) ص 63 نفحات.

وقد خلط في كثير من الأسماء وكان يعطي الجنسية والهوية بلا حساب ولا حسبان مثلاً يضيف عبد الله الأجذابي بالذال المعجمة وأيضاً ص93، عبد الرحمٰن الأجذابي المؤرخ يأخذه من كتاب معالم الإيمان، وأيضاً أبو جعفر أحمد بن خلف الأجذابي ـ ص96، وأبو عبد الله الحسين الأجذابي ص102 ـ وهم الجذامي. . ولكن يضيفهم إلى إجدابية بلا بحث ولا تمعن، حتى ابن شرف ومصاولته في الأبيات المعروفة المتداولة وقد راسل بها من صقلية والقيروان. . يضيفه بكل جرأة إلى طرابلس. .

على أنه لا يوجد مصدر أشار إلى هذا إلا حضرة النائب فهو يأخذ بتلابيب الغير بدافع حب وطنه. . والحب وحده غير كاف في الدراسة والإضافة العلمية.

وقد سار على هذا كثرة من الكتاب بلا تمعن في بلادنا مثل صديقنا الشيخ طاهر الزاوي في إعلامه. . ولعل النائب كان سبب هذا المجرى. . ولعل النزاع على الأفغاني وقبله ابن سينا شيء معروف في الدراسات التاريخية والعلمية.

* * *

ومن الملاحظات أو أوجه الشبه والمقارنات بين أحمد تيمور المصري. . وأحمد النائب الطرابلسي:

كلاهما من أسرة محترمة لها باع في الإدارة والثقافة.

النائب وفد أجداده من بلاد الأندلس.

أحمد تيمور من سلالة وافدة من تركيا وبلاد الأعاجم الإسلامية.

حب الآثار والتحف والمخطوطات.

جمع الكتب وتكوين مكتبة.

وكلاهما أصبحت مكتبته جزءاً من مكتبة عامة.

تحتل مكتبة أحمد تيمور جانباً من دار الكتب المصرية.

كانت مكتبة أحمد النائب تحتل جزءاً من مكتبة الأوقاف.

الشغف إلى حد الوله بالأعلام العلمية والشخصيات والترجمة لها.

ألف أحمد تيمور «باشا» أعلام القرن الثالث عشر.

وسبقه أحمد النائب الطرابلسي وكتب عن أعلام بلده نفحات النسرين والريحان.

وإن كان أحمد تيمور خص قرناً أو فترة وترجم لمعارف له وشخصيات معاصرة.

فقد كان أحمد النائب أكثر شمولاً واستفاضة نسبياً وهناك أوجه مقارنة أو نقاط تلاق ونقاط تمايز بينهما ولكن يجمع بينهم حب الآثار والتاريخ والشخصيات الإسلامية في رحاب التراجم والسير.

* * *



فتح العليم

وعبد السلام بن عثمان التاجوري

وهذا كتاب يدخل في عداد كتب المناقب، ويأخذ مكانه في مكتبة التراجم والسير رغم ما فيه من المآخذ والمبالغات التي يجد فيها الناقدون والمحققون المجال الخصب والساحة الفسيحة. ألفه عبد السلام بن عثمان ابن عز الدين التاجوري، والذي سبق أن أشرنا إلى كتابه «الإشارات» وعقدنا له فصلاً في كتابنا[1] هذا. وكان يجب أن يكون مكانه في ترتيب الفصول وتسلسل الموضوعات هناك مع الفصلة الخاصة به وبكتاب الإشارات، غير أن كتابتنا لهذا الفصل جاءت بعد طبع الفصلة الخاصة بالتاجوري وكتابه الإشارات.

ولئلا يخلو الكتاب من التنبيه على هذا الكتاب الذي يعد من أبرز ما ألف عبد السلام بن عثمان في مجال التراجم والمناقب... أثبتناه هنا..

والمؤلف كما وضح من خطة سيره وتناوله لفن السير هو من أهل الطرق والمنتمين إلى المتصوفة في عصورها المتأخرة.

وكان له بجانب ذلك جانب من الدراسات أو المحاولات الفقهية وغيرها من المجالات التي كانت تطرق في عصره!

---

(1) ص 87.

غير أن نشاطه في ميدان السير والمناقب وتواريخ الأولياء والمتصوفة أخذ أكثر اهتمامه. . وعنايته.

وقد تعرضت آراؤه وبعض مؤلفاته لنقد علماء من عصره من أهل الفقه والتشريع. .

وكتابه هذا «فتح العليم» يتعلق بتاريخ وسيرة رجل صوفي. . كثرت حوله الآراء. . من معجب إلى حد المبالغة والتقديس، ومريد إلى حد التفاني والذوبان. . والمبالغة في التكريم والأعزاز. . وإلى ناقد رافض إلى حد الإثارة. . ويهمنا هنا في هذا الحيز من الكتاب وهذا الموضوع هو الجانب المتعلق بكتاب السير والتراجم أو المناقب أو الصوفية في إطار التاريخ. .

وهذا الجانب التاريخي. . أو التسجيلي. . والوثائقي. . هو ما يلفت الدارسين ويهم الباحثين ويدخل عبد السلام بن عثمان وأمثاله في عداد المهتمين بنوع من أنواع المناقب والمواد التاريخية.

لقد كان عبد السلام بن عثمان سارداً. . ناقلاً. . للمشافهات. . والمنقولات والمتداولات من زخم المرويات المتعلقة بالشخصية التي خصص لها كتاباً مستقلاً وسفراً خاصاً. . ولم يكن الكتاب الوحيد ولا السفر الخاص الذي خصت المكتبة التاريخية المنقبية في ليبيا به هذه الشخصية الصوفية. . ذات الإثارة. . والتأثير. . سواء سلباً أو إيجاباً. . فهو كاتب يجد كتباً سبق أن قدمها المحبون والمريدون. . بأسلوب الإعزاز والتقديس.

وبمقدار اهتمامنا بهذا، من الناحية الاجتماعية والتاريخية، كنا نود بدافع من الروح العلمية والبحث أن نعثر بجانب هذا على أنواع من الكتابات والمنقولات التي كانت تمثل الجانب الآخر. . فبلا شك. . شخصية صوفية لها مداها وعمقها وأجواؤها لا بد وأن كتبت عنها أشياء بنظرة أخرى. . ومن زاوية أخرى!

لكن إلى حد الآن. . لم يصلنا. . مخطوطاً. . أو مروياً. . مشافهة أو مطبوعاً إلا جانب واحد. . ومجال واحد. . هو ما صوره تلامذته ومريدوه أمثال

البرموني وعبد السلام بن عثمان ومن على منهجهم. ولعل الأيام.. رغم شحها العلمي هنا.. قد تجود بشيء من هذا لتكتمل الصورة أكثر وتتضح معالم الكتابة المنقبية في عالم السير وإطار التاريخ الاجتماعي.. أو المسار الثقافي.

* * *

لقد وجد المؤلف الطريق أمامه سهلاً ميسراً وهو الذي عاش في هذا الجو الصوفي المشحون بمثل تلك الهالات..

عنوان الكتاب مسجوع: «فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام ابن سليم».

ويقول في مقدمة الكتاب:

«.. هذه وريقات قيدت فيها بعض كلمات الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري الطرابلسي.. نفعنا الله به آمين. وبعض كرامات البعض من صالح أتباعه، مما بلغنا من أناس متعددين أو عن ثقاة معتمدين، أو شاهدت من بعضهم بالعين والله أسأل أن ينفعني بها في الحياة الدنيا، وبعد الممات، وأن يخلص لي فيها النيات بجاه سيدنا محمد وأصحابه الثقاة وسميتها «فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم» اهـ.

فمصادره في هذا الكتاب أو هذه الوريقات كما أطلق عليها:

1 ـ ما بلغه من أناس متعددين.

2 ـ ومن ثقاة معتمدين.

3 ـ أو أشياء شاهدها.. فأثبتها.

ونسي أن يذكر في المقدمة هذه أنه أيضاً نقل من بعض الكتب التي كانت موجودة ومكتوبة في هذا الموضوع قبلاً.

ولعل مما يثير الانتباه في مقدمته هذه التي لم تخلُ من تركيز أنه أشار إلى منهجه واهتمامه بالأسلوب المبسط والتعابير الجارية السارية بعيداً عن التفاصح

وأساليب التقعر في اللفظ، وهذا المنهج يلاحظ في أغلب الكتب التي كتبت في عالم المناقب وما يتعلق بالمتصوفة والمتدروشة لأن غالبية المهتمين بها من العوام ومن الذين لا يهتمون بالأسلوب والفن الكتابي كثيراً. . وشأن هذه الكتب التي كانت تقدم في العصور المتأخرة كان مركز اهتمامها وقصدها. . انتشار الأفكار الصوفية والأشخاص أو الشخصيات التي يدافعون عنها ويحوطونها بهالات من المبالغات والتقديس وكان المقصد كما أشار هو كثرة الانتشار. . وكثرة التأثير بقطع النظر عن الأسلوب الفني. . ويقول في المقدمة:

(. . واعلم أني لم أشتغل بالتفاصح في عبارة مما كتبت في هذه الأوراق بل اقتصر غالباً على ما يبرز من العبارة أول القدر بحيث أني لا أغيره إلى أن يظهر لي أن غيره أوضح في تأدية المعنى» اهـ.

وعبد السلام بن عثمان في منهجه هذا يقتدي متأثراً بكاتب آخر من كتاب السير والمناقب الصوفية هو عبد الوهاب الشعراني. ويقول الكاتب في مقدمته إنّه قرأ كلمة لعبد الوهاب الشعراني «إنّا إذا ألّفنا كتباً لا نبالغ في تعظيم الألفاظ ولا في مراعاة جلاء تركيبها».

ولو اقتصر الشعراني على سوق هذا. . لكان في مضمون السوق دلالة. . لكن المبرر من طرفه كان طريفاً غريباً. . أليس عجيباً أن يكون المبرر والدافع لبساطة الأسلوب على حد وزعم عبد الوهاب الشعراني. .

«. . . هروباً من مضاهاة كلام الله في الفصاحة والتناسق وخوف وقوع الإعجاب بذلك فيهلك أحدنا ولا يشعر».

وندع كلام الشعراني هذا. . ونجد المؤلف الطرابلسي يدلنا على تبرير الشيخ الصوفي على الخواص الذي ساقه المؤلف في مقدمته. . هو تبرير أقرب إلى المعقول المستساغ هي قضية تبرير الكتابة بلغة السهولة. . أو مخاطبة العوام وأشباههم. . وهو نص ذو دلالة وأهمية. .

«. . ينبغي للعالم إذا ألف كتاباً أن ينزل في العبارة حتى يفهم كلامه أدنى العوام لأنّه أكثر نفعاً» اهـ.

وعلى هذا التبرير. . وبذلك المنهج سار عبد السلام بن عثمان في كتابه هذا بأسلوب أقرب إلى العامية والكلمات الدارجة أو الدوارج من القول. .

وسواء كانت خطة مسيرته في كتابه بدافع النزول إلى العامة وأشباههم. . وتنازل في أسلوبه قصداً. . أم كان ذلك هو كل ما في إمكانه واستطاعته ومستوى أسلوبه هو هذا. . كما يرى بعض من كان ناقداً لكتابه تذييل المعيار. .

سواء كان هذا. . أم ذاك. . فقضية الأسلوب لا تبعدنا عن استعراض فصول ومضامين الكتاب!

وقد رتب كتابه أو تقييداته على:

ـ مقدمة في بعض تعريف به وبقبيلته ونحو ذلك ويذكر في صفحاتها أسرة عبد السلام الأسمر ومنشأها.

ـ وثلاثة أبواب.

ـ وخاتمة.

ـ **الباب الأول**: في ذكر شيء من مناقب عبد السلام الأسمر.

ـ **الباب الثاني**: لعله أكثر أهمية بالنسبة لهذه الشخصية الصوفية التي دار حولها القول كثيراً تأييداً ومعارضة. . وإثارة. .

حتى إنهم أضافوا إلى صاحبها كثيراً مما لم يقله. ونقلوا عنه كثيراً مما لم ينقله. . وهذا الباب قد يهم الدارسين لهذه الشخصية ذات الأقوال المتماوجة. . باب عقده المؤلف لنقطة ذات أهمية.

«في تبرئته من كثير مما تلبس به بعض المتسببين إليه» الخ.

ووصيته وأحزابه.

ـ **الباب الثالث**: في ذكر بعض من اشتهر بالصلاح من أولاد عبد السلام الأسمر وأبنائه.

وهذا الباب يتشعب إلى ثلاثة فصول.

ـ الفصل الأول: في ذكر ما بين المؤلف وبين الأسمر من المشيخة.

ـ الفصل الثاني: فيما بين المؤلف والأسمر من النسب.

ـ الفصل الثالث: فيمن شهر بالصلاح من أولاد الأسمر وأتباعه غير من أشار إليه، وفي خاتمة الكتاب ذكر المؤلف مشايخه من الفقهاء ومن الأساتذة الذين تلقى عنهم وجلس إليهم ومن أخذ منهم والذين عاصرهم من الذين رآهم جديرين بالتسجيل والتقييد.

وهي سطور تعتبر رغم بعض الملابسات والمآخذ ـ من وثائق التاريخ لا تخلو من مادة أو دلالة أو إشارة وقد تكون فيها أشياء يفتقدها الباحثون عن مصادر لتلك الحقب الغامضة الموغلة في الاضطراب والغموض..

وهو هنا أيضاً يؤرخ أو يقيد معلومات وحقائق بشكل ما ـ عن من عاصرهم ـ و«تأنس بوجودهم» على حد تعبيره.

وهذا الفصل فعلاً هو ألصق أو أكثر التصاقاً بالتاريخ لتلك الفترة ولعله من أخصب فصول كتاب «فتح العليم».. من الناحية التاريخية.

لأن عبد السلام الأسمر شخصية كتب عنها المريدون المعاصرون وغير المعاصرين كثيراً.. ونقل هو ما كتبه غيره وأن أضاف أشياء، لكن الذي فيه جدة أو فيه ما ليس إلا به.. هو كتابته عن أشياء شاهدها وعاصرها.. أو هو.. راويها الوحيد وناقلها الأمين..

هذه المواد والمعلومات تعتبر لدى أصحاب الدراسات والاهتمام أكثر فائدة وعائدة..

وهو يورد في ثنايا كتابه فقرة تدل على اهتمامه بالمراجع التاريخية وتتبعها..

«... رأيت في سفر عند بعض المغاربة مؤلفاً في ذكر أشراف المغرب ـ لم أعرف مؤلفه ـ ما نصه» الخ.

وساق عبد السلام بن عثمان التاجوري النص الذي يثبت به سلسلة نسب عبد السلام الأسمر وصلته بالأشراف.

* * *

وقد يثير قضية شغلت بال المتصوفة والفقهاء ردحاً من الزمن. . وكانت في بعض الحالات والأوساط موضوع صراع عنيف بين أهل النص والنقل من جانب. . وبين أصحاب الرأي والاجتهادات من جانب آخر. . يعقد عبد السلام بن عثمان فصلاً يستشهد فيه بكلام منسوب إلى سيدي أحمد زروق في الاعتقاد والانتقاد ينقله من خاتمة شرح زروق لحزب البحر. . ومن المؤكد جنوح عبد السلام بن عثمان وأضرابه إلى تكثة المنقولات والمرويات الغيبية.

وعندما تقرأ مستعرضاً ما شحن به كتابه هذا من ذكر خوارق العادات والأمور العجاب، يستغرقك الاستغراب. . وترفض هذا لمنافاة الكثير منه لنصوص الشرع وروح التشريع. . ومنطق الفكر. . وحقائق النقل. . النقل الشرعي. . والمنطق التشريعي، وتؤكد صدق موقف العالم الناقد والمؤرخ الحصيف المتحرر ابن غلبون عندما تصارع مع النعاس التاجوري وأمثال هؤلاء ودفاعه عن روح الشرع ومنطق التشريع. . في صراع كان صورة من الفكر المستنير. .

* * *

ومن اللقطات التاريخية التي يشير إليها. .

«كان بناء الشيخ «عبد السلام» للزاوية سنة واحدى وسبعين وتسعمائة ـ 971هـ 1562م وأشار أيضاً إلى تحديد وفاة الشيخ. . الأحد 1 أكتوبر 981هـ 1573م.

ويشير إلى معارضة بعض الولاة الأتراك للأسمر وجماعته.

مثل محمد باشا. . وعثمان باشا وغيرهم.. لكن شأن إشارته هي مقتضبات بلا تفاصيل ولا إشباع للموضوع. . مع أن خيوط النزاع مع هؤلاء ذات أهمية. . هل كانت لقضايا فكرية أم اقتصادية. !؟ أم ذات طابع سياسي قد يكون أبعد بعداً مما تصور كثرة من أهل المناقب ومن المؤرخين؟

هي علامات تساؤل. . تبعثها إشارات هؤلاء اللاهثون وراء المناقب والتراجم!

وفي الكتاب بطبيعة تكوين الكاتب واتجاه الكتاب موضوع البندير والطار والدف وما يتصل بهذه الشؤون والشجون التي كانت قضايا ذات أعماق هزت المجتمع طويلاً. . وأخذت من جهده كثيراً. .

وهي صورة من نزاع المتصوفة والفقهاء في مدارس المشرق والمغرب ليست أوان ذاك جديدة على المجتمع الليبي بل وفدت إليه منذ فترات من المشرق ومن المغرب الإسلامي. . ولكن زادت حرارتها وزاد لهبها اشتعالاً وصراعاً. . أيام هذه المدرسة أو هذا الاتجاه الصوفي ويكون من المدافعين ومن المغالين في الدفاع صاحب كتاب «فتح العليم».

ويسوق لوناً من مبالغات الظواهر. . أو خوارق العادات. .

حتى أن أحد المواطنين ـ علي بن تليس ـ مجرد كرامة من الفواتير تجعله صاحب تصرف وإدارة وثروة. . ثم غضبة لاهبة لتصرف سيء جعلته وما يملك أدراج الرياح.

قد لا تقبل هذه الرواية بحذافيرها. . خاصة إن وضعت على محك المنطق والفكر. . لكن من جانب آخر لها من جانب التاريخ الأسماء. والأماكن. . والفترة الزمنية التي أشار إليها عبد السلام بن عثمان وأمثاله. . فقد يجد فيها الدارسون الموضوعيون والاجتماعيون أشياء أخرى وجوانب لها في دهاليز التاريخ ملامح وبصمات. . إنها إشارات قد تكون أبعد من تاريخ التصوف وشطحات الغيبيات وتهاويل المبالغات. . من ثنايا الركام هذا قد يستدل أو يجد المؤرخ أشياء. . وأشياء. .

* * *

ورغم سوقه لبعض الخرافات والأساطير التي ترفض من طرف المنطق

والشرع إلا أنه أحياناً يثبت هذه العبارة «وسمعت من تبشير الأولياء أكثر من هذا إلا أني لم أثق به والله أعلم».

ليت أسلوب الشك أو التريث لازمه في كثير من الأحيان. . كان حينئذ يقلص عدد صفحات كتابه أو تتداخل فصوله على أسلوب علمي منهجي، ولكنه ساق حكايات من المرويات المتداولات. . والتي تعج بها أحاديث الناس وبعض من المتصوفة في عصور الركود الفكري. . وغيبية منطق الفكر. . أشياء تتعلق بطي المكان. . وطي الزمان. . وليس الكاتب هذا وحده. . بل هي موجات غصت بها كتب المناقب والتراجم على هذا المنوال. . ولعل القسط الأوفر كان للإمام عبد الوهاب الشعراني وغيره من متأخري المتصوفة وكتبة المناقب والسير.

ويشير المؤلف في كتابه هذا إلى اهتمامه وعنايته بتاريخ الشيخ الأسمر مشافهة وتحريرا. . وترد من بين سطور الكتاب هذه الكلمات ذات الدلالة والإشارة.

«. . . أتاني بعض الإخوان بتقييد من تونس سنة تسع وثمانين وألف (1089هـ ـ 1678م) ذكر أنه قيده من كتاب لبعض من كتب دلائل الخيرات من علماء فاس، وفيه ذكر سيدي أحمد بن عروس. .» الخ.

وينقل في كتابه هذا من خط الناقل الأخ في الله سعيد بن سويسي الطرابلسي، معاصر له. . ومن أصحابه، ويشير إلى نقطة منهجية تتعلق بالصوفي ابن عروس بأنّه لا تناقض في هذا التقييد وما أشار إليه فتح الله في كتابه الكبير الذي عرف فيه بوالده.

وهو بتاجوراء. . أي الكتاب يقول «رأيته وطالعته فيه» الخ.

ويبدو أن هناك أكثر من حافز أو دافع لكتابة أو تقييدات هذه السيرة ذات الإطار الصوفي. . فهو يشاهد كتباً ألفت في سيرة شيخ شهير من تونس وبلاد المغرب فلماذا لا يؤلف على نسقه!؟. . ويبدو أنّه كان في كتابه هذا مقلداً

ومقتدياً أو متأثراً بكاتب للتراجم والتواريخ الصوفية هو ابتسام العروس ووشي الطروس في مناقب أحمد بن عروس تأليف ـ عمر بن علي الجزائري الراشدي ويقول عبد السلام بن عثمان:

« . . . . وكرامات هذا السيد «الأسمر» كثيرة جداً، وقد كنت «ترددت في كشفها على سبيل التعداد كما الجزائري في مناقب أحمد بن عروس وغيره كالإمام اليافعي . . ثم رأيت أن ذلك مما يطول ولا يفي بالمأمول فاقتصرت على ذكر شيئين مما صح لي إما بفشوه ـ (يقصد انتشاره وذيوعه) . . أو بنقله عمن وثقت به من غير تعداد) اهـ.

ويبدو أن النزاع مع أولاد الشيخ وعثمان باشا الوالي التركي من أجل قضايا الخراج والضرائب. ويشير إلى موضوع آخر له أكثر دلالة وعلامة على بعض المنعرجات التاريخية، فالخصومة بين هؤلاء المتصوفة أو من يلوذ بهم تؤدي إلى مشقة السفر إلى القسطنطينية وشكوى تقدم ضد الوالي . . في اقتضاب يشير إلى هذا وهي أمور تاريخية كانت أولى بالبسط والإفاضة من الغيبيات والمرويات التي أفاض فيها . . نقلاً وسماعاً . . وتكراراً وقد يصل إلى حد الأملال.

ورغم تحامل المؤلف في كثير من سطوره على الأتراك واهتمامه بالإشارة إلى النزاع بين الوالي التركي وأبناء الشيخ الأسمر وحكام ذلك الزمن بسبب الضرائب والفروضات لأن هؤلاء وأنواعاً أخرى من الطوائف كانوا يتمتعون بالاستثناء من الفرائض الضريبية والمكوس الحكومية.

ورغم كل هذا هو في بعض سطوره هنا يدافع عن شخصية كان لها آثارها . . وتأثيرها في تاجوراء . . هي شخصية المجاهد البطل المسلم مراد «باشا»، ولعل هذه السطور والصفحات التي ساقها تدل على إنصاف الرجل المجاهد الذي بنى لله مسجداً وللناس مدرسة . . ودافع بصدره عن البلاد أيام غزو القراصنة من لصوص أوروبا ففي صفحة 70 من المخطوطة:

« . . . مع أن مراد آغا كان فيما بلغنا من أمثل أهل زمنه بل هو أمثل من ولي طرابلس من الأتراك وآثاره دالة على ذلك ـ كبناء الجامع الأعظم بتاجوراء

الذي ليس في وطن طرابلس أحسن ولا أتقن قبلة ولا أصح قبلة منه، وكفاه المدرسة التي بإزائه وإيقافه عليها، التي لولاها لانقرض اسم العلم من تاجوراء رأساً. . وهي منذ أسست مأوى للصالحين واحداً بعد واحد كسيدي عبد الرحمٰن النعاس، وسيدي أحمد محمد حزاب وسيدي أبي راوي. . وغيرهم.

وهي آنس المواضع بتاجوراء بعد محل سيدي محمد الأندلسي إذا دخلها إنسان لا يكاد يجد هماً في باطنه، ويتسلى من أكثر هموم الدنيا إلى غير ذلك من محموداتها التي تدل على حسن نية صاحبها. . وأهل تاجوراء يذكرون عنه حكماً وأخباراً تدل على عقله وصلاحه) اهـ.

ولم يكتب أحد من كتاب ليبيا عن البطل مراد في تلك الفترة مثل ما كتب عبد السلام بن عثمان. . بهذا الوصف والأسلوب. . فقد أنصف رجلاً يستحق الإنصاف.

ولعل من أبرز مظاهر هذا الكتاب. . ومن أهم فوائده ـ بجانب اللمسات الاجتماعية والاتجاه الفكري. . سلباً. . أو إيجاباً. . ـ ما قدمه هناك في آخر كتابه من ترجمة ذاتية لنفسه. . ومعلومات تاريخية عن أساتذته وحديثه بأسلوب مبسط عن وسائل الدراسة وأيام مراهقته وشبابه حتى تكاد أن تكون تلك الفصلة من تاريخ التعليم والتربية والمنهج الصوفي دراسة مستقلة.

أو هي في المكتبة التاريخية وفن السير والمناقب في ليبيا من بوادر كتابة الاعترافات أو الذكريات التي هي ـ بلا شك ـ تعد من المواد والأسس التي تحتل مكاناً في دراسة السير والتاريخ وإن كان قد سبقه في هذا المضمار ـ وليس ببعيد عهد عنه ـ محمد علي الخروبي. . كما سبق أن أشرنا في الفصلة التي خصصناها[1] له، وهنا أيضاً. . يترجم عبد السلام بن عثمان لنفسه في أواخر كتابه (فتح العليم) وهي حقائق تاريخية ومعلومات ذات قيمة وثائقية وليت كثيراً

(1) ص 34 من هذا الكتاب.

من المؤلفين صنعوا هذا.. إذاً لوفروا على الدارسين، والباحثين والمؤرخين كثيراً من المتاعب والمشاق في ميدان السير والتراجم.. لتلك الفترات الغامضة المتماوجة الحوادث، ويبدو أنه متأثر في تسجيل وتقيد الذكريات الخاصة به وبأسرته وبأساتذته.. بالكاتب الصوفي الأستاذ محمد علي الخروبي ومتأثر أيضاً في اختيار الموضوع والمنهج وتقييد هذه الذكريات والمعلومات الشخصية بالأستاذ كريم الدين البرموني المصراتي ويكون في دائرة الذكريات وتاريخ أسرته ومشايخه والمعلومات عن أحواله وأطواره ثالث المؤلفين على هذا النمط.. في بلده وعصره ومحيطه الثقافي آن ذاك..

إن لم تكشف لنا الأيام والبحوث عن آخرين من السوابق أو اللواحق في هذا المضمار.

ولعل من المناسبة أن نذكر هنا أن خير من ترجم لنفسه من المؤرخين العرب العملاق النابغة عبد الرحمٰن بن خلدون فقد ألحق بآخر تاريخه الكبير سيرته الذاتية التي كتبها بنفسه وسماها رحلة ابن خلدون وهي في الحقيقة تاريخ لعلائقه السياسية وترجمة لكل من اتصل بهم من العلماء والمشايخ والشخصيات والأمراء الخ.

ولا نريد أن نضع عبد السلام بن عثمان في مصاف أو مدرسة أو منهج عبد الرحمٰن بن خلدون.. فهذه منزلة لا يصل إليها أسلوب أو منهج ابن عثمان ومن في صفه.. إنما نلحظ هذه الناحية من جانب الاهتمام بالترجمة الذاتية وكتابه تاريخ المشايخ والأساتذة والمحيط العائلي ولعل عبد السلام بن عثمان طالع ما كتبه ابن خلدون عن أهله وأساتذته أو من الأقرب طالع ما كتبه الخروبي والبرموني وأمثال هؤلاء.

* * *

وكان مولد عبد السلام بن عثمان كما سجل هو بنفسه في آخر كتابه سنة 1058هـ 1648م.

والدارس لكتاب «فتح العليم» يلحظ أن الفوائد التاريخية والحقائق

الاجتماعية ونقاط السير والمناقب يكتنف كل ذلك أكوام مهولة من الأساطير والخرافات.. والمبالغات.. والمرويات التي لا يمكن أن تقبل على علاتها.. أكداس من خوارق العادات والكرامات من ألوان شحنت بها كتب الأواخر في العصور المتأخرة وهي من أنماط تأثيرات كتب المتصوفة والمتدروشة في تلك الأعصر.. وهو يسرد أو ينقل أشياء عن فقراء المتصوفة وأولاد الشيخ.. وأشياء كثيرة بالنظرة الموضوعية.. وفي مقياس التشريع ترفض ولا تقبل.. لكن كمواد تاريخية. ووثائق اجتماعية قد يجد فيها الدارسون والمؤرخون مواداً.. ونقاطاً.. وسطوراً ذات أهمية.. رغم ما فيها من غرائب التصوفات والعادات.. التي ألصقت بالفكر الصوفي.. وقد يكون الفكر الصوفي منها براء.. وهو في كتابه يسوق كثيراً من الحكايات والمرويات مما يتعلق بطي الأرض.. وطي الزمن.. أمور أو قل أساطير وخرافات شحنت بها كتب المناقب في حاجة من الناحية الاجتماعية والتاريخية إلى دراسة على منهج الغربلة والتصفية قد يكون نقلها من طرف المؤرخين في تلك الأعصر هو بدافع القداسة والرهبة.. أو بدافع السطحية والضحالة الفكرية.. وقد وجدت معارضة ولون من الصراع من طرف بعض الكتاب والشيوخ.. لكن وصل إلينا الكثير من طرف أهل المناقب والنقولات.. ولكن لم يصل إلينا إلا نزر يسير من الطرف الآخر.. ولكن مع كل هذه التموجات ما زلنا نؤكد أنها رغم كل شيء هي مواد أو أكداس فيها جوانب من الحقائق وصور من حياة المجتمع في تخلفه وترديه أو في ضموره وإبداعه.. وها هو في كتابه يذكر رؤيا الشيخ وكراماته وهيامه وشطحاته الصوفية من أمثال هذا النمط ويبدو أن الرؤيا والرحلة اللاشعورية ـ إن صح التعبير ـ كانت أيضاً من قيودات وتسجيلات تلك الحقبة.. فهو يقول (واعلم أني رأيت من هذه الرؤيا ـ أي كتاب ـ نسخاً عديدة ولكن لم يحضرني جين الكتب إلا نسخة فيها من كثرة التحريف ما ألجأني وإن كنت حريصاً على نقل ألفاظ الشيخ إلى العدول إلى المعنى.. أو الإسقاط في قليل من المواضع لعدم وثوقي من صحة النسخة بأنه من لفظ الشيخ).. اهـ وأما من ناحية

المضمون والموضوع فهو من قبيل ما أبدينا رأينا فيه. . لكن هنا نلاحظ المنهج الذي سلكه كاتب هذه السيرة والمناقب إزاء النسخة التي عثر عليها.

- حريص على نقل ألفاظ الشيخ.
- العدول إلى المعنى أو الإسقاط.
- عدم وثوقه من صحة النسخة
- وهنا سؤال يتبادر أو يتزاحم مع عدة أسئلة!

ترى هل هو في كل ما نقل من خرافات وأساطير كان واثقاً من صحة ما نسب إلى صاحبه!؟

هنا لدى الدارسين نقطة ذات أهمية في فن التراجم الصوفية الملآة بالشطحات والتخيلات. . قد تصل إلى حد تصور المحال أو الأمر الخارج عن نطاق التشريع الأصيل.

وهذه الإشارة التي ضاعت في زحام السطور قد تدل على رغبته في التثبيت والتأكد من صحة نسبة الأقوال إلى الشيخ الذي خصه بكتاب وسيرة خاصة.

وهذه الإشارة أو الرغبة نقطة ذات أهمية وجديرة بالملاحظة ولكن. . . . مع الأسف لم يستمر في منهج التساؤل والتشكيك بل نقل ما سمع أو ما قرأ. . وما كان يتداوله العوام وأشباه العوام ونقل رؤيا الشيخ التي كانت على ما يظهر رسالة أو نسخاً متداولة في جيله. . وما بعد جيله!

ويسجل تاريخ بناء الزاوية. . كانت سنة إحدى وسبعين وتسعمائة هـ وكانت وفاة عبد السلام الأسمر يوم الأحد في شهر أكتوبر 981هـ ولكن هل يعقل أو يقبل مثل هذا الكلام!؟

(. . أمر يوم موته بالمنادي أن ينادي على رؤوس الأشهاد بأن من رآني ورأى من رآني إلى تسعة وعشرين جد حرمه الله على النار. . » اهـ النص. .).

ونقول هنا: هل يقبل الشرع مثل هذا الكلام. . وهذه ميزة لم تكن حتى للأنبياء والرسل الكرام.

ورفض هذه المنقولات عقلاً وشرعاً . . لا يحتاج إلى دليل أو تعليق لكن الغريب العجيب أن يسوق صاحب السيرة والمناقب هذا الكلام ويثبته في كتابه . . وهي صورة من العقلية التي كانت تزخر بها مؤلفات المناقب والتاريخ الصوفي وعند بعض المقاطع يتشكك المؤلف مثلاً .

(وأما قوله: يا ماشي للشرق: يا منادي الأبعاد . .

والشيخ إذا اندفن ظهر . . الخ . . فلا أدري أهو كلام بعض أصحابه على نمط كلامه)؟ اهـ.

ليته سار على هذا التشكيك فأكثر ما أضيف إلى هذا الشيخ من كلام أصحابه وأتباعه .

ثم يعود الكاتب في فصوله السردية والنقلية إلى نوع من التريث أو محاولة التلافي بعد طول إغراق وطواف فيعقد فصلاً يحاول أن يبرئ الشيخ من كلام نسب إليه (الباب الثاني من تبرئته مما تلبس به كثير من المتسبين إليه) وهو نص كان بودنا أن يكون فيه أكثر جدية واهتماماً . . ولكن طرقه طرقاً خفيفاً . . أو سطحياً وهو يقول (. . اعلم رحمك الله وإياي أن الشيخ رضي الله عنه كان لا يخالف الشرع في شيء أصلاً . . بل كان واقفاً على آداب الشريعة في جميع أموره . . وشاهد هذا في كثير من مقطوعاته وفيما وجد من وصاياه وهي الوصية الصغرى وهو في هذه المحافظة على ظاهر الآداب مخالف لبعض ما ضاهاها من الأئمة الكبار التصرف) الخ .

ويتحدث أو يدافع عن الشيخ وقضية الطار والبندير وإن الشيخ استعمله بشروط وفي أوقات معينة مع اعترافه بأنه ليس من المطلوب شرعاً .

وينتقل الكاتب المؤرخ إلى ضفة التشريع والفتيا ويغلب عليه هنا جانب التحقيق في مسائل الفقه والتصوف أو علاقة بعض التصرفات الصوفية بالأمور الفقهية ويستند إلى كتاب المعيار للونشريسي في بعض النقاط .

وهو في دراسته أو اهتمامه بسيرة صاحبه الشيخ يبحث عن كل وثيقة . .

ويتفحص كل كتاب ولو كان من تأليف عوام أو أشباه عوام. . حتى كتب الكرامات والرؤيا وكانت من مراجع بعض كتاب السير والمناقب. . وإن كانت أقرب إلى فن الأساطير من فن التاريخ على أية حالة.

يشير إلى كتاب جمع فيه صاحبه كرامات مضافة للشيخ الأسمر (كاتبه الثقة الحاج ميلاد أنه اجتمع في حياته عندهم قبل موته بيسير أربع مجلدات كل واحد منها نحو العشرين كراسة كلها مناقب له. . قال الحاج ميلاد بعضها بخطه. . وبعضها بخط غيره كل منقبة مسندة إلى ثقة من الفقراء وغيرهم. .) اهـ.

ومن الملاحظ ضياع كثير من هذه الأوراق والوثائق إما للحوادث والصراع الدامي مع المنافسين أو بعض الحكام أو لشيء لم يشر إليه إلا هذا الكاتب وهي الملاحظات الملفتة للنظر. .

فقد كان أولاد الشيخ يضنون بالأوراق والكتب والوثائق لأكثر من سبب ونستمع هنا إلى هذا المؤلف عبد السلام بن عثمان عندما كان يبحث عن أوراق ووثائق. .

(. . قلت وقد اجتمع عندي كتب كراماته وعقائده ووصاياه على ضن أولاد الشيخ بما يقع بأيديهم منها حتى يأكله السوس. .) اهـ النص.

وشكوى المؤرخين والكتاب من شح وضن بعض الناس بالأوراق ظاهرة ليست جديدة في بعض المجتمعات. .

وكم أضاع الضن. . بمعنى الشح. .

وكم أضاع الظن. . بمعنى الارتياب والشك:

وكم أضاع السوس والإهمال من أوراق ووثائق كانت تكشف لنا الكثير من جوانب السير والتاريخ.

ويقول عبد السلام بن عثمان وهو يؤرخ أو يشير لتلك الفترة ـ قتل المغاربة الذين رئيسهم يحيى الشقي لابنه عمران ونهبهم للزاوية ـ وبلا شك أن هذه المأساة هزت الجانب الصوفي ودعت المجتمع إلى صراع بين اتجاهات مختلفة. .

وتفرقت بعض المصادر والمراجع حتى يقول الكاتب (ذكر سيدي أبو راوي اجتمع برجل رأى مناقب الشيخ في بعض البلدان وأظنه قال بلد غدامس).

ومن مصادر عبد السلام بن عثمان في كتابه هذا ـ مصادر متداولة موجودة لدينا.. ومصادر أخرى أصبحت ضائعة مفقودة!

وأشار أكثر من مرة إلى رحلة محمد بن ناصر الدرعي ورحلة أبي بكر العياشي.. وكلاهما من مصادر التاريخ الصوفي والاجتماعي للبلاد الليبية وغيرها.

ويظهر أن لعبد السلام بن عثمان أكثر من كتاب حول سير وتاريخ الصوفية واتباع الطرق ومن على شاكلتهم فهو يقول عند الإشارة إلى شخصية أحمد مروان ـ (وله بركات وكرامات أشرنا إلى بعضها في غير هذا الكتاب..) ولكنه لم يذكر لنا عنوان هذا الكتاب!

* * *

وأما خاتمة كتاب «فتح العليم» فقد خصها بالترجمة لنفسه وسير دراسته وأساتذته، كما أشرنا: ويقول (الخاتمة اذكر فيها من لقيت من العلماء والصلحاء اذكرهم على الترتيب في تاريخ اللقاء.

ولنبدأ بتاريخ ولادتي.. وابتداء قراءتي...

كانت ولادتي سنة ثمان وخمسين وألف 1058هـ ـ 1648م).

ويذكر شيئاً عن أسرته من طرف أجداده وأخواله.. ومبدء دراسته (أول ما تعلمت الحروف والكتابة عند محمد مكرم التاجوري، علمني على أخوالي في زاويتهم المعروفة عندهم بالموقع المعرف بـ«غودش» من عمل تاجوراء ثم تحول أخوالي وتحولت معهم للشيخ عبد الله الحمروشي، المؤدب ببني عياض من عمل بلد تاجوراء).

... ويحكي عن طريقة أساتذته ومعلميه في وسائل التربية.

«.. ويقول لك بعبارة عامية سهلة على قدر فهمي حينئذ فتعلق معنى كلامه بقلبي في صغري إلى أن كبرت...

... ثم جاء الوالد بأهله وأولاده لتاجوراء فحولني مع أخوتي عند رجل يقال له سيدي محمد عريبي. وكان صعباً جداً.. وليس مثل عبد اللّه الحمروشي إلا أن له اعتناء بحسن الخط كثيراً ومنه تعلمت الاعتناء بذلك...

... ثم جاء طاعون سنة ثلاث وسبعين ففر بي الوالد على عادة بلدهم فنسيت جميع ذلك..».

ثم يذكر فترة تصعلك فيها وكاد أن يضيع بعيداً عن روح العلم فقد كان أقرانه يشربون أو يحومون حول الشرب وغيره من مزالق المراهقة في فترات الفوران الجنسي.. ولكن الله عصمه من التردي وأخطار الجنس كما أشار هو في ذكرياته ولكنه تعلم أو كان يميل إلى لون من الطرب والغناء.. ثم اجتاز هذه المرحلة بسلام وعقيدة صافية وخلق كريم وعاد إلى مواصلة الدراسة وحفظ المتون التي كان لا بد من حفظها في منهج تربية ذلك العصر..

وذهب إلى مدينة طرابلس للدراسة عام 1074هـ ـ 1663م وكان أستاذه هو من أصهاره ـ أحمد المكني ـ وتردد بين طرابلس وتاجوراء إلى عام 1077هـ ـ 1666م لما جلا والده لناحية الغرب.

(.. بسبب القيام الواقع إذ ذاك على عثمان باشا فجئت أنا لزاوية المشاطي..) الخ.

وهي إشارة إلى حركة تمرد ضد عثمان باشا أو انتفاضة شعبية من تلك الحركات التي كانت تتكاثر ضد الباشوات في تلك الحقبة..

ورغم أنه كان مهتماً بتاريخ السير والمناقب والشخصيات الصوفية إلا أنه كان يشير إلى مثل تلك الحركات التاريخية والوقائع إشارات موجزة.. أو إشارات عابرة.. لكن من خلالها يمكن للدارس والباحث المؤرخ أن يمسك خيطاً.. أو يعثر على حقيقة تاريخية من بين الركام وأطلال المبالغات وشطحات أهل المناقب.

والقصد من هذه الإشارات هنا. . والعناية بهذا الكاتب وكتابه هو لفت النظر والاهتمام بكتب المتصوفة وأهل المناقب حتى من الناحية التاريخة فهي من المصادر ذات الأثر في دراسة التاريخ والبحث عن مصادر ومراجع التاريخ بمعناه الحرفي والسردي. . أو بمعناه النفسي والاجتماعي.

* * *

فهو يقول «ولنذكر من اجتمعنا به وأخذنا عنه من طلبة العلم والصالحين مرتباً على حسب التاريخ كما تقدم. .».

ألا يكون هذا من مصادر تاريخ التربية والتعليم لتلك الفترة!؟

وهل لا بد أن يكون التاريخ بمعناه الضيق للقادة والملوك والأمراء. . والسلاطين! إنه تاريخ. . بل من صميم التاريخ. . وإن أهمله كتبة التاريخ!

ويقول «أولهم خطيب جامع الناقة. . الجامع الأعظم بطرابلس ومفتيها أحمد بن محمد بن عبد اللّه المكني التنوخي. .».

. . ومن هذا النص المنطوي في ثنايا هذه السطور يُستفاد أن الجامع الأعظم إذا أطلق في كتب التاريخ والرحلات بطرابلس يراد به جامع الناقة. . وهو نص صريح أكيد. . ويستفاد أيضاً أن الشيخ المكني من أصل تنوخي. . لمن يهمه الأنساب ورحلات العائلات العلمية ونزوحها وتفرعها في الشمال الأفريقي ويشير إلى آل المكني. .

«. . ودارهم دار علم وصلاح منذ سيدي عبد اللّه. . جده سيد عبد اللّه أول من جاء إلى طرابلس لما أن ملك الترك حولوهم لطرابلس وسيدي عبد اللّه هذا هو الذي حمى الله به طرابلس من دخول يحيى الظالم الشقي. . واقتنى عبد اللّه كتباً كثيرة» الخ.

ويفيض في ترجمة أمثال هؤلاء الذين تعرف بهم أما عن قرابة أو دراسة أو سماع ولقاء عابر. . حتى من الزائرين والرحالين وكان مؤلف كتاب فتح العليم معاصراً للفقيه المدرس أحمد بن حسين الشهير بالبهلول. . الذي كان من أبرز

وألمع أدباء وشعراء تلك الحقبة والذي أشرنا إلى أسرته العلمية ومكانته أكثر من مرة كما ترجم في كتابه هذا للشيخ أبي راوي الذي هو من سلالة عبد السلام الأسمر. . والذي كان أكثر اهتمامه بالفرائض والحساب والميقات وما يسمى بسر الحروف والجداول ويقول عنه (. . لا يمر بطرابلس عالم ولا صالح إلا اجتمع معه وانتفع به وغلب عليه من العلوم التصوف والميقات) اهـ مات أبو راوي عام 1088هـ ـ 1677م.

ويبدو أن عبد السلام بن عثمان فرغ من تأليف كتابه «فتح العليم» آخر جمادى الأولى عام 1100هـ ـ 1688م.

ولكنه كما يبدو من بعض النسخ المخطوطة أضاف إليه سطوراً أو ملاحق عن بعض من لقيهم حتى عام 1108هـ ـ 1696م.

هذه فصلة عن كتاب من كتب التراجم والمناقب الصوفية. .

قد تكون ملآة صفحات ذلك الكتاب ببعض الأساطير والخرافات والمنقولات التي قد لا يستسيغها منطق أو فكر تشريعي. . أو أمور قد تجاوزتها المفاهيم والتطورات الحضارية، ولكن سيجد فيها الدارس والمؤرخ رغماً عن كل النواقص والمآخذ مصدراً من مصادر التاريخ والمناقب والسير من هذا الجانب كان الاهتمام بالكاتب الصوفي والإشارة إلى كتابه «فتح العليم» ومكانته في فن التراجم والمناقب.

صـــور مـــن
الوثائق والمراجع



بسم الله الرحمن الرحيم

صفحة من كتاب غدامس ـ لمصطفى الخوجة ـ مخطوطة باريس

كتاب نفح مبارك [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما كتبه العبد [illegible] عبد الله [illegible] [illegible] وبعد

قال [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] قال [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] هذا [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] بساحل البحر [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] الارنب والذيب والثعالب والضباع [illegible]

[illegible] ساحة البحر [illegible]

[illegible] الريح [illegible]

[illegible]

[illegible]

انه نافع عليه ولم يطلع احد علي جميع ما هو [illegible] في الملك [illegible] جملة الا

مع يقيننا [illegible] ايضا كما [illegible] ايضا في الـ[illegible] [illegible] قبل [illegible] بانا وانا

اوليائهما من المشرق في عام ٩٣٢ من بعد الهجرة [illegible]

انتهى ما وجدناه ممن باخبار السالفين وتم نقل حسابهم من غير هذا فتشاهدوا

ما فيه اللهم اغفر لمن [illegible] والمؤمنين واجزهم عنا خيرا وصلى الله

علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم تسليما وارض اللهم عن الاربعة الخلفاء

المصحوبين بالاصطفاء [illegible] منار [illegible] وابيه [illegible]

بكر وعمر وعثمان وعلي وعن اصحابه رسول الله اجمعين وعن التابعين

وتابع التابعين لهم باحسان الى يوم الدين سبحان ربك رب العزة عما يصفون

والسلام علي المرسلين والحمد لله رب العالمين [illegible] انتهى [illegible] من [illegible]

[illegible] وعلي [illegible] السبيل [illegible] اجمعين والله

ما نقول وكيل

ﻫ

وانا كاتبه [illegible]

[illegible] سنة ١٢٢٤ [illegible] الهجرة [illegible] الى اليوم [illegible]

من [illegible] سنة [illegible] [illegible] ابن المناعيسي [illegible]

عفو المساوئ امين

من كتاب أحمد بن عبد العزيز الطرابلسي

من الجبل تسمى الطاحون وبها موالهم ونفوا اياما ثم يوم الاربعاء
وخمسة وعشرون من رمضان سنة ١٢٦٤ خربت كلها من ذلك
المرفع واستولى ابابكر باشا على عموم ثكله وبقامت يفرن ومن حولها
على مدير القصر يوم الاحد ٢٩ من رجب سنة ١٢٤١ بهاميلوح له التابع
سعيد الشقرونة وكان منفيا باستانبول ثم الى وعمل ماهل بعسيريه
وجاءت عليه سدانيه النافيرسطي اتا احمد باشا بمحاولة علنية ونفره الزنتان
والرجبان والربايته بعد منهم يوم الجمعة ٢٨ من شعبان سنة ١٢٤١
ووقع القتال بينه وبين الناس بيفرن بجبسير يوم السبت الموالية
لتلك الجمعة ودخل جبسير ضحوة يوم الاثنين ثاني يوم ٢ رمضان
من هذه السنة اخذ احمد باشا اولاد عم الربايته المعروفين
وخرب قصرهما والبلد وا فزك الاموال بحيث لم يبقى شئ
على اختلاف الوانه وقتل منهم نحو ٥٠ رجلا منهم الحاج خليفة بلقي
وعاد عبد الله رحمهم الله تعالى رحمة واسعة يوم الاربعاء ٢٢ شوال
بعث احمد باشا عساكر لتخريب القصور التي بالربايته والزنتان والرجبان
وخربت بالفعل من اعظمها قصر القواسم الذي بنيت سنة ١٠١٠ ورجح
تاريخه كثل جدنا محمد البربور وهو والد الجروه ١٠ لانه امر احمد باشا
باقامة الحجة بيفرن ببلد الوهبيه بجامع ليشان ويحضر والدنا
الشيخ محمد الازهري ورجعهم للحنفيه كرها عليهم والاسر كما
قال صلى الله عليه وسلم عجب ربك من قوم يقادون بالسلاسل
الى الجنة او كما قال صلى الله عليه وسلم يوم الاحد وخامس ٢٢
نوفمبر سنة ١٨٤٢ ووقع القتال بين احمد باشا وقبائل نجا خرو
وا فنهم ذلك اليوم وخرب قصرهم والديار وقتل العابد حسن
التركي

التركي المملوك اوايل صفر سنة 1259 ببير الكلاب والذين
قتلوه محمد الخليفي السباعي وذلك ان حمدي الصغير كسور
وجهه الوالي محمد امين باشا لغدامس لجمع المال وبيبي
لهم فلم يبلغ المراد اوايل رمضان سنة 1259 بلغ
الغاية عند الرحمان ابو قبه واهله عبد عنه فبلغ
اعدامس لياخذ المال وغيره وعملو عليه الا بسم ربح
وانقطع وهو اول عامل نزل بتلك النواحي ومات
بغدامس او انسطرة الحب سنة 1259 رجعنا للحوادث
الغنيمة غومة بن خليفة بن عون وهو شيخ سوف يبك
العروق لامه وابيه من قبيلة غومة المذكور فقد تقدم
بعثه للسلطان وحبسه هناك ثم انطلق من الحبس
بعد لبث فيه اعواما التي غومة المذكور الى الاجيئة بني
يزيد ومطماطة في واحد وسبعين ومايتان والف والتي
اسي قرى الجبل الغربي اواخر رمضان سنة 1271 وتشرف
معه وكل بلاد التي العطا فرحت به ولم يقع له القتال الا
بالحرابة بقرب صركس ووقع منع القتال قليل ومات
من الحرابة ثلاثة رجال ثم تشرف معه الويعري والكل
هدمت ابيه ووقع القتال بين الحكومة التي بها وخيول
غومة يوم السبت وثاني من شوال سنة 1271 واغلق
القصر المذكور واحاط به الانيا مع غومه المذكور وله حب
ذا بالقايم باشا المحمود بعد نيلان الجبل مع غومه
قصرت امحله عظيمه وكبير العسكر اسماعيل باكشا ورايس

نص

قال في الجزء من ترتيب مختصر مدارك القاضي الشهير أبي الفضل عياض رضي الله عنه

علي أبو الحسن بن أحمد بن زكريا ابن الخطيب ويعرف بابن زكرون الأطرابلسي كان رجلا صالحا متعبدا فقيها ذا فضل وعبادة وعقل رصين وشأن جيد متفننا أوحد في الفقه والفرائض والشروط والرقائق مصنفات كثيرة وله في الرجال والحديث تواليف وكان كريم الأخلاق بمرابطة قصر ... سمع من أبي عبد الله الحيري وابن المنذر وابن رمضان وابن شعبان وابن الأعرابي وابن الجارود ومحمد جماعة من ... روى عنه أبو الحسن القابسي وأبو القاسم بن محرز وأبو علي الحسن بن المثنى قاضي طرابلس وعبدون بن محمد الأندلسي والطليطلي وغير واحد وبه انتفع أهل طرابلس وكانوا يعظمونه فهو من أئمة الفقه والحديث والورع وقام خمسين سنة لم يكشف بابه وتوفي سنة سبعين وثلاثمائة

من مخطوطة نفحات النسرين لأحمد النائب

الحمد لله حمدا يعطي العفو الشكر له على ما لا امر وهو الذي حكم على العباد و
قضى تنفيذ امره وبعد التعبير له على جلاله وجلال الكلام والامتثال من فيض الرجال
على العالم ملك الملك الواحد القهار وانه يرجع من عباده ما يشاء ورجالات
عليهم ويخرجهم من عالم الدنيا الى اسفل السافلين فاني لا ازال احمده دائما
الى يوم القيامة والدين واشكره فانه هو رب العالمين فله الملك وله الحمد واليه
يرجع التدبير وبعد يقول العبد الفقير من خشية الرب الجليل
عبده محمد بن محمد الخليل فاني احكي لكم ما جرى
علينا بالصحيح لا تبديل ولا تغيير فاني احكي الاول اني لما كنت
ابن ثلاث عشرة سنة اتى عمي من مصر الى تبنوا وعندنا
معه الى ارض تبنوا وجعلني مثل ابنه لانه ليس عنده ولد في ذلك الوقت
لاولاد وجعلني في الجامع نقرا في القرآن فلما حفظنا القرآن
جعل لنا عرس عظيم وحجيج في ذلك العرس ملات شاه
من غنم العمار وانبسط جميع اهل تبنوا وفاجوا عندنا
وعمدوا العشا على اجل انا حفظنا كتاب الله القرآن فلما كان
عمري ثماني عشرة سنة ارسلنا عمنا عمر بهدية
الى حضرة السلطان [illegible] وبرنوا ماليك ملوك العرب والسودان

من مخطوطة ري الغليل

GOVERNO DELLA TRIPOLITANIA

UFFICIO POLITICO MILITARE

طرابلس ٢٨ تشرين ثاني ١٩١٦

حضرة الاخ المحترم مهدي افندي

ارجوكم يا اخي اذا يوجد عندكم او بين اوراق المرحوم الوالد سالنامة قديمة لولاية طرابلس الغرب ان تتكرموا علي بها مدة موقتة لمراجعة بعض قيود تهم الدائرة وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي

اخيكم

اسماعيل

وقد توجد عندنا سالنامة سنة ١٣٢٧ وعليه نرجو عدم ارسالها

من رسائل وخط اسماعيل كمالي

ثبت المراجع والمصادر

مخطوطات

1 ـ كتاب الخروبي: محمد علي الخروبي ـ نسخة منقولة عن الأصل..

2 ـ فتح العليم: عبد السلام بن عثمان التاجوري ـ مخطوطة.. مكتبة المصراتي.

3 ـ كتاب غدامس: مصطفى الخوجة ـ مصورة عن باريس.. مكتبة المصراتي.

4 ـ كتاب أحمد بن عبد العزيز: أحمد بن عبد العزيز ـ مصورة عن الأصل.. مكتبة المصراتي.

5 ـ نفحات النسرين والريحان: أحمد النائب ـ مصورة عن الأصل.. مكتبة المصراتي.

6 ـ أشياخ جبل نفوسة: مقرين البغطوري ـ نسخة منقولة عن الأصل.. في مكتبة جربة.

7 ـ يوميات الفقيه حسن: حسن الفقيه ـ منقولة عن الأصل.

8 ـ كناش الزنتاني: الزنتاني ـ نسخة منقولة عن الأصل، مكتبة المصراتي.

9 ـ ري الغليل: م. سيف النصر ـ مصورة عن الأصل 1852م: مكتبة المصراتي.

10 ـ كتابات ورسائل وأوراق متعلقة باسماعيل ونوري وناجي: مكتبة المصراتي.

11 ـ أوراق متنوعة وكنانيش ودفاتر دشت: مكتبة النائب بالأوقاف.

12 ـ التذكار: ابن غلبون ـ نسخة مخطوطة بالأوقاف.

13 ـ تنقيح الأزهار: كريم الدين البرموني ـ مكتبة الأوقاف.

14 ـ أحاديث وذكريات معاصرين للنائب والمدني وإسماعيل وناجي: قيودات ومسجلات مكتبة المصراتي.

15 ـ نيل الابتهاج: أحمد بابا ـ مكتبة المصراتي.

مطبوعات

16 ـ معجم البلدان: ياقوت ـ القاهرة.

17 ـ معجم الأدباء: ياقوت ـ القاهرة.

18 ـ معجم السلفي: أبي طاهر السلفي ـ القاهرة.

19 ـ التذكار: ابن غلبون ـ الطبعة الأولى.. المطبعة السلفية القاهرة 1349هـ.

20 ـ تنقيح روضة الأزهار: محمد بن عمر مخلوف التونسي ـ 1325هـ.

21 ـ السير: أحمد الشماخي ـ طبع قسنطينة بالجزائر.

22 ـ الديباج المذهب: ابن فرحون ـ طبع مصر 1351هـ.

23 ـ المنهل العذب: أحمد النائب ـ جـ1 إسطنبول 1317هـ.

24 ـ المنهل العذب جـ2: أحمد النائب ـ طبع القاهرة.

25 ـ اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة: بشير ظافر ـ القاهرة مطبعة الملاجئ العباسية 1325هـ.

26 ـ سلم العامة والمبتدئين: عبد الله الباروني.

27 ـ الأزهار الرياضية جـ2: سليمان الباروني ـ القاهرة.

28 ـ الدعاية إلى سبيل المؤمنين: ابن إسحاق إبراهيم أطفيش ـ القاهرة المطبعة السلفية 1923م.

29 ـ طرق جبل نفوسة: إبراهيم سليمان الشماخي ـ الجزائر 1885م.

30 ـ الإشارات: عبد السلام بن عثمان ـ طرابلس.

31 ـ طرابلس غرب: ناجي وأخويه ـ ترجمة أكمل الدين إحسان.

32 ـ تراجم أعيان العلماء من أبناء مصراتة: محمد مفتاح قَرّيو المصراتي ـ القاهرة 1970ف مطبعة النهضة الجديدة.

33 ـ نيل الابتهاج: أحمد بابا التمبكتي ـ القاهرة 1350هـ.

34 ـ حسن الوفا لإخوان الصفا: فالح الظاهري ـ الاسكندرية مطبعة شركة المكارم 1323هـ.

35 ـ بحوث ووثائق في التاريخ المغربي: د. عبد الجليل التميمي ـ الدار التونسية للنشر 1972م.

36 ـ المرآة: حمدان عثمان خوجة ترجمة وتحقيق د. محمد عبد الكريم ـ بيروت 1972م.

37 ـ حوليات ليبيا: شارل فيرو. . ترجمة وتعليق د. عبد الكريم وافي.

38 ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن مخلوف ـ القاهرة 1349هـ المطبعة السلفية.

39 ـ معالم الإيمان: الدباغ.

40 ـ ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب أحمد بن عروس: عمر بن علي الجزائري الراشدي ـ تونس 1303هـ.

41 ـ تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر: أحمد تيمور ـ القاهرة 1940م.

42 ـ معجم المطبوعات العربية: سركيس ـ القاهرة.

43 ـ مجلة ليبيا المصورة: بنغازي.

44 ـ مجلة الموسوعات: 1898 ـ 1899م. السنة الأولى القاهرة.

45 ـ لمحات أدبية عن ليبيا: علي مصطفى المصراتي ـ طرابلس. . المطبعة الحكومية 1956م.



مسارد الأعلام

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ



مسارد البلدان والمناطق

— ث —

— ج —

— ع —

— غ —

— ف —

— ق —

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ



مسارد القبائل والشعوب والانتماءات

— ن —

— هـ —

— و —

— ي —

مسارد الكتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المكتبات



المطابع



مؤلفات وتحقيقات علي مصطفى المصراتي

1 - أعلام من طرابلس - مطبعة ماجي - طرابلس 1955 ف.

2 - لمحات أدبية عن ليبيا - المطبعة الحكومية - طرابلس 1956 ف.

3 - إبراهيم الأسطى عمر - شاعر من ليبيا - دار الكشاف - بيروت 1957 ف.

4 - جحا في ليبيا - مطبعة ماجي - طرابلس 1958 ف.

5 - صحافة ليبيا في نصف قرن - دار الكشاف - بيروت 1960 ف.

6 - غومة فارس الصحراء - مطبعة الغندور - بيروت 1960 ف.

7 - أبو قشة وجريدته في طرابلس - مطبعة الغندور - بيروت 1961 ف.

8 - المجتمع الليبي من خلال أمثاله الشعبية - المكتب التجاري - بيروت 1962 ف.

9 - مرسال - مجموعة قصص - المكتب التجاري - بيروت 1963 ف.

10 - أحمد الشّارف - ديوان ودراسة - المكتب التجاري - بيروت 1963 ف.

11 - ابن حمديس الصقلي - اقرأ - دار المعارف - القاهرة 1963ف.

12 - نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الأعيان لأحمد النائب - تحقيق ودراسة - المكتب التجاري - بيروت 1963 ف.

13 - الشراع الممزّق - قصص - دار الكتاب العربي - القاهرة 1963 ف.

14 - حفنة من رماد - مجموعة قصص - مطبعة الغندور - بيروت 1964 ف.

15 - أسد بن الفرات - فاتح صقلية.

16 - سعدون - المكتب التجاري - بيروت 1964 ف.

17 ـ رحلة الحشائشي إلى ليبيا ـ تحقيق ودراسة ـ دار لبنان 1965 ف.

18 ـ ديوان مصطفى بن ذكري ـ تحقيق ودراسة ـ دار لبنان 1966 ف.

19 ـ مجمع الجهلة ـ بيروت 1972 ف.

20 ـ فنون الأدب الشعبي في ليبيا ـ المطبعة الحكومية طرابلس ـ 1966 ف.

21 ـ ابن غلبون ـ المطبعة الحكومية طرابلس ـ 1968 ف.

22 ـ ديوان أحمد البهلول ـ تحقيق ودراسة ـ دار لبنان 1967 ف.

23 ـ الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية والاجتماعية ـ المطبعة الحكومية طرابلس ـ 1966 ف.

24 ـ مؤرّخون من ليبيا ـ المطبعة السريعة ـ الشركة العامة للنشر والتوزيع 1977 ف.

25 ـ رسائل القليبي بين تونس وطرابلس ـ الدار العربية للكتاب 1976 ف.

26 ـ جمال الدين الميلادي ـ مطابع الثورة العربية ـ طرابلس 1977ف.

27 ـ الشمس والغربال ـ مجموعة قصص ـ مطابع الدجوي ـ القاهرة 1977 ف.

28 ـ نماذج في الظل السّفر الأول ـ مطابع الثورة ـ طرابلس 1978 ف.

29 ـ التعابير الشعبية الليبية ـ دلالات اجتماعية ونفسية السّفر الأول ـ المنشأة العامة للنشر والتوزيع ـ طرابلس 1982 ف.

30 ـ خمسون قصة ـ 1983 ف.

31 الحن[illegible]ال في محطة فكتوريا ـ الدار العربية ـ 1991 ف.

32 م[illegible]ة الفراشات ـ 1992 ف.

33 ـ القرد في المطار ـ 1992 ف.

34 ـ عبد الكريم تحت الجسر ـ 1992 ف.

35 ـ قطرات من يراع ـ 1992 ف.

36 ـ التعابير الشعبية ـ السفر الثاني.

37 ـ نماذج في الظل ـ السفر الثاني.

38 ـ وخمسون قصة أخرى.

39 ـ ومضات قصصية ـ الطائر الجريح.

40 ـ رفاق سعدون.

ـ يصدر قريباً:

ـ بشير السعداوي مجاهداً وزعيماً.

ـ رفاق سعدون كوكبة من الشهداء والفرسان.

ـ عاشور في الطابور.

ـ حكايا..

ـ رسائل أحمد زارم إلى محمد بن عباس.

ـ ديوان الشاعر المجاهد علي بن حسن تحقيق ودراسة.

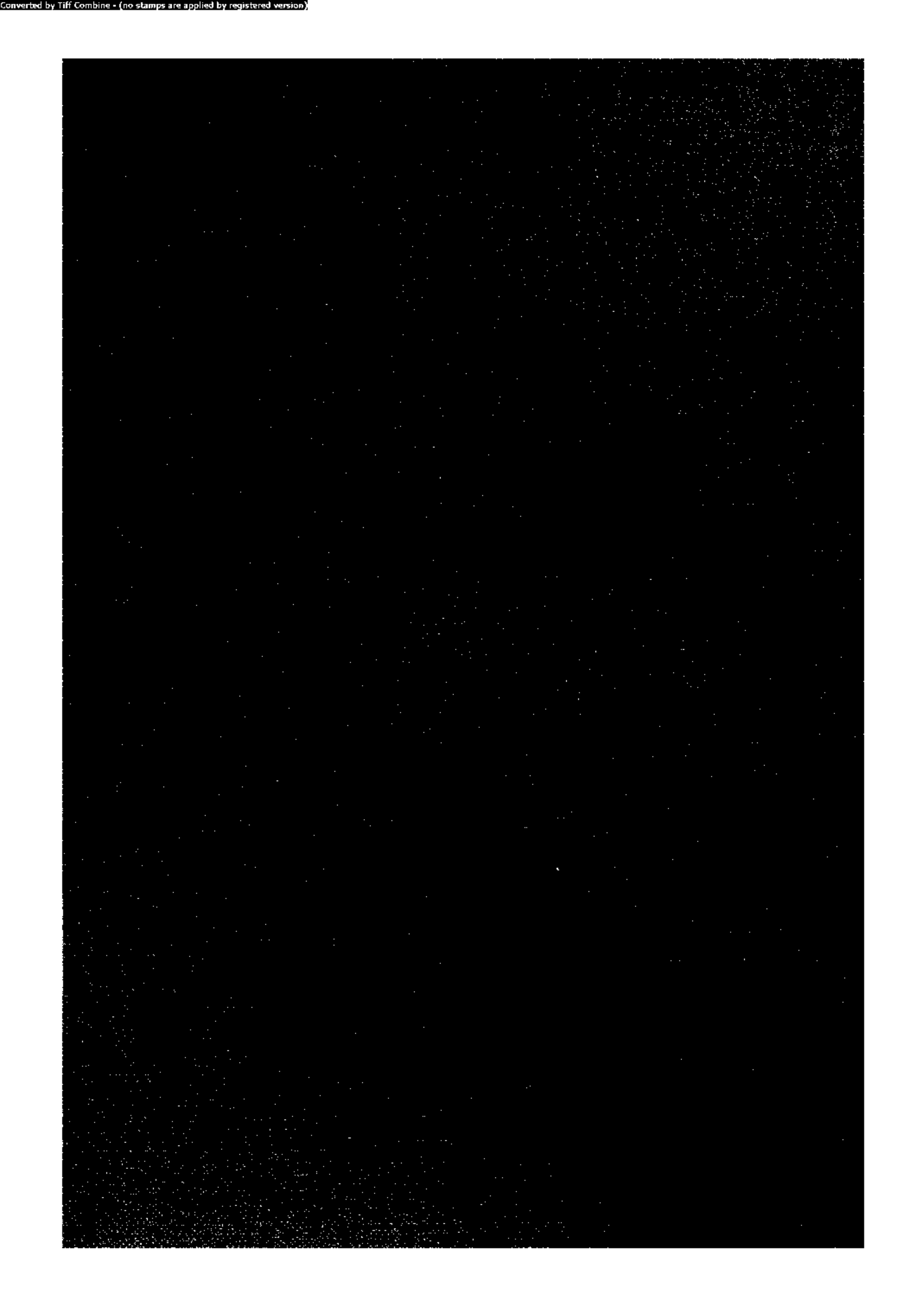
ـ رسائل القصاص ـ خليفة التكبالي تحقيق ودراسة.

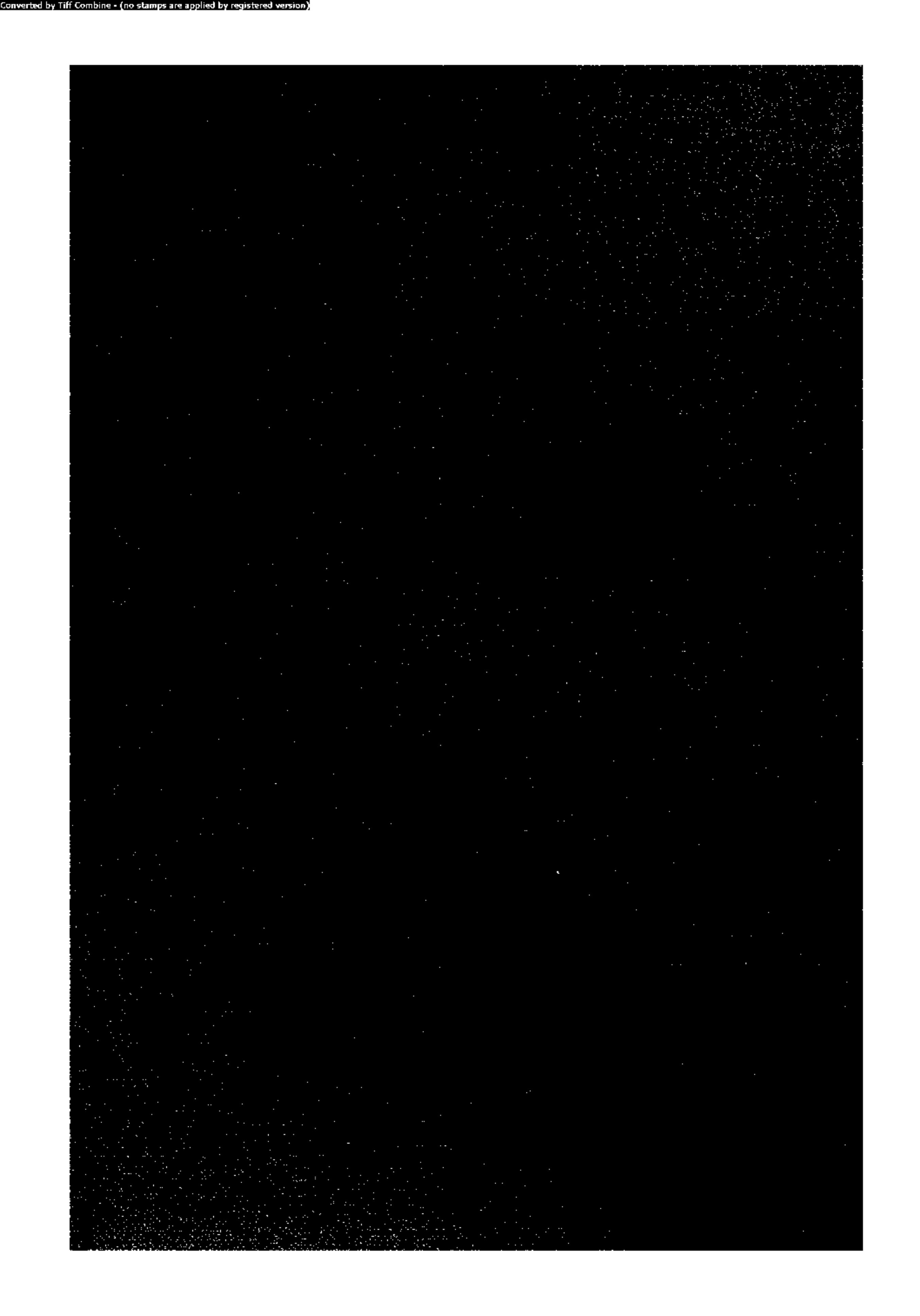


الفهرس











إضافة جديدة من قلم باحث منقب دؤوب لا يعرف الهدوء .. نعتز بتقديمها للقراء والدارسين والمهتمين بمتابعة النشاط الثقافي والفكري في ليبيا بتاريخها البعيد والقريب.

المؤلف : الأستاذ علي مصطفى المصراتي - غني عن التعريف - فإن كتبه الكثيرة المنوعة تحتلّ مكانها اللائق بها في المكتبة الليبية. ونتاجه الغزير يضعه في الصف الأول من أهل العلم ورجال الفكر في هذه البلاد - وهو الذي عالج مختلف فروع المعرفة، تاريخاً واجتماعاً وأدباً ونقداً، وأبدع في فنون القصة القصيرة والمقالة الصحفية، وحقق عدداً كبيراً من كتب التراث، وترجم لشخصيات متعددة في تاريخ الفن والعلم والسياسة. وآثاره معروفة وأعيد طبعها جملة مرات.

الكتاب «مؤرخون من ليبيا» خلاصة وافية لقراءات طويلة متأنية جادة، سلط فيها الأستاذ المصراتي الأضواء بأسلوبه البارع على حياة مؤلفين في مجال التاريخ في ليبيا الإسلامية العربية، ثم على ما تركوا من آثار جديرة بكل اهتمام وعناية. ذلك - كما يقول المؤلف في مقدمته - لأن «ليبيا عرفت أنواعاً وأنماطاً متعددة من الكتّاب والمؤرخين، سواء من ناحية الموضوعات والمضامين التي طرقوا بابها وجالوا في ميادينها، أو من ناحية الأساليب والمناهج التي نهجوها».

ولقد عاش المؤلف سنوات مع هذه المصنفات، وكثير منها لا يزال مخطوطاً أو هو مخطوط وحيد، يقلبها ويدرسها ويبحث عن سيرة مؤلفيها، ثم كان هذا الكتاب جهداً علمياً مكثفاً بذله الباحث حفاظاً على تراثنا العلمي واعتزازاً بتاريخنا.

هذا الكتاب يفتح آفاقاً واسعة للدراسة والمتابعة، ويقدم للمكتبة أثراً جديداً وإضافة ممتازة من قلم لا يعرف طعم الراحة !

د. عل





للنشر والتوزيع والإعلان
AD-DAR AL-JAMAHIRIYA
E-Mail: daraljamahiriya@maktoob.com

